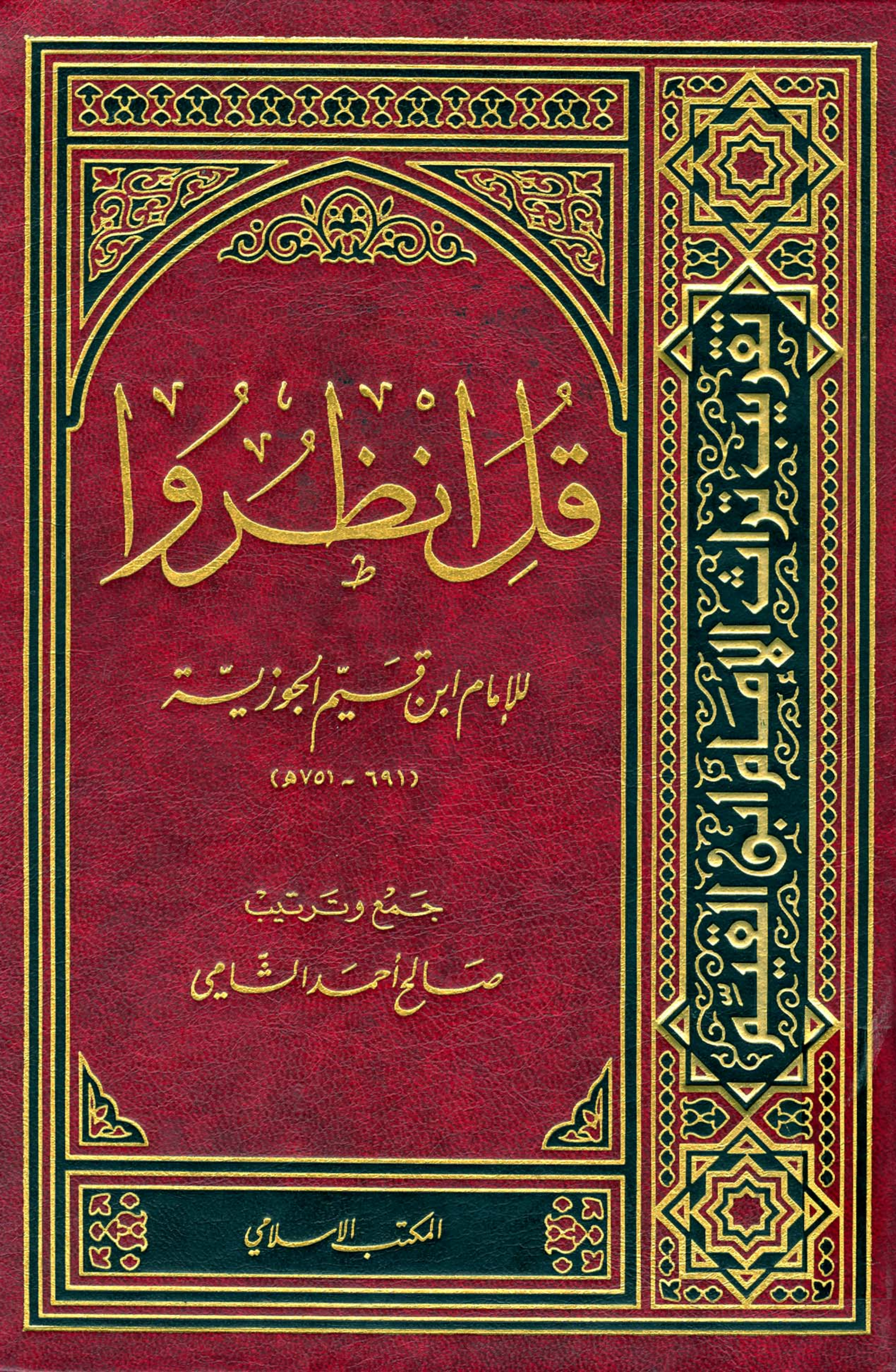

قل انظروا
للإمام ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١هـ)
جمع وترتيب
صالح أحمد الشامي
المكتب الإسلامي
تقريب تراث الإمام ابن القيم

قُلِ انْظُرُوا

للإمام ابن قيّم الجوزيّة

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

جمع وترتيب
صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

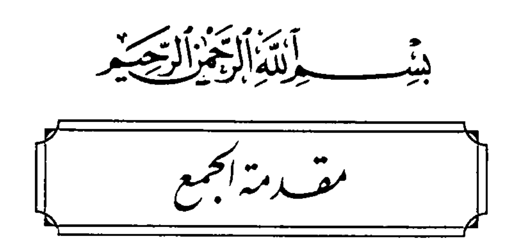
المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ ـ هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٢٠٧٩ ـ هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ ـ هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

[يونس: ١٠١]



إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله.

وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فقد بعث الله ﷻ الرسل إلى الناس على تعاقب الأيام ليأخذوا بأيديهم إلى طريق الهدى والصراط المستقيم، وأيدهم بالمعجزات والآيات الحسية المبصرة، لتكون دليلاً على صدقهم.

ثم كانت الرسالة الخاتمة ـ التي حملها سيد البشر محمد ﷺ إلى الناس كافة ـ في الزمن الذي ارتقى فيه العقل، وأصبح قادراً على تجاوز مرحلة الوقوف عند المحسّ والمبصَرِ، إلى إدراك معروضات تعتمد المحاكمة العقلية والبصر القلبي، والتوصل ـ من خلال العمل الفكري ـ من المشاهَد إلى ما وراء المشاهَد.

ولهذا لم يكن للمعجزات الحسِّيَّة المبصرَة كبير دور في دعوته ﷺ، وإنما كانت جلُّ المعجزات من هذا النوع تأتي تأييداً له ﷺ وهو بين أصحابه المؤمنين به والمصدقين له.

ولهذا اعتمدت دعوته ﷺ على أمرين:

١ ـ دعوة الناس إلى تدبُّر الآيات التي ينزل بها الوحي من عند الله تعالى.

٢ ـ دعوتهم إلى النظر في هذا الكون وما فيه، والتعرف على الخالق ﷻ من خلال النظر وإمعان الفكر في مخلوقاته سبحانه.

وهكذا كان الناس في دعوته ﷺ أمام كتابين:

أحدهما: الكتاب المقروء الذي نزل به الوحي.

والثاني: الكتاب المنظور، وهو كتاب الكون المفتوح.

ومن هنا: تكررت الدعوة في القرآن إلى تدبر هذا الكتاب.

فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[(٢)].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[(٤)].

---

(١) سورة ص، الآية (٢٩).

(٢) سورة محمد ﷺ، الآية (٢٤).

(٣) سورة النساء، الآية (٨٢).

(٤) سورة المؤمنون، الآية (٦٨).

كما كثرت الدعوة إلى النظر إلى الكون في كلياته وجزئياته، وكثر استعمال مادة «البصر» و«النظر» و«الفكر» و«العقل» و«أولي الألباب». . . في القرآن أيضاً.

وهذه الدعوة إلى النظر لا تنحصر فائدتها في أصل الإيمان وحسب بل تتعدى ذلك لتفيد العلم بوحدانيته تعالى. والتعرف على صفات كماله ونعوت جلاله، وعظيم أسمائه.

ثم إن التفكير والنظر في الكون يعدُّ عبادة، فهو طاعة لله ﷻ في تنفيذ ما أمر به في القرآن الكريم من النظر في النفس والسماء والأرض. . .

فالمتفكر في مخلوقات الله عابد لله منفذ لأمره في فعله هذا.

ولما كان النظر هو نقطة البداية في أداء هذه العبادة، فقد جاءت الآيات الكثيرة داعية إلى ذلك. وهو ما سوف نراه في الفقرة التالية.

وقد عرض الإمام ابن قيم الجوزية لهذا الموضوع، وأفاض في الحديث عنه في كتابيه «شفاء العليل» و«مفتاح دار السعادة» فكان من المستحسن ـ فيما أرى ـ لمُّ شملِ هذا الموضوع مما جاء في هذين الكتابين وإخراجه في كتاب واحد، بحيث يصبح مرجعاً لهذا المبحث، يرجع إليه من أراد ذلك.

واخترت له عنواناً يدل دلالة واضحة على الموضوع، وهو (قل انظروا) أخذاً من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

---

(١) سورة يونس، الآية (١٠١).

والخيرَ أردت، فإن يكن ما قصدت إليه ـ من تقريب تراث الإمام ابن القيم إلى أيدي الناس ـ خيراً وصواباً، فهو من الله وحده، وهو المنان الملهم لكل خير، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والله سبحانه المسؤول والمأمول أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه، إنه قريب مجيب.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً.

آيات كريمة
في الدعوة إلى النظر

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ۝٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق: ٦ ـ ٨].

وقال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [إبراهيم: ١٩].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣، ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

* * *

عبادة النظر والتفكير

كثيرة كثيرة هي المشاهد الكونية التي جاء القرآن الكريم على ذكرها، ودعا الناس إلى الوقوف أمامها، وإعمال الفكر بعد النظر فيها. ونذكر نماذج قليلة من ذلك:

قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٦٤).

تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾(٣).

إنها دعوة للناس للنظر في كتاب الكون المفتوح للتعرف من خلاله على خالقه والإيمان به سبحانه وتعالى.

ولا شك أنها الطريقة المثلى، التي تضع الإنسان أمام يقينيات لا يستطيع العاقل إنكارها.

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة النحل، الآيات (١٠ ـ ١٧).

(٢) سورة النحل، الآيات (٦٦ ـ ٦٩).

(٣) سورة الغاشية، الآيات (١٧ ـ ٢١).

على أن هناك فريقاً من الناس آثر أن يغلق منافذ الحس ويعيش في ظلام مطبق بعيداً عن إعمال الفكر والقلب.

قال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[3].

* * *

هذه الآيات وغيرها، عندما يقف المؤمن أمامها، فثمة موقف مغاير ونتيجة إيجابية، تزيد الإيمان.

وهذا ما أثبتته الآيات الكريمة.

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[4].

---

(١) سورة الحج، الآية (٤٦).

(٢) سورة يونس، الآية (١٠١).

(٣) سورة يوسف، الآيتان (١٠٥، ١٠٦).

(٤) سورة الزمر، الآية (٢١).

وقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1].

وهكذا ينتج التفكير الاعتراف بعظمته تعالى، وانتفاء فعله ـ سبحانه ـ عن العبث والباطل...

وهكذا تستقر الحقائق في نفوس المؤمنين بعد نظر وإعمال فكر، فتخشع القلوب وتدمع العيون.

❁ ❁ ❁

سبقت الإشارة إلى أن آيات المشاهد الكونية في القرآن الكريم تأخذ مساحة واسعة من صفحات هذا الكتاب الكريم.

وإذا كانت تلاوة هذه الآيات الكريمة من العبادة، فإن من العبادة أيضاً ـ ومن باب أولى ـ العمل بما جاء بها من نظر وإمعان فكر.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[2].

أخرج مسلم عن أبي وائل قال: جاء رجل يقال له: نهيك بن سنان إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني لأقرأ المفصل في ركعة، فقال عبد الله: هذّاً كهذِّ الشعر[3]؟ إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب، فرسخ فيه، نفع[4]...

(١) سورة آل عمران، الآيتان (١٩٠، ١٩١).
(٢) سورة محمد ﷺ، الآية (٢٤).
(٣) الهذ: شدة الإسراع، والإفراط في العجلة.
(٤) أخرجه مسلم برقم (٨٢٢).

وإذاً، لم ينزل القرآن لمجرد التلاوة، وإنما لتعمل آياته في النفوس ومن ثم في المجتمع...

ولهذا كثر في الآيات قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

إن إعمال العقل والفكر فيما أمر به الله تعالى، هو العبادة والطاعة.

وقد نقلت السنة فعل الرسول ﷺ، وهو ينظر في السماء. ويتلو آيات آل عمران.

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: بت عند خالتي ميمونة، فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد، فلما كان ثلث الليل الآخر، قعد فنظر إلى السماء فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ثم قام فتوضأ واستن[1] فصلى إحدى عشرة ركعة، ثم أذن بلال، فصلى ركعتين، ثم خرج فصلى الصبح[2].

وعن حميد بن عبد الرحمن بن عوف: أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ، قال: قلت وأنا في سفر مع رسول الله ﷺ، لأرقبن رسول الله ﷺ، لصلاة حتى أرى فعله، فلما صلى صلاة العشاء، اضطجع هوياً من الليل، ثم استيقظ فنظر في الأفق فقال: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[3]...

ثم ذكر صلاته ﷺ[4].

---

(١) استن: أي استعمل السواك. والآية من سورة آل عمران (١٩٠).

(٢) متفق عليه (خ٤٥٦٩، م٧٦٣) واللفظ للبخاري.

(٣) سورة آل عمران، الآيات (١٩١ ـ ١٩٤).

(٤) أخرجه النسائي برقم (١٦٢٥).

وهكذا يؤكد الحديثان أن تلاوة هذه الآيات صاحبها النظر في السماء في الحديث الأول، والنظر في الأفق في الحديث الثاني...

إن الفعل صاحَبَ التلاوة...

كيف لا، والقرآن يرسم لنا في هذه الآيات الحالة التي ينبغي أن يكون عليها أولو الألباب وهم يتلون مثل هذه الآيات.

ولننظر بإمعان إلى النص القرآني الكريم:

قال تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[1].

فهل يعقل أن يستمع الصحابة ﷺ، إلى هذه الآيات، ثم لا يسارعوا إلى تنفيذ ما فيها. وهم الجيل الذي تعلم العلم والعمل معاً!!

❁ ❁ ❁

وقد وردت أقوال كثيرة على لسان السلف تدل على مدى اهتمامهم بهذه العبادة ورعايتها.

---

(١) سورة آل عمران، الآيات (١٩٠ ـ ١٩٤).

قال الحسن البصري: عن عامر بن عبد قيس، قال: سمعت غير واحد، ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، يقولون: إن ضياء الإيمان، أو نور الإيمان، التفكر.

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ.

وقال الشيخ أبو سليمان الداراني: إني لأخرج من منزلي، فما يقع بصري على شيء إلا رأيت لله عليَّ فيه نعمة، ولي فيه عبرة.

وقال الحسن البصري: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال سفيان بن عيينة: الفكر نور يدخل قلبك.

وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بذكر الله ﷻ حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة.

وعنه أيضاً: أنه بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال: فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها، ما تكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر، إن فيها مواعظ لمن ادَّكر[1].

وعن محمد بن واسع: أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر، بعد موت أبي ذر، فسألها عن عبادته، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر.

وقال الحسن البصري: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو،

---

(١) هذا الخبر وما قبله في تفسير ابن كثير عند الآية (١٩٠) وما بعدها من سورة آل عمران.

ومن لم يكن سكوته تفكراً فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو [1].

وقال تعالى في ميدان التفكير والخشية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[2].

واضح من الآيتين: أن رؤية الألوان في الثمرات، ورؤية الألوان في الجبال والتربة، ورؤية الألوان في الناس، ورؤية الألوان في الدواب والأنعام. واضح أن هذه الرؤية التي تشمل عالم النبات، وعالم الجماد، وعالم الأحياء تأخذ بالفكر إلى وحدة الصانع وقدرته وعظمته... مما يخشع له القلب المبصر الذي لم يقف عند ظواهر الأشياء، بل جاوز ذلك إلى حقائقها، وانتقل من التنوع إلى الوحدة إنها القدرة على التلوين لكل الأشياء.

هذه العملية التي تبدأ من الرؤية ثم تنتقل إلى الفكر للمقارنة والاستنتاج، ثم الوصول إلى ما وراء الرؤية والفكرة والاستنتاج إلى المبدع والتعرف عليه من خلال مخلوقاته. هي التي أطلق عليها القرآن الكريم اسم «العلم».

وإذا كانت الآيتان السابقتان قد طافتا بنا في طول الأرض

---

(١) هذا الخبر والذي قبله في المهذب في إحياء علوم الدين (٢/ ٤٢٩).
(٢) سورة فاطر، الآيتان (٢٧، ٢٨).

وعرضها وما عليها من حيوان وإنسان ونبات، وما فيها من صخور وجبال، فإن آيات أخرى تحدد طلب النظر في ميدان واحد.

قال تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[1].

وبعد تدقيق النظر في الأنفس، تبين أن الإنسان، هذا المخلوق عالم قائم بذاته، إن عالم الحيوية فيه، وتنوع الأعمال التي تقوم بها أعضاء الجسم وأجهزته تحتاج إلى نظرة لا تقل عن تلك النظرة التي طافت بنا الأرض كلها... وما تزال هذه النفس مجهولة تماماً كما يقول العلماء من الأطباء[2]...

وهنا وهناك يخشع القلب حين تنفتح له آفاق العلم.

وأخيراً: من الملفت للنظر أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ في ختام هاتين الآيتين.

الأمر الذي يحرر العلم من القيود... فالنظر في المخلوقات... علم...

ولا يكون العلم علماً إلا إذا كانت الخشية من ثمراته.

❁ ❁ ❁

وإذا كان الإسلام قد جعل النظر والتفكير في مخلوقات الله عبادة، فلا يعني أن ذلك قاصر على القضية الإيمانية، وأن فائدته خاصة بما يعود على الإنسان في أخراه، فما كانت الدنيا في منهج الإسلام منفصلة عن الآخرة.

---

(١) سورة الذاريات، الآية (٢١).

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب «الإنسان ذلك المجهول» تأليف ألكسيس كاريل.

بل إن للنظر والتفكير أثرهما في بناء الحياة والاستفادة مما سخره الله ﷻ لنا.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾[1].

وعندما عمل المسلمون بتوجيه قرآنهم كان لهم دور القيادة في الأرض، فاستفادوا مما سخره الله تعالى في خير البشر جميعاً...

وعندما نغفل هذا الجانب في حياتنا، فإنما نترك بعض أوامر ديننا.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله:

«ما معنى أن أعبر الحياة دون تعريج على شيء منها؟ إن خالق هذه الحياة قال: اعرفوا أسمائي الحسنى وصفاتي العلا في تضاعيف المكان والزمان، وفي مسيرة الحياة والأحياء، إنكم لن تعرفوا عظمتي إذا انطلقتم من المهد إلى اللحد عمياناً عن آياتي في الأرض والسماء، وعن أقداري في الأفراد والأمم.

إنه أقسم بالشمس والقمر، والليل والنهار، والفجر والشفق، والوالد والولد، بل يقسم بما نبصر وما لا نبصر، لأن رؤية السطوح لا تغني عن رؤية الأعماق.

أقسم بالرياح عاصفة ولطيفة، وبخيل المجاهدين يتطاير الشرر من تحت سنابكها وهي في المعركة الأزلية بين الحق

---

(١) سورة لقمان، الآية (٢٠).

والباطل. أقسم بهذا كله لنتعرف عليه ونعيش في جوه ونفيد من عبره.

فكيف يقول: أنا عارف بالله، من هو جاهل بالحياة وأسرارها وقواها ونواميسها؟

عندما تساءل منكرو البعث: كيف يقع النشور، جاءت إجابة القرآن الكريم على هذا النحو: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

السير في الأرض لدراسة الحياة، هو طريق الإيمان بالله ولقائه، لا بد من السباحة في أمواج الحياة ومعرفة تياراتها ومدها وجزرها، وشواطئها، وأسباب الغرق والنجاة.

ليست البلاهة إيماناً، ولا الجهل صلاحاً، إن الخبرة بالحياة والقدرة على امتلاكها وتطويعها لخدمة ربها هي الإيمان والعمل الصالح...»[2].

وكما كانت الزكاة عبادة، ومع ذلك فهي جزء أصيل في نظام الإسلام الاقتصادي فكذلك التفكير عبادة، ومع ذلك فهو وسيلة لبناء الإيمان وبناء الحياة[3].

---

(١) سورة العنكبوت، الآيتان (١٩، ٢٠).

(٢) الحق المر، للشيخ محمد الغزالي، تحت عنوان «الدنيا الخادمة للحق... دين» ط١ ١٩٩٠م الناشر: الشركة السعودية للأبحاث والنشر.

(٣) جاء هذا الفصل في باب عبادته ﷺ من كتاب «من معين الشمائل» لكاتب هذه الأحرف، فأحببت أن أقدم به لهذا الكتاب، إذ هو في الموضوع ذاته.

منهج ابن القيّم في تأليفه

أقام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتبه على أساس من التنوع في الموضوعات، فإنه قلما يقتصر في الكتاب الواحد على موضوع واحد، ولذا فأنت عندما تفتح كتاباً من مؤلفاته، تجد نفسك أمام حديقة غناء، وارفة الظلال، متنوعة الثمار. . .

وهذا ما يفسر لنا اختياره لعناوين عريضة قابلة لما يوضع تحتها.

وفي هذا يقول الدكتور صبحي الصالح:

«وقد يكون عسيراً على الباحث تسمية شيء من كتب ابن القيم باسم موضوعي خاص، إذ لم يغلب عليها لون خاص فتنتمي إليه.

فما كتبه في علم الكلام لا يخلو من المسائل الفقهية، ومن المواعظ المرققة للقلوب.

وما كتبه في الفقه وأصوله لا يبرأ من الأبحاث الكلامية، ومن المواعظ أيضاً.

وما كتبه في السيرة، لم يقصد به حوادث التاريخ لذاتها، بل لهداية النفوس إلى الخير، ودعوتها إلى التأسي بسيد الخلق محمد ﷺ.

وحتى ما كتبه في المواعظ والرقائق لم يكن أخباراً تروى على طريقة الوعاظ والقصاص، بل أبحاثاً عميقة في شؤون

الكون والحياة والإنسان، تثبت من خلالها أحكام الشريعة وأسرار تلك الأحكام...»[1].

ويقول الشيخ بكر أبو زيد في صدد الحديث عن فقهه:

«وفقهه ـ رحمه الله تعالى ـ منتشر فيها [أي كتبه] على اختلاف موضوعاتها: فما كتبه في المواضيع العقدية لا يخلو من المباحث الفقهية.

وما ألفه في الفقهيات يشمل بحوثاً في العقيدة ومناقشة الكلاميين، وهكذا.

وما ألفه في الفقه أيضاً، لم يكن جارياً على الترتيب الفقهي المشهور لدى أرباب المذاهب...»[2].

وإذا كان ما قاله كل من الدكتور الصالح والشيخ بكر أبو زيد نتيجة لاستقراء واسع لكتب الإمام، فإن الإمام نفسه يعرفنا على طريقته في آخر كتابه «مفتاح دار السعادة» فيقول:

«وقد جلبت إليك فيه [أي هذا الكتاب] نفائس في مثلها يتنافس المتنافسون، وجلّيت عليك فيه عرائس إلى مثلهن بادر الخاطبون:

فإن شئتَ اقتبست منه معرفة العلم وفضله، وشدة الحاجة إليه، وشرفه وشرف أهله، وعِظَم موقعه في الدارين.

وإن شئتَ اقتبست منه معرفة إثبات الصانع بطرق واضحات

---

(١) التقريب لفقه ابن قيم الجوزية، للشيخ بكر أبو زيد القسم الأول ص٩٤.

(٢) المرجع قبله ص٩.

جليات تَلِجُ القلوب بغير استئذان، ومعرفة حكمته في خلقه وأمره.

وإن شئتَ اقتبست منه معرفة قدر الشريعة، وشدة الحاجة إليها، ومعرفة جلالتها وحكمتها.

وإن شئتَ اقتبست منه معرفة النبوَّة، وشدة الحاجة إليها، بل وضرورة الوجود إليها، وأنه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يخلي العالَمَ عنها.

وإن شئتَ اقتبست منه معرفة ما فطر الله عليه العقول من تحسين الحسن، وتقبيح القبيح، وأن ذلك أمر عقلي فطري، بالأدلة والبراهين التي اشتمل عليها هذا الكتاب، ولا توجد في غيره.

وإن شئتَ اقتبست منه معرفة الرد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلغ طرق الرد، من نفس صناعتهم وعلمهم، وإلزامهم بالإلزامات المفحمة التي لا جواب لهم عنها، وإبداء تناقضهم في صناعتهم، وفضائحهم وكذبهم على الخَلْق والأمر.

وإن شئتَ اقتبست منه معرفة الطيرة والفأل والزجر، والفرق بين صحيح ذلك وباطله، ومعرفة مراتب هذه في الشريعة والقدر.

وإن شئتَ اقتبست منه أصولاً نافعة جامعة، مما تكمل به النفس البشرية وتنال بها سعادتها في معاشعها ومعادها.

إلى غير ذلك من الفوائد...»[1].

وما قاله ابن القيم عن هذا الكتاب، ينطبق على كثير من كتبه الأخرى مثل «زاد المعاد» و«إعلام الموقعين» و«إغاثة اللهفان» وغيرها.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩).

ولعل هذا الأسلوب الذي درج عليه ﷺ هو الذي دفع فضيلة الشيخ بكر أبو زيد إلى إخراج كتابه القيم «التقريب لفقه ابن قيم الجوزية»، هذا الفقه الذي انتشر وتوزع في جميع كتبه، فكان من الضرورة بمكان وجود كشاف يبين أماكن هذه الأحكام فكان كتاب التقريب.

وقد نتج عن هذه الطريقة التي اتبعها ابن القيم في تآليفه، والتي سبق عرضها:

١ ـ غياب كثير من الموضوعات في ثنايا الكتب، حيث لا دليل عليها من عنوان أو فهرس أو مقدمة.

٢ ـ تكرار الموضوع الواحد في أكثر من كتاب.

٣ ـ تكرار الموضوع الواحد في مكانين من الكتاب الواحد.

٤ ـ ذكر بعض الموضوع في كتاب، وبعضه الآخر في كتاب آخر.

الأمر الذي يضيع وقت القارئ في بعض الأحيان، ويتعبه في بعضها الآخر إذا أراد تتبع الموضوع والبحث عنه في أماكن وجوده.

وإزاء هذا الواقع، وفي وقت قامت فيه التخصصات في كل ميدان، كان من المستحسن أن يقدم هذا التراث للقارئ على أساس موضوعي حتى يتاح له الاستفادة منه بيسر وسهولة.

ولا يتم ذلك إلا بما يمكن أن أسميه «الفرز الموضوعي» حيث تجمع مادة الموضوع الواحد من الكتب التي ذكر فيها، ثم يتم التنسيق بين المادة المجموعة بعد ذلك، وتخرج في كتاب مستقل يحمل عنوان الموضوع محل الجمع.

وكتابنا هذا يمكن أن يعد أنموذجاً لهذا العمل.

دواعي هذا الجمع وطريقته

إن قضية النظر والتفكير التي دعا إليها القرآن الكريم أضحت غائبة عن حياة كثير من المسلمين، وهي من مفاخر هذا الدين التي امتاز بها على جميع الأديان والعقائد.

فإذا كانت بعض الأديان تطلب من أتباعها تغييب عقولهم، حتى يَسْلَمَ لهم إيمانهم، فإن الإسلام يحثُّ على النظر والفكر حتى تستقر العقيدة في القلب سليمة صحيحة.

وقد تناول ابن القيم رحمه الله هذا الموضوع في كتابه «شفاء العليل» ليثبت من خلاله الحكمة في أفعاله تبارك وتعالى وأوامره، وينفي عنها العبث.

ثم رأيته في كتابه «مفتاح دار السعادة» يتوسع في هذا الموضوع، وينقل القارئ من القراءة إلى المشاهَدة والبحث.

ورأيت أن ما كتبه في هذين الكتابين ـ في هذا الموضوع ـ ينبغي أن يفرد في كتاب مستقل، يكون مرجعاً في بابه.

وقد تم إنجاز العمل حسب الخطوات التالية:

١ ـ تبين من استطلاع الموضوع أن القضايا التي جعلها ابن القيم محلاً للنظر، هي:

ـ عالم الإنسان.

ـ عالم الكون.

ـ عالم الحيوان.

ـ عالم النبات.

- يضاف إليها أمر النظر في الشريعة والتعرف على حكمتها وجمالها، وهذا جانب قائم بذاته.

فتم إخراج مادة الموضوع من الكتابين، وصنفتُ حسب هذا التقسيم، كل قسم في باب خاص به.

٢ - ثم قسمت ما انضوى تحت هذه الأبواب إلى فصول حسب الموضوعات الفرعية.

٣ - ثم كانت مقارنة النصوص التي انضوت تحت كل فصل للتخلص من التكرار.

والتكرار ناتج - كما ذكرت - عن معالجة الموضوع في كتابين، ولهذا تكررت موضوعات كثيرة.

كما أن المؤلف في كتاب «مفتاح دار السعادة» كرر بعض الموضوعات أكثر من مرة. بل إنه صرح بذلك بقوله: «ونحن نذكر هنا فصولاً منثورة في هذا الباب مختصرة، وإن تضمنت بعض التكرار، وإن كانت غير مرتبة، فلا ضير بالتكرار وترك الترتيب في هذا المقام»[1] فكان لا بد من التخلص من هذا التكرار.

٤ - وعندما يطول الفصل الواحد، وتجتمع فيه أفكار متعددة، فإني أقسمه إلى فقرات، واضعاً لكل منها عنواناً فرعياً، ليسهل التعرف على عناصر موضوع الفصل.

٥ - تحدث المؤلف أثناء بحوثه - استطراداً أو تعليلاً - عن عملية النظر وأدوات الإدراك عند الإنسان. فكان من المستحسن إفراز هذه المادة ووضعها في باب خاص بها، وجعلته الباب الأول، ليكون مدخلاً إلى الكتاب.

وربما كان هذا الباب من أنفَسِ ما في الكتاب، وقد كانت عناصره وراء حجاب فكان إبرازها من حسنات هذا العمل.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٤) وأكد ذلك مرة أخرى (٢/ ٢٠٠).

٦ ـ أما مقدمة المصنف فقد تم تجميعها من أكثر من مكان من الكتاب بحيث تؤدي الغرض الذي قصد إليه المؤلف من هذا الموضوع.

٧ ـ جميع تقسيمات الكتاب، ابتداءً من الأبواب، وانتهاءً بالفقرات، هي من عملي، وكذلك فجميع العناوين في الكتاب هي من اختياري، فالمؤلف رحمه الله لم يضع عناوين للفصول الواردة في كتابيه.

٨ ـ وقد اعتمدت كتاب «مفتاح دار السعادة» أساساً لهذا الكتاب، وأضفت إليه ما ليس فيه من كتاب «شفاء العليل» وقد أشرت في الحاشية إلى النصوص التي أخذت من كتاب «شفاء العليل» وبينت أماكنها في الأصل.

أما ما أخذته من الكتاب الأول فلم أشر إلى مكانه. وهو بجملته مأخوذ من الجزء الثاني ابتداء من أوله وحتى الصفحة ٢٤٩ ومن الفصول ١٣٤ ـ ١٤٢. ومن أماكن من الجزء الأول أشرت إليها في الحاشية.

٩ ـ أما طبعة الكتاب الأول «مفتاح دار السعادة» فهي صادرة عن دار ابن عفان عام ١٤١٦هـ بعناية الشيخ علي بن حسن الحلبي الأثري.

وأما «شفاء العليل» فقد طبعته مكتبة العبيكان في الرياض عام ١٤٢٠هـ بتحقيق فضيلة الشيخ عمر بن سليمان الحفيان.

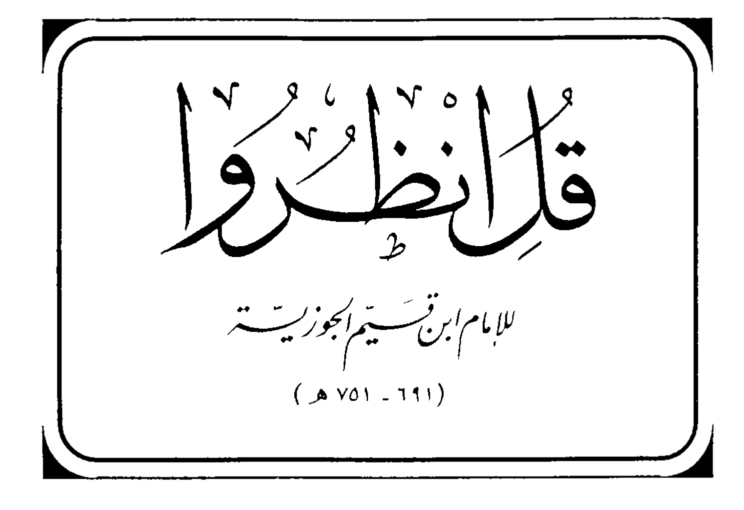
هذا وأرجو الله تعالى أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه وكذلك سائر أعمالي، إنه سميع مجيب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

غرة صفر سنة ١٤٢٢هـ

٢٤/٤/٢٠٠١م

كتبه

صالح أحمد الشامي


قل انظروا
للإمام ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١ هـ)



مقدمة المصنف

الحمد لله الذي سهَّل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلاً، وأوضح لهم طريق الهداية، وجعل اتِّباع الرسولِ عليها دليلاً، واتخذهم عبيداً له فأقروا به بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيلاً، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

والحمد لله الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المسلمين كفيلاً، واختص هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلاً، يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصِّرون بنور الله أهل العمى، ويحيون بكتابه الموتى، فهم أحسن الناس هدياً وأقومهم قيلاً.

فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، ومن ضالٍ جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه، ومن مبتدع في دين الله بشهب الحق قد رموه، جهاداً في الله، وابتغاء مرضاته، وبياناً لحججه على العالمين وبيّناته، وطلباً للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة أشهد بها مع الشاهدين، وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين.

وأشهد أن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المرتضى،

ورسوله الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، أرسله رحمة للعالمين، ومحجة للسالكين، وحجة على العباد أجمعين.

أرسله على حين فترة من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق، وأوضح السبل، وافترض على العباد طاعته، وتعظيمه، وتوقيره، وتبجيله، والقيام بحقوقه.

فصلى الله عليه، وعلى آله الطيبين الطاهرين، صلاة دائمة بدوام السّماوات والأرضين، مقيمة عليهم أبداً لا تروم انتقالاً عنهم ولا تحويلاً.

أما بعد:

[فإن] كلاً من العلم والعمل ينقسم قسمين:

منه ما يكون وسيلة.

ومنه ما يكون غاية.

فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها، فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

فقد أخبر سبحانه أنه خلق السّماوات والأرض، ونزل الأمر بينهن ليُعلِم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير.

فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة.

وقال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

فالعلم بوحدانيته تعالى، وأنه لا إله إلا هو، مطلوب لذاته، وإن كان لا يكتفى به وحده، بل لا بد معه من عبادته وحده، لا شريك له.

فهما أمران مطلوبان لأنفسهما:

أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه.

وأن يعبد بموجبها ومقتضاها.

فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها، فكذلك العلم به ومعرفته[1].

[وقد] ثبت عن بعض السلف أنه قال: تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة.

وسأل رجل أم الدرداء عن أبي الدرداء ـ بعد موته ـ عن عبادته؟ فقالت: كان نهاره أجمعه في تأدية التفكر.

وقال الحسن: نفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وقال الفضيل: التفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة، فقال: الفكرة مخ العقل.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال: أمنعهم التفكر فيها.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة.

---

(١) من قوله «أما بعد» إلى هنا من الجزء الأول ص٥٣٥.

وقال بشر: لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه.

ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة.

وهذا لأن الفكرة عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح.

وأيضاً. فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان، على ما لا يوقعه العمل المجرد، فإن التفكر يوجب له، انكشاف حقائق الأمور وظهورها له، وتميز مراتبها في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها[1].

وإذا تأمَّلْتَ ما دَعا اللَّهُ سبحانُه في كتابهِ عبادَهُ إلى الفكرِ فيهِ أوقَعَكَ على العلمِ بهِ ﷻ بوحدانيَّتهِ وصفاتِ كمالهِ ونُعوتِ جلالهِ من عموم قُدرتهِ وعلمهِ وكمالِ حِكمَتهِ ورحمتهِ وإحسانهِ وَبِرِّهِ ولُطفهِ وعَدلهِ ورضاهُ وغضبهِ وثوابهِ وعقابهِ.

فبهذا تَعَرَّفَ إلى عبادهِ ونَدَبَهُم إلى التَّفكُّرِ في آياتِه.

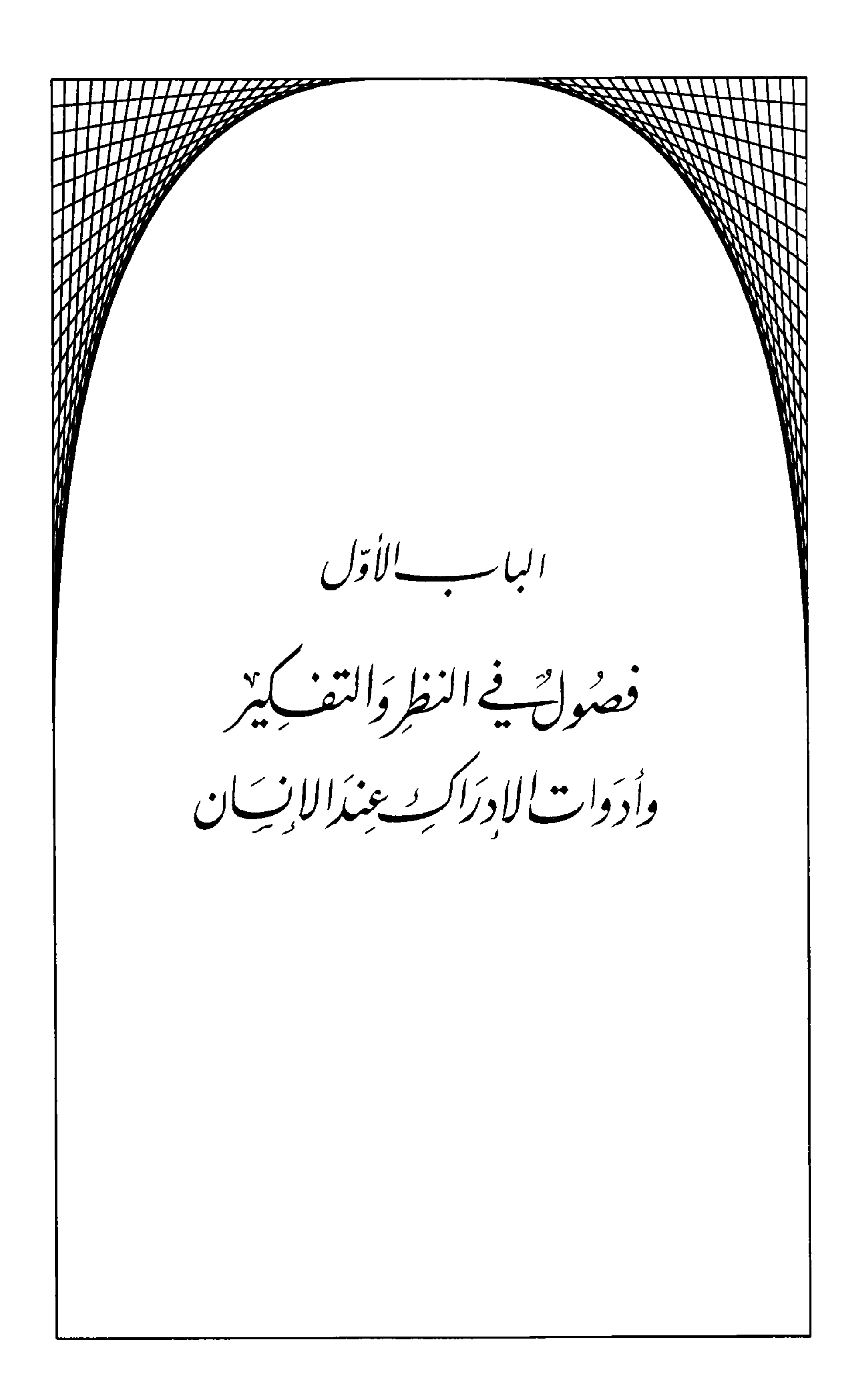
ونَذكُرُ لذلكَ أمثلَةً ممَّا ذَكرها اللَّهُ سبحانَه في كتابهِ لِيُستَدَلَّ بها على غَيرها[2].



(١) من الجزء الأول ص٥٣٨ ـ ٥٤٠.

(٢) من الجزء الثاني ص٥.

أقول: ولما كان موضوع الكتاب هو النظر والتفكر في كتاب الله وفي مخلوقاته ﷻ استدلالاً على وحدانيته وعظمته وحكمته... ناسب أن أقتبس من كلام المصنف رحمه الله تعالى هذه الفقرات من أماكن من كتابه، مضافة إلى بعض مقدمته، فكانت مقدمة لهذا الكتاب تبين موضوعه.



الباب الأول

فصول في النظر والتفكير وأدوات الإدراك عند الإنسان

الفصل الأول
بين النظر والتدبر(1)

[أصلان نص القرآن عليهما]

[ندب الله سبحانه الناس إلى] تدبر كلامه والنظر في آثار أفعاله.

وإلى هذين الأصلين نَدَبَ عبادَهُ في القرآنِ.

فقال في الأصلِ الأوَّلِ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء: ٨٢].

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقال في الأصلِ الثَّاني:

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

---

(١) جاء هذا البحث في آخر الفصل (١٢) من «مفتاح دار السعادة».

وقال: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥﴾ [الجاثية: ٣ ـ ٥].

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [الروم: ٩].

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [الروم: ٤٢].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ [الروم: ٢٠ ـ ٢٥].

ونوَّعَ سبحانَه الآياتِ في هذه السُّوَرِ؛ فَجَعَلَ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ واختلافَ لُغاتِ الأُمَمِ وألوانهم آياتٍ للعالمينَ كلِّهم؛ لاشتراكهم في العلمِ بذلكَ وظهورِهِ ووضوحِ دلالتِهِ.

وجَعَلَ خَلْقَ الأزواجِ التي تَسكُنُ إليهنّ الرِّجالُ وإلقاءَ المودَّةِ والرَّحمَةِ بينهم آياتٍ لقومٍ يتفكَّرون؛ فإنَّ سكونَ الرَّجلِ إلى امرأتهِ وما يكونُ بينهما من المودَّةِ والتَّعاطفِ والتَّراحمِ أمرٌ باطنٌ مشهودٌ بعَينِ الفكرَةِ والبَصيرَةِ.

فمتى نَظَرَ بهذه العَينِ إلى الحكمَةِ والرَّحمَةِ والقُدرَةِ التي صَدَرَ عنها ذلكَ دلَّهُ فِكْرُهُ على أنَّهُ الإلهُ الحقُّ المبين الذي أقرَّتِ الفِطَرُ بربوبيَّتهِ وإلٰهيَّتهِ وحكمتهِ ورحمتهِ.

وجَعَلَ المنامَ باللَّيلِ والنَّهارِ للتَصرُّفِ في المعاش وابتغاءِ

فَضْلِهِ آياتٍ لقوم يسمعونَ؛ وهو سمعُ الفَهمِ وتدبُّرِ هذه الآياتِ وارتباطِها بما جُعِلَت آيةً لهُ ممَّا أخبَرَتْ به الرُّسُلُ من حياةِ العبادِ بعدَ موتهم وقيامهم مِن قُبورهم كما أحياهم سبحانهُ بعدَ موتهم وأقامَهم للتَّصرُّفِ في معاشهم.

فهذه الآيَةُ إنَّما ينتفعُ بها مَن سَمِعَ ما جاءَت به الرُّسلُ، وأصغى إليهِ، واستدلَّ بهذه الآيَةِ عليهِ، وجَعَلَ إرادتَهم البَرقَ وإنزالَ الماءِ من السَّماءِ وإحياءَ الأرضِ بهِ آياتٍ لقومٍ يعقلونَ.

[الانتقال من المشهود بالبصر إلى المشهود بالعقل]

فإنَّ هذه أُمورٌ مَرْئِيَّةٌ بالأَبصارِ مُشاهَدَةٌ بالحِسِّ، فإذا نَظَرَ فيها ببصَرِ قلبهِ ـ وهو عقلُهُ ـ استدلَّ بها على وجودِ الرَّبِّ تعالى وقُدرتهِ وعلمهِ ورحمتهِ وحكمتهِ وإمْكانِ ما أخبَرَ به مِن حياةِ الخلائقِ بَعدَ موتهم كما أحيا هذه الأرضَ بعدَ موتها.

وهذه أُمورٌ لا تُدْرَكُ إلّا بِبَصَرِ القَلبِ ـ وهو العقلُ ـ.

فإنَّ الحِسَّ دلَّ على الآيَةِ.

والعَقلَ دلَّ على ما جُعِلَت آيَةً له.

فَذَكَرَ سبحانهُ الآيَةَ المشهودَةَ بالبَصرِ، والمدلولَ عليهِ المشهودَ بالعَقلِ فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

فتبارك الذي جَعلَ كلامَهُ حياةً للقلوبِ وشفاءً لما في الصُّدورِ.

[قراءة التدبر والتفكر]

وبالجُمْلَةِ؛ فلا شيءَ أنفعُ للقَلبِ من قراءَةِ القرآنِ بالتَّدبُّرِ

والتَّفكُّرِ؛ فإنَّهُ جامعٌ لجميعِ منازلِ السَّائرينَ وأحوالِ العاملينَ ومقاماتِ العارفينَ، وهو الذي يُورِثُ المحبَّة والشوقَ والخَوفَ والرَّجاءَ والإنابَةَ والتَّوكُّلَ والرِّضا والتَّفويضَ والشكرَ والصَّبرَ وسائرَ الأحوالِ التي بها حياةُ القلبِ وكمالُهُ.

وكذلكَ يزجُرُ عن جميعِ الصِّفاتِ والأفعالِ المذمومَةِ التي بها فسادُ القَلبِ وهلاكُهُ.

فلو علمَ النَّاسُ ما في قراءَةِ القرآنِ بالتَّدبُّرِ لاشتَغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأهُ بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآيَةٍ هو مُحتاجٌ إليها في شفاءِ قلبهِ كرَّرَها ولو مِئةَ مرَّةٍ، ولو ليلَةً، فقراءَةُ آيَةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ من قراءَةِ خِتْمَةٍ بغيرِ تَدبُّرٍ وتفهُّمٍ، وأنفَعُ للقَلبِ، وأَدْعى إلى حُصولِ الإيمانِ وذَوْقِ حلاوَةِ القرآنِ.

وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح.

وقد ثبتَ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قامَ بآيَةٍ يُردِّدُها حتى الصَّباحِ؛ وهي قولُهُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فقراءَةُ القرآنِ بالتَّفكُّرِ هي أصلُ صلاح القَلبِ، ولهذا قال ابنُ مسعودٍ: لا تَهُذُّوا القرآنَ هذّ الشِّعْرِ، ولا تَنثُروهُ نَثْرَ الدَّقَل، وقِفُوا عند عجائبِهِ، وحرِّكوا به القلوبَ، لا يكُن همُّ أحدكُم آخرَ السُّورَةِ.

وروى أيُّوب عن أبي جمرَةَ، قال: قلتُ لابن عبَّاس: إنِّي سريعُ القراءَةِ، إنِّي أقرأُ القرآنَ في ثلاثٍ! قال: لَأَنْ أقرأَ سورَةً من القرآنِ في ليلَةٍ فأتدبَّرَها وأُرتِّلَها أحبُّ إليَّ مِن أن أقرأَ القرآنَ كما تَقرأُ.

[التفكر في الآيات المشهودة والآيات المسموعة]

والتَّفكّرُ في القرآنِ نوعان:

تفكُّرٌ فيه ليقعَ على مُرادِ الرَّبِّ تعالى منه.

وتفكُّرٌ في معاني ما دعا عبادَهُ إلى التَّفكُّرِ فيه.

فالأوَّلُ: تفكُّرٌ في الدَّليل القرآني.

والثَّاني: تفكُّرٌ في الدَّليلِ الْعِياني.

الأوَّلُ: تفكُّرٌ في آياتِه المسموعَةِ.

والثَّاني: تفكُّرٌ في آياتهِ المشهودَةِ.

ولهذا أنزَلَ اللَّهُ القرآنَ ليُتَدَبَّرَ ويُتَفكَّرَ فيهِ، ويُعمَلَ بهِ، لا لِمُجرَّدِ تلاوتِه مع الإعْراض عنهُ.

قال الحَسَنُ البَصريُّ: أُنزلَ القرآنُ لِيُعْمَلَ به، فاتَّخِذوا تلاوتَهُ عملاً.



الفصل الثاني

النظر في آيات الله سبحانه[1]

والنَّظرُ في هذه الآياتِ وأمثالها نوعان:

نظرٌ إليها بالبَصرِ الظَّاهرِ، فيرى - مثلاً - زُرقَةَ السَّماءِ ونجومَها وعُلُوَّها وسَعَتَها، وهذا نَظرٌ يشاركُ الإنسانَ فيه غيرُهُ من الحيواناتِ، وليسَ هو المقصودَ بالأمرِ.

والثَّاني: أنْ يتجاوَزَ هذا إلى النَّظرِ بالبَصيرَةِ الباطنَةِ، فَتُفتحُ لهُ أبوابُ السَّماءِ، فيجولُ في أقطارِها ومَلَكوتها وبينَ ملائكتها.

ثمَّ يُفتَحُ له بابٌ بَعْدَ بابٍ حتى ينتهيَ به سيرُ القلبِ إلى عرشِ الرَّحمن فينظرَ سَعَتَهُ وعظمتَهُ وجلالَهُ ومجدَهُ ورِفعَتَهُ، ويرى السَّماواتِ السَّبعَ والأرضينَ السَّبعَ بالنِّسبَةِ إليهِ كحَلْقَةٍ مُلقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ.

ويرى الملائكَةَ حافِّينَ من حولهِ لهم زَجَلٌ بالتَّسبيحِ والتَّحميد والتَّقديسِ والتَّكبيرِ، والأمرُ ينزلُ من فوقهِ بتدبيرِ الممالِك والجنودِ التي لا يعلمُها إلّا ربُّها ومليكُها فينزلُ الأمرُ بإحياءِ قومٍ وإماتَةِ آخَرينَ، وإعْزازِ قومٍ وإذْلالِ آخَرين، وإسعادِ قومٍ وشقاوَةِ آخَرين، وإنشاءِ مُلْكٍ وسَلْبِ مُلكٍ، وتحويلِ نِعْمَةٍ من محَلٍّ إلى محلٍّ، وقضاءِ الحاجاتِ على اختلافها وتبايُنِها وكثرتها

(١) هذا البحث هو الفصل (١٥) من كتاب «مفتاح دار السعادة».

من جَبرِ كسيرٍ وإغْناءِ فَقيرٍ، وشفاءِ مريضٍ، وتَفريجِ كَرْبٍ، ومغفرَةِ ذنب، وكشفِ ضُرٍّ، ونَصرِ مظلومٍ، وهدايَةِ حَيرانٍ، وتعليم جاهلٍ، وردِّ آبقٍ، وأمانِ خائفٍ، وإجارَةِ مُستجيرٍ، ومَدَدٍ لضعيفٍ، وإغاثَةٍ لملهوفٍ، وإعانَةٍ لعاجزٍ، وانتقامٍ من ظالمٍ، وكفٍّ لعدوانٍ. . .

فهي مراسيمُ دائرةٌ بين العَدلِ والفَضلِ، والحكمَةِ والرَّحمَةِ، تنفُذُ في أقطارِ العوالم لا يَشْغَلُهُ سمعُ شيءٍ منها عن سمعِ غيرهِ، ولا تُغلّطهُ كثرَةُ المسائلِ والحوائج على اختلافها وتبايُنِها واتِّحادِ وقتها، ولا يتبرَّمُ بإلْحاحِ المُلِحِّينَ، ولا تَنْقُصُ ذَرَّةٌ من خزائنهِ، ولا إِلهَ إلا هو العزيزُ الحَكيم.

فحينئذٍ يقومُ القلبُ بينَ يَدي الرَّحمن مُطْرِقاً لهيبتِه، خاشعاً لعظمتهِ، عانٍ لعزَّتهِ، فيسجدُ بين يدي المَلِكِ الحقِّ المُبينِ سَجدَةً لا يَرفعُ رأسَهُ منها إلى يومِ المزيد.

فهذا سَفَرُ القلبِ وهو في وطنهِ ودارهِ ومحلِّ مُلكهِ، وهذا من أعظم آياتِ اللَّهِ وعجائبِ صُنعهِ.

فيا لَهُ مِن سَفَرٍ ما أبركَهُ وأروحَهُ وأعظَمَ ثمرَتَهُ وربحَهُ وأجلَّ منفعتَهُ وأحسَنَ عاقبتَهُ! سفرٌ هو حياةُ الأرواحِ، ومِفتاحُ السَّعادَةِ، وغنيمَةُ العقولِ والألبابِ، لا كالسَّفرِ الذي هو قِطعَةٌ من العذابِ.



الفصل الثالث

أدوات الإدراك في الإنسان(١)

إن أشرف ما في الإنسان، محلُّ العلم منه، وهو: قلبه وسمعه وبصره.

ولما كان القلب هو محلُّ العلم، والسمع رسوله الذي يأتيه به، والعين طليعته، كان ملكاً على سائر الأعضاء يأمرها فتأتمر لأمره، ويصرفها فتنقاد له، طائعة بما خصَّ به من العلم دونها، فلذلك كان ملكها والمطاع فيها، وهكذا العالم في الناس كالقلب في الأعضاء.

ولما كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء، كانا في أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه. وكانا من أفضل ما في الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع.

واختلف الناس في الأفضل منهما:

فقالت طائفة: السمع أفضل، قالوا: لأن به تنال سعادة الدنيا والآخرة، فإنها إنما تحصل بمتابعة الرسل، وقبول رسالاتهم، وبالسمع عرف ذلك، فإن من لا سمع له، لا يعلم ما جاؤوا به(٢).

(١) جاء هذا البحث في الجزء الأول ص٣٥٣ ـ ٣٥٨.

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: =

وقالت طائفة: بل البصر أفضل، فإن أعلى النعيم وأفضله وأعظمه لذة، هو النظر إلى الله في الدار الآخرة، وهذا إنما ينال بالبصر، وهذه وحدَها كافية في تفضيله.

قالوا: وهو مقدمة القلب وطليعته ورائده، فمنزلته أقرب من منزلة السمع. ولهذا كثيراً ما يقرن الله بينهما في الذكر، بقوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢] فالاعتبار بالقلب والبصر بالعين.

= وأيضاً فإن السمع يدرك به أجل شيء وأفضله، وهو كلام الله تعالى الذي فضله على الكلام كفضل الله على خلقه.

وأيضاً، فإن العلوم إنما تنال بالتفاهم والتخاطب، ولا يحصل ذلك إلا بالسمع.

وأيضاً، فإن مدركه أعم من مدرك البصر، فإنه يدرك الكليات والجزئيات، والشاهد والغائب، والموجود والمعدوم، والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهدات، والسمع يسمع كل علم، فأين أحدهما من الآخر؟

ولو فرضنا شخصين أحدهما يسمع كلام الرسول، ولا يرى شخصه، والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لصممه، هل كانا سواء؟!

وأيضاً، ففاقد البصر، إنما يفقد إدراك بعض الأمور الجزئية المشاهدة، ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريباً، وأما فاقد السمع فالذي فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولا قريباً.

وأيضاً، فإن ذم اللّهِ للكفار بعدم السمع في القرآن أكثر من ذمه لهم بعدم البصر، بل إنما يذمهم بعدم البصر تبعاً لعدم العقل والسمع.

وأيضاً، فإن الذي يورده السمع على القلب من المعلوم، لا يلحقه فيه كلال ولا سآمة ولا تعب من كثرته وعظمه، والذي يورده البصر عليه، يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص، وربما خشي صاحبه على ذهابه مع قلّته بالنسبة إلى السمع.

وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] ولم يقل تعالى: وأسماعهم.

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨، ٩].

وهذا يدل على شدة الوصلة والارتباط بين القلب والبصر، ولهذا يقرأ الإنسان ما في قلب الآخر من عينه، وهذا كثير في كلام الناس.

قالوا: ولهذا يأتمنه القلب، ما لا يأتمن السمع عليه، بل إذا ارتاب من جهة السمع، عرض ما يأتيه على البصر، ليزكيه أم يرده، فالبصر حاكم عليه مؤتمن عليه.

قالوا: ولليقين ثلاث مراتب.

أولها: السمع.

والثاني: العين، وهي المسماة بعين اليقين، وهي أفضل من المرتبة الأولى وأكمل[1].

---

(١) لم يذكر المصنف المرتبة الثالثة، ولعلها: القلب.

وقال ﷺ في تتمة حجج هذه الطائفة:

قالوا: وهذا إبراهيم خليل الله يسأل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، وقد علم ذلك بخبر الله له، ولكن طلبَ أفضل المنازل وهي طمأنينة القلب قالوا: وأيضاً، فالبصر يؤدي إلى القلب، ويؤدي عنه، فإن العين مرآة القلب، يظهر فيها ما يجنُّه من المحبة والبغض، والموالاة=

والصواب: أن كلاً منهما به خاصيَّةٌ فضِّلَ بها على الآخر:
فالمدرَك بالسمع أعم وأشمل.
والمدرك بالبصر أتم وأكمل.
فالسمع: له العموم والشمول.
والبصر: له الظهور والتمام وكمال الإدراك.

* * *

= والمعاداة، والسرور والحزن وغيرها.
وأما الأذن فلا تؤدي عن القلب شيئاً ألبتة، وإنما مرتبتها الإيصال إليه حسبُ، فالعين أشد تعلقاً به.

الفصل الرابع

ما يتاح للبشر من معرفة الحكمة

[معرفة البشر محدودة]

إنَّ الحكمَة لا يجبُ أن تكونَ بأسرها معلومَةً للبَشرِ[1]، ولا أكثرِها، بل لا نسبَةَ لِمَا عَلِمُوهُ إلى ما جَهلوهُ منها، فلو قِيسَتْ عُلومُ الخلائقِ كلِّهم بوجوهِ حكمَةِ اللَّهِ تعالى في خلقهِ وأمرهِ إلى ما خفيَ عنهم منها كانَت كَنَقْرَةِ عُصفورٍ في البَحرِ.

وحسْبُ الفطنِ اللبيبِ أن يَستدلَّ بما عَرَفَ منها على ما لم يَعرفْ، ويعلمَ الحكمَةَ فيما جهلَه منها فيما عَلِمَهُ، بل أعظمُ وأدقُّ.

وما مَثَلُ هؤلاءِ الحمقىٰ النَّوْكىٰ[2] [الذين ينكرون الحكمة] إلَّا كمثلِ رجلٍ لا علمَ لهُ بدقائقِ الصَّنائعِ والعلومِ منَ البناءِ والهَندَسَةِ والطبِّ، بل والحياكَةِ والخياطَةِ والنجارَةِ؛ إذا رامَ الاعتراضَ بعقلهِ الفاسدِ على أربابها في شيءٍ من آلاتهم وصنائعهم وتَرتيب صناعتهم، فخفيَت عليهِ، فجعلَ كُلَّما خفيَ عليهِ منها شيءٌ قال: هذا لا فائدَةَ فيهِ! وأيُّ حكمَةٍ تَقتَضيهِ! هذا مع أنَّ أربابَ الصَّنائعِ بشرٌ مثلُهُ يمكنهُ أن يُشارِكَهم في صنائعهم ويَفُوقَهم فيها!

---

(١) هذه الفقرة وردت في ثنايا البحث ص٢/ ٢٢٦.

(٢) أي الحمقى.

فما الظَّنُّ بمَن بهرَت حكمتُهُ العقولَ، الذي لا يُشارِكُهُ مُشارِكٌ في حكمتهِ كما لا يُشارِكُهُ مُشارِكٌ في خَلقهِ، فلا شريكَ له بوجهٍ!

فمَن ظنَّ أن يكتالَ حكمتَهُ بمكيالِ عقلهِ ويَجعَلَ عقلَهُ عِياراً عليها فما أدركهُ أقرَّ بهِ! وما لم يُدركهُ نفاهُ! فهو من أجهَلِ الجاهِلينَ.

[أقسام الناس بالنسبة لإدراك الحكمة]

وبصائرُ النَّاسِ في هذا النُّورِ البَاهِرِ تَنقسمُ إلى ثلاثَةِ أقسامٍ[1]:

أحدُها: مَن عَدِمَ بَصيرَة الإيمانِ جُملَةً، فهو لا يَرى من هذا الضَّوءِ إلّا الظُّلماتِ والرَّعدَ والبَرقَ، فهو يَجعَلُ أُصبعيهِ في أُذُنَيْهِ منَ الصَّواعقِ، ويدَهُ على عينهِ منَ البَرْقِ؛ خشيَةَ أن يُخْطَفَ بَصَرُهُ، ولا يُجاوِزَ نَظرُهُ ما وراءَ ذلكَ منَ الرحمة وأسباب الحياة الأبدية.

فهذا القسمُ هو الذي لم يَرفَعْ بهذا الدِّينِ رَأْساً، ولم يَقْبَلَ هُدى اللَّهِ الذي هَدى بهِ عبادَهُ ولو جاءَتْهُ كلُّ آيَةٍ، لأنَّهُ مِمَّن سَبَقَتْ لهُ الشقاوَةُ وحَقَّتْ عليهِ الكلمَةُ، ففائدَةُ إنْذارِ هذا إقامةُ الحُجَّةِ عليهِ لِيُعَذَّبَ بِذَنْبِهِ لا بمُجَرَّدِ عِلْمِ اللَّهِ فيهِ.

القسمُ الثَّاني: أصحابُ البَصيرَةِ الضَّعيفَةِ الخُفَّاشيَّةِ الذينَ نِسْبَةُ أَبْصارِهم إلى هذا النُّورِ كنسبَةِ أبصارِ الخُفَّاشِ إلى جَرْمِ الشمسِ، فهم تَبعٌ لآبائهم وأسْلافِهم؛ دينهم دينُ العادَةِ والمنشأِ،

---

(١) هذه الفقرة وردت في الفصل (١٣٥).

وهُم الذينَ قالَ فيهم أميرُ المؤمنينَ عليُّ بن أبي طالب: «أو مُنقادٌ للحقِّ لا بَصيرَةَ لهُ في إِحيائِه»، فهؤلاءِ إذا كانوا مُنْقَادينَ لأهلِ البَصائرِ ـ لا يتخالجُهم شكٌّ ولا ريبٌ ـ فهم على سبيلِ نَجاةٍ.

القسمُ الثَّالث: وهُم خُلاصَةُ الوجودِ ولُبابُ بني آدمَ؛ وهم أَصحابُ البَصائرِ النَّافذَةِ الذينَ شَهِدَت بصائرُهم هذا النُّورَ المُبينَ فكانوا منهُ على بَصيرَةٍ ويَقينٍ ومُشاهَدةٍ لحُسنهِ وكمالهِ بحيثُ لو عُرِضَ على عقولهم ضدُّهُ لَرَأَوْهُ كالليلِ البَهيم الأسوَدِ، وهذا هو المَحَكُّ والفُرقانُ بينهم وبينَ الذينَ قبلَهم، فإنَّ أولئكَ بحسبِ داعيهم ومَن يُقْرَنُ بهم، كما قالَ فيهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ: «أَتْباعُ كلِّ ناعقٍ، يميلونَ معَ كل صائحٍ، لم يَستضيئوا بنورِ العلمِ ولم يَلجأوا إلى رُكنٍ وثيقٍ».

وهذا علامَةُ عَدَمِ البَصيرَةِ أَنَّكَ تراهُ يسْتحْسِنُ الشيءَ وضدَّهُ ويمدحُ الشيءَ ويذمُّهُ بعَينهِ إذا جاءَ في قالَبٍ لا يَعرفهُ، فيعظِّمُ طاعةَ الرَّسولِ ويَرى عَظيماً مُخالفتَه، ثمَّ هو من أشدِّ النَّاسِ مُخالفَةً لهُ ونَفياً لِمَا أَثْبَتَهُ ومُعاداةً للقائمين بِسُنَّتِهِ، وهذا مِن عَدَمِ البَصيرَةِ.

فهذا القسمُ الثَّالث إنَّما عملُهم على البصائرِ، وبها تفاوُتُ مراتبِهم في درجاتِ الفَضلِ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ ـ وَقَد ذَكَرَ السَّابقينَ ـ فقال: إنَّما كانوا يعملونَ على البصائرِ، وما أُوتِيَ أحدٌ أفضَلَ من بَصيرَةٍ في دينِ اللَّهِ، ولو قصَّرَ في العَملِ.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

قال ابنُ عبَّاسٍ: أُولي القوَّةِ في طاعَةِ اللَّهِ، والأبصارِ في المعرفَةِ في أمرِ اللَّهِ.

وقال قتادةُ ومجاهدٌ: أُعطوا قوَّةً في العبادَةِ وبَصراً في الدِّينِ.

وأعلمُ النَّاسِ أبصرُهم بالحقِّ إذا اختَلَفَ النَّاسُ وإنْ كانَ مُقَصِّراً في العملِ.

وتَحتَ كلٍّ مِن هذه الأقسام أنواعٌ لا يُحْصي مقاديرَها وتفاوُتَها إلّا اللَّهُ.

إذا عُرِفَ هذا.

فالقسمُ الأوَّلُ لا يَنتفعُ بهذا الباب ولا يزدادُ بِهِ إلّا ضلالَةً.

والقسمُ الثَّاني ينتفعُ بِهِ بقَدرِ فَهمِهِ واستعدادِهِ.

والقسمُ الثَّالثُ ـ وإليهم هذا الحديثُ يُساقُ ـ وهم أولو الألبابِ الذينَ يَخُصُّهُم اللَّهُ في كتابِهِ بخطابِ التَّنبيهِ والإرشادِ، وهم المُرادُونَ على الحقيقَةِ بالتَّذكرَةِ؛ قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

[مشاهدة حكمة الأمر ومشاهدة حكمة الخلق[١]]

فانظُرْ حِكمَةَ اللَّهِ ﷻ في خلقِهِ وأمرِهِ فيما خَلَقَهُ وفيما شرَعَهُ تجدْ مَصدَرَ ذلكَ كلِّهِ الحكمَةَ البالغَةَ التي لا يختلُّ نظامُها ولا ينخرمُ أبداً ولا يختَلُّ أصلاً.

ومِنَ النَّاسِ مَن يكونُ حظُّهُ من مُشاهَدَةِ حكمَةِ الأمرِ أعظَمَ من مشاهَدَةِ حكمَةِ الخَلْقِ، وهؤلاءِ خواصُّ العبادِ الذينَ عَقَلُوا عَن اللَّهِ أمرَهُ ودينَهُ، وعَرفوا حِكمتَهُ فيما أَحْكَمَهُ، وشهدَت فِطَنُهم وعقولُهم أنَّ مَصدَرَ ذلكَ حكمَةٌ بالغَةٌ وإحسانٌ ومصلحَةٌ أُريدَت بالعبادِ في معاشهم ومعادِهم، وهم في ذلكَ درجاتٌ لا يُحصيها إلّا اللَّهُ.

---

(١) هذه الفقرة وردت خلال البحث (٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠).

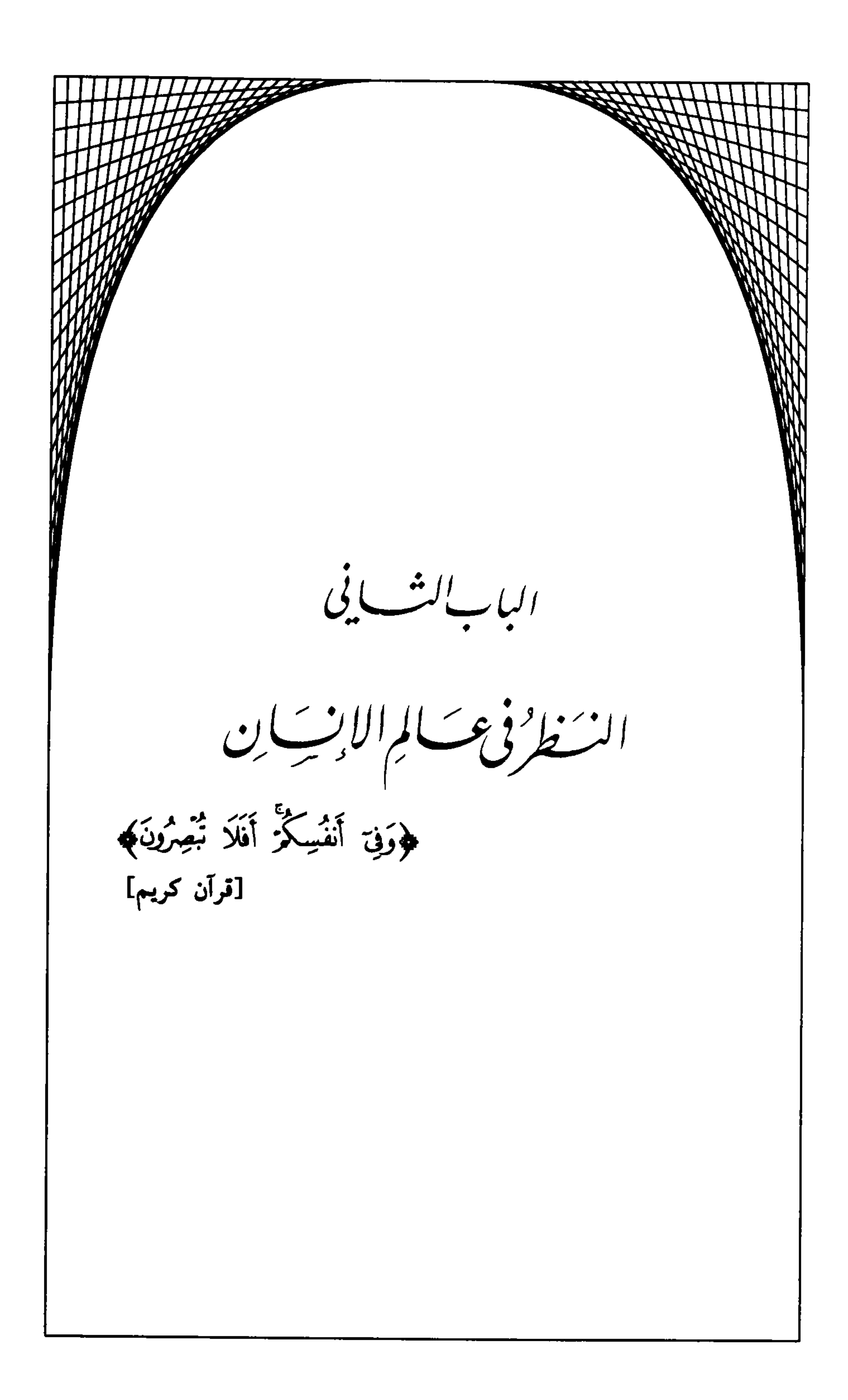
ومنهم من يكونُ حظُّهُ مِن مُشاهَدَةِ حكمَةِ الخلقِ أوفَرَ من حظِّهِ من حكمةِ الأمرِ وهم أكثرُ الأطبَّاءِ والطبائعيِّين الذين صَرَفوا أفكارَهم إلى استخراجِ منافعِ النَّباتِ والحيوانِ وقِوَاها وما تَصلُحُ لهُ مفرَدَةً ومركَّبَةً، وليسَ لهم نَصيبٌ في حكمةِ الأمرِ إلّا كما للفقهاءِ من حكمَةِ الخَلقِ، بل أقلُّ من ذلكَ!

ومنهم مَن فُتحَ عليهِ بمشاهدَةِ الخَلقِ والأمرِ بحَسَبِ استعدادِه وقوَّتهِ، فرأى الحكمَةَ الباهرَةَ التي بَهَرَت العقول في هذا وهذا، فإذا نَظَرَ إلى خَلقهِ وما فيهِ من الحِكَم ازْدادَ إيماناً ومعرفَةً وتَصديقاً بما جاءَت به الرُّسلُ، وإذا نَظَرَ إلى أمرهِ وما تَضمَّنهُ من الحِكَم الباهرَةِ ازدادَ إيماناً ويقيناً وتَسليماً، لا كمَن حُجبَ بالصَّنعَةِ عن الصَّانعِ، وبالكواكبِ عن مُكَوْكِبها، فعميَ بَصَرُهُ وغَلُظَ عن اللَّهِ حجابُهُ، ولو أَعْطَى علمَهُ حقَّهُ لكانَ من أقوى النَّاسِ إيماناً لأنَّه اطّلَعَ من حكمَةِ اللَّهِ وباهرِ آياتهِ وعجائبِ صُنْعِهِ الدَّالَّةِ عليهِ وعلى علمهِ وقُدرتهِ وحكمتهِ على ما خَفيَ عن غيرهِ.

ولكنْ مِن حِكمَةِ اللَّهِ أيضاً أنْ سَلَبَ كثيراً من عقولِ هؤلاءِ خاصِّيَّتَها وحَجَبَها عن معرفَتهِ وأوْقَفَها عند ظاهرٍ من العلمِ بالحياةِ الدُّنيا وهم عن الآخرَةِ هُم غافلونَ؛ لدناءتها وخِسَّتِها وحقارتِها وعدمِ أهليَّتِها لمعرفَتهِ ومعرفَةِ أسمائهِ وصفاتهِ وأسرارِ دينهِ وشرعهِ، والفضلُ بيد اللَّهِ يؤتيهِ من يشاءُ، واللَّهُ ذو الفَضلِ العَظيم.

وهذا بابٌ لا يطَّلعُ الخَلْقُ منهُ على ما لهُ نسبَةٌ إلى الخافي عنهم منهُ أبداً، بل عِلمُ الأوَّلين والآخرين منه كنقرَةِ العُصفورِ منَ البَحرِ، ومع هذا فليسَ ذلكَ بمُوجِبٍ للإعراضِ عنهُ واليأسِ منهُ، بل يستدلُّ العاقلُ بما ظَهَرَ له منهُ على ما وراءَهُ.

❁ ❁ ❁



الباب الثاني

النظر في عالم الإنسان

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾

[قرآن كريم]

الفصل الأول

دعوة القرآن إلى التفكير في خلق الإنسان

ندب الله سبحانه إلى التفكر والنظر في خلق الإنسان، في غير موضع من كتابه:

كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٣].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧].

وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ

نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]. . .

وهذا كثيرٌ في القرآنِ؛ يَدعو العَبدَ إلى النَّظَرِ والفكرِ في مبدأ خلقهِ ووسطهِ وآخرهِ، إذ نَفسُهُ وخلقُهُ من أعظَم الدَّلائلِ على خالقهِ وفاطرهِ، وأقربُ شيءٍ إلى الإنسان نفسُهُ، وفيه من العجائبِ الدَّالَّةِ على عَظَمَةِ اللَّهِ ما تَنقَضي الأعمارُ في الوقوفِ على بَعضهِ؛ وهو غافلٌ عنهُ، مُعْرِضٌ عن التَّفكيرِ فيهِ، ولو فكَّرَ في نفسهِ لَزَجَرَهُ ما يعلمُ من عجائبِ خلقِها عن كُفرهِ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٢٢].

فلم يُكرِّرْ سبحانَه على أسماعِنا وعقولِنا ذِكْرَ هذا لنسمعَ ذِكْرَ النُّطفَةِ والعَلَقَةِ والمُضغَةِ والتُّرابِ، ولا لنتكلَّمَ بها فَقَط، ولا لمُجرَّدِ تَعريفنا بذلكَ، بل لأمرٍ وراءَ ذلكَ كلِّهِ هو المقصودُ بالخطابِ وإليهِ جَرى ذلكَ الحديث.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني

الحمل والولادة

[النطفة وتشكيل الخلق]

فانظُر الآن إلى النُّطفَةِ بعَينِ البَصيرَةِ؛ وهي قَطرَةٌ من ماءٍ مَهينٍ ضَعيفٍ مُستَقذَرٍ، لو مرَّتْ بها ساعَةٌ من الزَّمانِ فَسَدَتْ وأنتَنَتْ، كيفَ استَخرَجها ربُّ الأربابِ العليمُ القَديرُ من بينِ الصُّلبِ والتَّرائبِ مُنْقادَةً لقدرتهِ مُطيعَةً لمشيئتهِ، مُذلَّلَةَ القِيَادِ على ضيقِ طرقها واختلافِ مجاريها، إلى أن ساقَها إلى مُستقَرِّها ومَجْمَعِها، وكيفَ جمَعَ سبحانَه بينَ الذَّكَرِ والأُنثى، وألقى المحبَّةَ بينهما، وكيفَ قادهما بسلسلَةِ الشهوَةِ والمحبَّةِ إلى الاجتماعِ الذي هو سببُ تخليقِ الوَلَدِ وتَكوينهِ، وكيفَ قَدَّرَ اجتماعَ ذَيْنِكَ الماءين مع بُعْدِ كلٍّ منهما عن صاحبهِ، وساقهما مِن أعماقِ العروقِ والأعضاءِ وجَمَعهما في موضعٍ واحدٍ جُعِلَ لهما قَراراً مكيناً لا ينالُهُ هواءٌ يُفسِدهُ، ولا بَردٌ يُجمِّدهُ، ولا عارضٌ يَصلُ إليهِ، ولا آفَةٌ تَتسلَّطُ عليهِ، ثمَّ قَلَبَ تلكَ النُّطفَةَ البيضاءَ المُشرِقَةَ عَلَقَةً حمراءَ تَضربُ إلى السَّوادِ، ثمَّ جعلها مُضغَةَ لحمٍ مُخالِفَةً للعَلَقَةِ في لونها وحقيقتِها وشَكْلِها، ثمَّ جعلها عظاماً مُجرَّدَةً لا كسوَةَ عليها، مُباينَةً للمُضغَةِ في شكلِها وهيئتها وقَدْرِها وملمسِها ولونِها.

وانْظُر كيفَ قسَّمَ تلكَ الأجزاءَ المُتشابهَةَ المُتساويَةَ إلى الأعصابِ والعظامِ والعُروقِ والأوتارِ واليابسِ واللَّيِّنِ، وبيَّنَ

ذلكَ، ثمَّ كيفَ رَبَطَ بعضَها ببَعضٍ أقوى رباطٍ وأشدَّهُ وأبعَدَهُ عن الانحلالِ، وكيفَ كساها لحماً ركَّبَهُ عليها وجعَلَهُ وعاءً لها وغشاءً وحافظاً، وجعلَها حاملَةً له مُقيمَةً له، فاللحمُ قائمٌ بها وهي محفوظَةٌ بهِ، وكيفَ صوَّرها فأحسَنَ صُوَرها وشقَّ له السَّمعَ والبَصَرَ والفمَ والأنفَ وسائرَ المنافذِ، ومدَّ اليَدينِ والرِّجلَينِ وبَسَطَهما وقسَّمَ رؤوسَهما بالأصابعِ، ثمَّ قسَّمَهما بالأناملِ، وركَّبَ الأعضاءَ الباطنةَ من القَلبِ والمَعِدَةِ والكَبدِ والطِّحالِ والرِّئَةِ والرَّحِمِ والمثانَةِ والأمعاءِ، كلٌّ واحدٍ منها لهُ قَدْرٌ يخصُّهُ ومنفعَةٌ تخصُّهُ.

ثمَّ انْظُرِ الحكمَةَ البالغَةَ في تركيبِ العظامِ قِوماً للبَدنِ وعماداً لهُ، وكيفَ قدَّرَها ربُّها وخالقُها بتقاديرَ مختلفة وأشكالٍ مختَلفَةٍ؛ فمنها الصَّغيرُ والكبيرُ، والطَّويلُ والقَصيرُ، والمُنحَني والمُستَدير، والدَّقيقُ والعَريضُ، والمُصْمَتُ والمُجوَّفُ، وكيفَ ركَّبَ بَعضَها في بَعضٍ؛ فمنها ما تركيبهُ تركيبُ الذَّكَرِ في الأُنثى، ومنها ما تركيبهُ تركيبُ اتِّصالٍ فقَط، وكيفَ اختَلَفَت أشكالُها باختلاف منافعها.

[الحمل والولادة]

فَأَعِدِ الآنَ النَّظَرَ فيكَ وفي نَفسِكَ مرَّةً ثانيَةً: مَنِ الذي دبَّرك بألطَفِ التَّدبيرِ وأنتَ جنينٌ في بَطنِ أُمِّكَ، في موضع لا يَدَ تنالُكَ ولا بَصَرَ يُدرِكُكَ ولا حِيلَةَ لكَ في التماسِ الغذاءِ ولا في دَفعِ الضَّرَرِ عنك، فمَن الذي أجرى إليكَ من دم الأُمِّ ما يَغذوكَ كما يَغذو الماءُ النَّباتَ، وقَلَبَ الدَّمَ لَبَناً، ولم يَزَل يُغَذِّيكَ بهِ في أضيَقِ المواضعِ وأبعدِها من حيلَةِ التكسُّبِ والطَّلبِ حتى إذا كَمُلَ خَلْقُكَ، واستحكَمَ، وقَوِيَ أديمُكَ على مُباشرَةِ الهواءِ، وبصرُكَ

ـلى مُلاقاةِ الضِياءِ، وصَلُبَتْ عِظامُكَ على مُباشَرَةِ الأيدي والتَّقلُّب على الغَبْراءِ.

هاجَ الطَّلْقُ بأُمِّكَ فأزعجكَ إلى الخُروج أيُّما إزعاجٍ إلى عالمِ الابتلاءِ، فَرَكَضَكَ الرَّحِمُ ركضَةً منه كأنْ لم يَضُمَّكَ قطُّ، ولم يَشتمل عليكَ.

فيا بُعْدَ ما بينَ ذلكَ القَبولِ والاشتمالِ حينَ وُضِعْتَ نُطفَةً وبينَ هذا الدَّفعِ والطَّردِ والإخراجِ! فكانَ مُبتهجاً بحملِكَ فصارَ يَستغيثُ ويعُجُّ إلى ربِّكَ من ثِقَلِكَ.

فمَن الذي فَتَحَ لكَ بابَهُ حتى وَلَجْتَ، ثمَّ ضمَّهُ عليكَ حتى حُفِظتَ وكَمُلتَ، ثمَّ فتحَ لكَ البابَ ووَسَّعهُ حتى خَرَجْتَ منه كلمحِ البَصَرِ؟! لم يَخْنُقْكَ ضِيقُهُ، ولم تَحبسْكَ صعوبَةُ طَريقكَ فيه.

فلو تأمَّلْتَ حالَكَ في دخولكَ من ذلكَ البابِ وخُروجِكَ منهُ لذَهَبَ بكَ العَجَبُ كلَّ مذهَبٍ! فمَن الذي أوحى إليهِ أنْ يتضايَقَ عليكَ وأنتَ نُطفةٌ حتى لا تَفسُدَ هناكَ، ثمَّ أوحى إليهِ أنْ يتَسعَ لكَ وينفسحَ حتى تَخرُجَ منهُ سليماً، إلى أن خَرَجْتَ فريداً وحيداً ضَعيفاً لا قِشرَةَ ولا لباسَ ولا متاعَ ولا مالَ، أحوجَ خَلقِ اللَّهِ وأضعفَهُم وأفقرَهُم.

فَصُرِفَ ذلكَ اللبنُ الذي كنتَ تَتَغذَّى بهِ في بَطنِ أُمِّكَ إلى خِزانتين مُعلَّقتين على صَدرِها تَحملُ غِذاءَكَ على صَدرها كما حَمَلَتْكَ في بَطنها، ثمَّ ساقهُ إلى تِلك الخِزانَتينِ ألطَفَ سَوْقٍ على مَجارٍ وطُرقٍ قَد تهيَّأت له، فلا يزالُ واقفاً في طرقهِ ومجاريهِ حتى يَستوفي ما في الخِزانَةِ فيجري وينساقُ إليكَ، فهو بئرٌ لا تَنقطعُ مادَّتُها، ولا تَنسَدُّ طرقُها، يسوقُها إليكَ في طُرُقٍ لا يَهتدي إليها الطَّوَّافُ، ولا يَسلُكُها الرِّجالُ.

فمَن رقَّقَهُ لكَ وصفَّاهُ وأطابَ طَعْمَهُ وحَسَّنَ لونَهُ وأحكمَ طَبْخَهُ أعدَلَ إحكام؛ لا بالحارِّ المُؤذي، ولا بالباردِ الرَّدِي، ولا المُرِّ ولا المالحِ، ولا الكريهِ الرَّائحَةِ؟! بل قَلَبَهُ إلى ضَربٍ آخَرَ منَ التَّغذيَةِ والمَنفعَةِ خلافَ ما كانَ في البَطنِ، فوافاكَ في أشدِّ أوقاتِ الحاجَةِ إليهِ على حينِ ظمأٍ شديدٍ وجوعٍ مُفرِطٍ، جمَعَ لكَ فيهِ بينَ الشرابِ والغذاءِ.

فحينَ تُولَدُ قَد تَلَمَّظتَ وحرَّكتَ شفتيكَ للرِّضاعِ فتجدُ الثَّدْيَ المُعلَّقَ كالإِدَاوةِ قَد تَدلَّى إليكَ وأقبلَ بِدَرِّهِ عليكَ، ثمَّ جعَلَ في رأسِهِ تلكَ الحلمَةَ التي هي بمقدارِ صِغَرِ فَمِكَ فلا يَضِيقُ عنها ولا يتعَبُ بالتقامها، ثمَّ نَقَبَ لكَ في رأسها نَقْباً لطيفاً بحَسَبِ احتمالكَ، ولم يُوسِّعهُ فتختنقَ باللبنِ، ولم يُضيِّقهُ فتمُصَّهُ بكُلفَةٍ، بل جعَلَهُ بقَدْرٍ اقتَضتْهُ حكمتُهُ ومصلحتُكَ.

فمَن عطفَ عليكَ قَلبَ الأمِّ وَوَضَعَ فيهِ الحنانَ العَجيبَ والرَّحمَةَ الباهرَةَ حتى تكونَ في أهنأِ ما يكونُ من شأنها وراحتها ومَقيلها؟! فإذا أحسَّتْ منكَ بأدنى صوتٍ أو بُكاءٍ قامَت إليكَ وآثَرَتْكَ على نَفسها على مَدَىٰ الأنْفاسِ، مُنقادَةً إليكَ بغيرِ قائدٍ ولا سائقٍ إلّا قائدَ الرَّحْمَةِ وسائقَ الحنانِ، تَوَدُّ لو أنَّ كلَّ ما يُؤلمكَ بجسمها، وأنَّهُ لم يطرُقْكَ منهُ شيءٌ، وأنَّ حياتَها تُزادُ في حياتكَ، فمن الذي وضعَ ذلكَ في قلبها.

حتى إذا قَوِيَ بدنُكَ واتَّسعَتْ أمعاؤكَ وخشُنَت عظامُكَ واحتَجْتَ إلى غذاءٍ أصلَبَ من غذائكَ ليشتَدَّ به عظمُكَ ويَقوى عليهِ لحمُكَ، وَضَعَ في فيكَ آلَةَ القَطعِ والطَّحْنِ، فَنَصَبَ لَكَ أسناناً تَقطَعُ بها الطَّعامَ وطواحينَ تَطحنُهُ بها؟! فمن الذي حَبَسها عنكَ أيَّامَ رِضاعِكَ رَحمَةً بأُمِّكَ ولُطفاً بها، ثمَّ أعطاكَها أيَّامَ أكلِكَ رحمَةً بكَ وإحْساناً إليكَ ولُطفاً بكَ.

فلو أنَّكَ خَرَجتَ منَ البَطنِ ذا سِنٍّ ونابٍ وناجِذٍ وضِرْسٍ، كيفَ كانَ حالُ أُمِّكَ بكَ؟

ولو أنَّكَ مُنِعْتَها وقتَ الحاجَةِ إليها كيفَ كانَ حالُكَ بهذه الأطعمَةِ التي لا تُسِيغُها إلّا بَعدَ تَقطيعها وطَحنها؟ وكلَّما ازْدَدْتَ قوَّةً وحاجَةً إلى الأسنانِ في أكلِ المطاعم المُختلفَةِ زِيدَ لكَ في تلكَ الآلاتِ حتى تَنتَهيَ إلى النَّواجذِ فَتُطَيقَ نَهْشَ اللحمِ وقَطْعَ الخبزِ وكَسْرَ الصُّلبِ، ثمَّ إذا ازدَدْتَ قوَّةً زِيدَ لكَ فيها حَتّى تَنتَهي إلى الطَّواحينِ التي هي آخَرُ الأضراسِ.

فَمَن الذي ساعَدَكَ بهذه الآلاتِ وأنْجدَكَ بها ومكَّنَكَ بها من ضُروبِ الغذاءِ؟!

ثمَّ إنَّهُ اقتَضَتْ حِكمتُهُ أنْ أخرَجَكَ مِن بَطنِ أُمِّكَ لا تَعلمُ شيئاً، بل غبيّاً لا عَقْلَ ولا فَهمَ ولا علمَ، وذلكَ مِن رَحمتهِ بكَ؛ فإنَّكَ على ضَعفِكَ لا تَحتملُ العَقلَ والفَهمَ والمَعرفَةَ، بل كنتَ تَتمزَّقُ وتَتَصدَّعُ، بل جعَلَ ذلكَ ينتقلُ فيكَ بالتَّدريجِ شيئاً فشيئاً، فلا يُصادفُكَ ذلكَ وَهلَةً واحدةً، بل يُصادفكَ يَسيراً يَسيراً حتى يتكامَلَ فيكَ.

واعتبِرْ ذلكَ بأنَّ الطِّفْلَ إذا سُبيَ صَغيراً من بَلدهِ ومن بينِ أبويهِ ولا عَقلَ لهُ فإنَّهُ لا يُؤلِمهُ ذلكَ، وكلَّما كانَ أقربَ إلى العَقلِ كانَ أشقَّ عليهِ وأصعَبَ، حتى إذا كانَ عاقلاً فلا تَراهُ إلّا كالوالهِ الحيرانِ.

ثمَّ لو وُلِدْتَ عاقلاً فهيماً كحالكَ في كِبَرِكَ تَنغَّصَتْ عليكَ حياتُكَ أعظَمَ تَنغيصٍ، وتنكَّدْتَ أعظَمَ تَنكيدٍ، لأنَّكَ تَرى نَفسَكَ محمولاً رَضيعاً مُعصَّباً بالخِرَقِ مُربَّطاً بالقَمْطِ مسجوناً في المَهدِ عاجزاً ضَعيفاً عما يُحاوِلُهُ الكبيرُ.

فكيفَ كانَ يكونُ عيشُك مع تعقُّلِك التَّامِّ في هذه الحالَةِ؟ ثمَّ لم يكُن يُوجَدُ لكَ منَ الحلاوَةِ واللَّطافَةِ والوَقْعِ في القَلبِ والرَّحمَةِ بكَ ما يُوجَدُ للمولودِ الطِّفلِ، بل تكونُ أنْكَدَ خَلقِ اللَّهِ وأثقلَهم وأعْنَتَهُم وأكثرَهم فُضولاً.

وكانَ دخولُكَ هذا العالَمَ وأنتَ غبيٌّ لا تَعقلُ شيئاً ولا تَعلمُ ما فيهِ أهلُه محضَ الحكمةِ والرَّحمَةِ بكَ والتَّدبيرِ، فَتَلْقَى الأشياءَ بذهنٍ ضَعيفٍ ومَعرفَةٍ ناقصَةٍ، ثمَّ لا يزالُ يتزايَدُ فيكَ العقلُ والمَعرفَةُ شيئاً فشيئاً حتى تألَفَ الأشياءَ وتَتَمرَّنَ عليها وتَخرجَ منَ التَّأمُّلِ لها والحيرَةِ فيها وتَستقبلَها بحُسنِ التَّصرُّفِ فيها والتَّدبيرِ لها والإتقانِ لها.

وفي ذلكَ وجوهٌ أُخَرُ منَ الحكمَةِ غيرُ ما ذكرناهُ:

فمَن هذا الذي هو قيِّمٌ عليكَ بالمِرْصادِ يَرْصُدُكَ حتى يُوافيَكَ بكلِّ شيءٍ منَ المنافعِ والآرابِ والآلاتِ، في وقتِ حاجتِكَ لا يُقدِّمها عن وقتها ولا يُؤخِّرها عنهُ.

[أعضاء التناسل]

فانظُرْ كيفَ جُعِلَت آلاتُ الجِماعِ في الذَّكَرِ والأُنثى جميعاً على وَفْقِ الحكمَةِ:

فَجُعِلَتْ في حَقِّ الذَّكرِ آلَةً ناشِزَةً تمتدُّ حتى تُوصِلَ المَنِيَّ إلى قَعْرِ الرَّحِمِ، بمنزلَةِ مَن يناولُ غيرَهُ شيئاً فهو يَمُدُّ يَدَهُ إليهِ حتى يُوصِلَهُ إيَّاهُ، ولأنَّهُ يحتاجُ إلى أن يَقذفَ ماءَهُ في قَعْرِ الرَّحمِ.

وأمَّا الأُنثى فجُعِلَ لها وعاءٌ مُجَوَّفٌ لأنَّها تحتاجُ إلى أنْ تَقبلَ ماءَ الرَّجلِ وتُمسِكَهُ وتشتملَ عليهِ، فأُعطيَت آلَةً تَليقُ بها.

ثمَّ لمَّا كانَ ماءُ الرجل ينحدرُ من أجزاءِ الجَسَدِ رَقيقاً ضَعيفاً لا يُخْلَقُ منهُ الوَلدُ جُعِلَ لهُ الأُنثيانِ وعاءً يُطبخُ فيهما، ويُحْكَمُ إنضاجُهُ ليَشتدَّ وينعقدَ ويَصيرَ قابلاً لأنْ يكونَ مبدأً للتَّخليقِ، ولم تَحْتَجِ المرأةُ إلى ذلكَ؛ لأنَّ رقَّةَ مائها ولطَافَتَهُ إذا مازَجَ غِلَظَ الرَّجلِ وشدَّتَهُ قَوِيَ به واستحكَمَ، ولو كانَ الماآنِ رقيقَيْنِ ضعيفَيْنِ لم يتكوَّنِ الوَلدُ منهما.

وخُصَّ الرَّجُلُ بآلَةِ النُّضجِ والطَّبخِ لحِكَمٍ:

منها أنَّ حرارته أقوى، والأُنثى باردَةٌ، فلو أُعْطِيَت تلكَ الآلَةَ لم يَستحكِم طَبخُ الماءِ وإنضاجُهُ فيها.

ومنها أنَّ ماءَها لا يَخرجُ عن محلِّهِ، بل يَنزلُ من بينِ ترائبها إلى محلِّهِ، بخلافِ ماءِ الرَّجلِ، فلو أُعْطِيت المرأَةُ تلكَ الآلَةَ لكانت تحتاجُ إلى آلةٍ أُخرى يُوْصَلُ بها الماءُ إلى محلِّه.

ومنها أَنَّها لمَّا كانَت محلّاً للجِماعِ أُعطِيَت من الآلَةِ ما يَليقُ بها، فلو أُعطِيَت آلَةَ الرَّجلِ لَم تَحصُل لها اللذَّةُ والاستمتاعُ، ولكانَت تلكَ الآلَةُ مُعطَّلَةً بغيرِ منفعَةٍ، فالحكمَة التَّامَّةُ فيما وُجِدَت خِلْقَةُ كلٍّ منهما عليهِ.

[الإذكار والإيناث]

وليسَ استنادُ الإذْكارِ والإيناثِ إلّا على محضِ المرسومِ الإلهيِّ الذي يُلقيهِ إلى مَلَكِ التَّصويرِ حينَ يقولُ: يا ربِّ ذكرٌ أم أُنثى؟ شقيٌّ أم سَعيدٌ؟ فما الرِّزق؟ فما الأَجَل؟ فَيُوحي ربُّكَ ما يشاءُ، ويكتبُ المَلكُ، فإذا كانَ للطَّبيعَةِ تأثيرٌ في الإذكارِ والإيناثِ فلها تأثيرٌ في الرِّزقِ والأجلِ والشقاوَةِ والسَّعادَةِ وإلّا فلا، إذ مَخرجُ الجميعِ ما يُوحيهِ اللَّهُ إلى الملَكِ، ونَحنُ لا نُنْكِرُ

أنَّ لذلكَ أسباباً أُخر، ولكنّ تلكَ من الأسبابِ التي استأثَرَ اللَّهُ بها دونَ البَشرِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠]، فذكرَ أصنافَ النِّساءِ الأربعَةَ معَ الرِّجالِ:

إِحداها: مَن تلدُ الإناثَ فَقَط.

الثَّانيَة: مَن تلدُ الذُّكورَ فَقَط.

الثَّالثَة: مَن تلدُ الزَّوجين الذَّكَرَ والأُنثى ـ وهو معنى التَّزويجِ هنا ـ أي: يَجعَلُ ما يَهبُ له زوجين ذكراً وأُنثى.

الرَّابعَة: العقيم التي لا تَلدُ أصلاً.

وممَّا يدلُّ على أنَّ سَبَبَ الإذكارِ والإيناثِ لا يعلمُهُ البشَرُ ولا يُدْرَكُ بالقياسِ والفِكَرِ، وإنَّما يُعلمُ بالوَحي:

والذي دلَّ عليهِ العقلُ والنَّقلُ أنَّ الجنينَ يُخْلَقُ منَ الماءين جميعاً، فالذَّكرُ يَقْذِفُ ماءَهُ في رَحِمِ الأنثى، وكذلكَ هي تُنزلُ ماءَها إلى حيثُ يَنتَهي ماؤهُ، فيَلتَقي الماآن على أمرٍ قد قدَّرهُ اللَّهُ وشاءَهُ، فَيُخْلَقُ الولدُ بينهما جميعاً، وأيُّهما غَلَبَ كانَ الشبَهُ لهُ؛ كما في «صَحيح البخاري»[1] عَن حُميدٍ عن أنَسٍ قال: بَلَغَ عبد اللَّهِ بن سَلَام قدومُ النَّبيِّ ﷺ، فأتاهُ فقال: إنّي سائلُكَ عن ثلاثٍ لا يعلمهنَّ إلّا نبيٌّ؟ قال: ما أوَّلُ أشراط السَّاعةِ؟ وما أوَّلُ طعامٍ يأكلهُ أهلُ الجنَّةِ؟ ومن أيِّ شيءٍ يَنزعُ الولدُ إلى أبيهِ؟ ومن أيِّ شَيءٍ ينزعُ إلى أخوالهِ؟ فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: (أخبرَني بهنَّ آنفاً جبريلُ) فقال عبد الله: ذاكَ عدوُّ اليَهودِ من الملائكَةِ، فقال

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٩٣٨).

رسول اللَّهِ ﷺ: (أمَّا أوَّلُ أشراطِ السَّاعَةِ فنارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ منَ المشرقِ إلى المَغربِ، وأمَّا أوَّلُ طعام يأكله أهلُ الجنَّةِ فزيادَةُ كبدِ الحوتِ، وأمَّا الشبَهُ في الولَدِ فإنَّ الرَّجلَ إذا غَشِيَ المرأةَ وسبَقَها ماؤهُ كان الشبَهُ له، وإنْ سَبَقَت كانَ الشبَهُ لها)، فقال: أشهَدُ أنَّكَ رسولُ اللَّهِ...

وذكرَ الحديثَ.

فهذا [الحديث] يدلُّ على أنَّ الوَلَدَ يُخلقُ منَ الماءَينِ، وأنَّ الإذكارَ والإيناثَ يكونُ بغَلبَةِ أحَدِ الماءَينِ وقَهْرِهِ للآخَرِ وعُلُوِّه عليه، وأنَّ الشَبهَ يكونُ بالسَّبْقِ، فمَن سبق ماؤهُ إلى الرَّحِمِ كانَ الشَّبَهُ لهُ.

وفي «الصَّحيحين»[1] من حديثِ عُبَيدِ اللَّهِ بن أبي بكر بن أنسٍ، عن أَبيه عن النَّبيِّ ﷺ قال: (إنَّ اللَّهَ وكَّلَ بالرَّحمِ مَلَكاً، فيقولُ: يا ربِّ نُطْفَةٌ، يا ربِّ عَلَقَةٌ، يا ربِّ مُضغَةٌ، فإذا أرادَ أن يخلقَها قال: يا ربِّ أذكرٌ أم أُنثى؟ شقيٌّ أم سَعيد؟ فما الرِّزقُ؟ فما الأجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كذلكَ في بَطنِ أُمِّهِ).

أفلا تَرى كيفَ أحالَ بالإذكارِ والإيناثِ على مُجرَّد المشيئةِ، وقَرَنهُ بما لا تأثيرَ للطَّبيعَةِ فيهِ منَ الشقاوَةِ والسَّعادَةِ والرِّزق والأجلِ، ولم يتعرَّض المَلَكُ للشَّبَهِ الذي للطَّبيعَة فيه مدخَلٌ، أوْ لا تَرى عبد اللَّهِ بن سَلَامٍ لم يسألْ إلّا عن الشبهِ الذي يمكنُ الجوابُ عنهُ، لم يسأل عنِ الإذكارِ والإيناثِ مع أنَّهُ أبلغُ منَ الشبه، واللَّهُ أعلمُ.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٩٥) ومسلم (٢٦١٦).

[منافع بكاء الأطفال]

ثمَّ تأمَّلْ حِكمَةَ اللَّهِ تعالى في كَثرَةِ بكاء الأطفالِ وما لَهُم فيهِ منَ المنفعَةِ؛ فإنَّ الأطبَّاءَ والطَّبائعيِّين شهدوا منفعَةَ ذلكَ وحِكمَته، وقالوا: في أدمغَةِ الأطفالِ رُطوبَةٌ لو بقيَت في أدمغتِهم لأحْدَثَت أحداثاً عظيمَةً، فالبُكاءُ يُسيلُ ذلكَ ويُحْدِرُهُ من أدمغتِهم فتَقوى أدمغتُهم وتصحُّ.

وأيضاً؛ فإنَّ البُكاءَ والعِيَاطَ يُوَسِّعُ عليهِ مجاريَ النَّفَس، ويفتحُ العُروقَ ويُصَلِّبُها، ويُقوِّي الأعصابَ.

وكم للطِّفلِ مِن منفعَةٍ ومصلحَةٍ فيما تَسمعهُ من بكائهِ وصراخه! فإذا كانَت هذه الحكمَةُ في البكاءِ الذي سببُهُ ورودُ الألم والمُؤذي وأنتَ لا تعرفها ولا تكاد تخطرُ ببالكَ، فهكذا إيلامُ الأطفالِ فيه وفي أسبابِهِ وعواقبِهِ الحميدَةِ من الحِكَمْ ما قَد خفيَ على أكثرِ النَّاسِ.



الفصل الثالث

حواس الإنسان ومساعداتها

[الرأس مكان للحواس]

فأَعِد النَّظرَ في نَفسكَ، وحكمَةِ الخلّاقِ العليم في خَلْقِكَ، وانظُرْ إلى الحَواسِّ التي منها تُشْرِفُ على الأشياءِ، كيفَ جَعَلها اللَّهُ في الرَّأسِ كالمصابيحِ فوقَ المنارَةِ؛ لتَتمكَّنَ بها من مُطالَعَةِ الأشياءِ، ولم تُجْعَلْ في الأعضاءِ التي تُمْتَهَنُ كاليَدينِ والرِّجلينِ، فتَتَعرَّض للآفاتِ بمباشرَةِ الأعمالِ والحركاتِ، ولا جَعَلها في الأعضاءِ التي في وَسَطِ البَدنِ كالبَطنِ والظَّهرِ فيعسُرُ عليها التَّلفُّتُ والاطِّلاعُ على الأشياءِ، فلمّا لم يكُن لها في شيءٍ من هذه الأعضاءِ موضعٌ كانَ الرأسُ أليَقَ المواضعِ بها وأجملَها، فالرَّأسُ صومعَةُ الحواسِّ.

[الحواس الخمس والحاسة السادسة]

ثمَّ تأمَّل الحِكمَةَ في أنْ جَعَلَ الحواسَّ خمساً في مقابَلةِ المحسوساتِ الخمسِ ليَلقى خَمساً بخَمسٍ كي لا يَبقى شيءٌ من المحسوساتِ لا ينالُهُ بحاسَّةٍ.

فَجَعَلَ البَصَرَ في مُقابلَةِ المُبصَراتِ.

والسَّمعَ في مقابَلةِ الأصواتِ.

والشَّمَّ في مقابَلةِ أنواعِ الرَّوائحِ المُختلِفاتِ.

والذَّوْقَ في مُقابَلةِ الكيفيَّاتِ المَذُوقاتِ.

واللمسَ في مقابَلةِ الملموساتِ.

فأيُّ محسوسٍ بَقِيَ بلا حاسَّةٍ؟ ولو كانَ في المَحسوساتِ شيءٌ غيرَ هذه لأعطاكَ لهُ حاسَّةً سادسَةً.

ولمّا كانَ ما عداها إنَّما يُدْرَكُ بالباطنِ أعطاكَ الحواسَّ الباطنَة؛ وهي هذه الأخماسُ التي جرَت عليها ألسنَةُ العامَّةِ والخاصَّةِ، حيثُ يقولونَ للمُفكِّرِ المتأمِّلِ: ضَرَبَ أخماسَهُ في أسداسِه؛ فأخماسهُ حواسُّهُ، وأسداسهُ جهاتهُ الستُّ، وأرادوا بذلكَ أنَّهُ جَذَبهُ القَلبُ وسارَ به في الأقطارِ والجهاتِ حتى قَلَّبَ حواسَّهُ الخَمسَ في جهاتهِ الستِّ وضَربها فيها لشدَّةِ فكرهِ.

[معينات الحواس]

ثمَّ أُعينَت هذه الحواسُّ بمخلوقاتٍ أُخَرَ مُنفصِلَةٍ عنها تكونُ واسطَةً في أَجسامِها.

فأُعينَت حاسَّةُ البَصَرِ بالضياءِ والشعاعِ، فلولاهُ لم يَنتفع النَّاظرُ ببَصرهِ، فلو مُنعَ الضياءَ والشعاعَ لم تنفعِ العَينُ شيئاً.

وأُعينَت حاسَّةُ السَّمعِ بالهواءِ يحملُ الأصواتَ في الجوِّ ثمَّ يُلقيها إلى الأُذنِ، فتحويهِ ثمَّ تُلقيهِ إلى القوَّةِ السَّامعَةِ، ولولا الهواءُ لم يَسمعِ الرَّجلُ شيئاً.

وأُعِينَت حاسَّةُ الشمِّ بالنَّسيم اللطيفِ يحملُ الرَّائحَةَ ثمَّ يُؤدِّيها إليها فتدركُها، فلولا هو لم تَشمَّ شيئاً.

وأُعِينَت حاسَّةُ الذَّوقِ بالرِّيقِ المُتحلِّل في الفَمِ تُدرِكُ القوَّةُ الذَّائقَةُ به طُعومَ الأشياءِ، ولهذا لم يكُن له طَعمٌ لا حلوٌ ولا

حامضٌ ولا مالحٌ ولا حَريفٌ[1]؛ لأنَّهُ كانَ يتحلَّلُ تلكَ الطُّعومَ إلى طَعمِهِ فلا يحصُلُ به مقصودُه.

وأُعينَت حاسَّةُ اللمسِ بقوَّةٍ جعَلها اللَّهُ فيها تدرِكُ بها الملموساتِ، ولم تَحتجْ إلى شيءٍ من خارجٍ، بخلافِ غيرِها من الحواسِّ، بل تُدرِكُ الملموساتِ بلا واسطَةٍ بينها وبينها لأنَّها إنَّما تدركها بالاجتماعِ والمُلامَسَةِ، فلم تَحتج إلى واسطَةٍ.

[حال فاقد البصر]

ثمَّ تأمَّلْ حالَ من عُدِمَ البصَرَ وما ينالهُ منَ الخلَلِ في أُمورِهِ؛ فإنَّهُ لا يَعرفُ موضعَ قَدمِهِ، ولا يُبصرُ ما بينَ يَديهِ، ولا يفرِّقُ بينَ الألوانِ والمناظر الحسنَةِ منَ القبيحَةِ، ولا يتمكَّنُ من استفادَةِ علمٍ من كتابٍ يقرؤهُ، ولا يتهيَّأُ لهُ الاعتبارُ والنَّظَرُ في عجائبِ مُلكِ اللَّهِ.

هذا مع أنَّهُ لا يشعرُ بكثيرٍ من مصالحهِ ومضارِّهِ؛ فلا يَشعرُ بحُفرَةٍ يَهوي فيها، ولا بحيوانٍ يَقصِدهُ ـ كالسَّبُع ـ فيتحرَّزُ منهُ، ولا بعدوٍّ يَهوي نَحوَهُ ليَقتُلَهُ، ولا يتمكَّنُ من هربٍ إنْ طُلبَ بل هو مُلْقٍ السَّلَمَ لمَن رامَهُ بأذى، ولولا حفظٌ خاصٌّ من اللَّهِ له قَريبٌ من حفظِ الوَليدِ وكلاءتِهِ لكانَ عَطَبُهُ أقربَ من سلامَتِهِ؛ فإنَّه بمنزلَةِ لحم على وَضَمٍ[2]، ولذلكَ جَعَلَ اللَّهُ ثوابَهُ إذا صَبَرَ واحتَسَبَ الجنَّةَ[3].

ومِن كمالِ لُطفهِ أنْ عَكَسَ نورَ بَصرهِ إلى بَصيرتهِ، فهو

---

(١) هو اللاذع للسان.

(٢) هو الخشبة التي يضع عليها الجزار اللحم.

(٣) جاء هذا في حديث رواه البخاري برقم (٥٣٢٩).

أقوى النَّاس بَصيرَةً وحَذْساً، وجمعَ عليهِ هَمَّهُ، فقَلبُهُ مجموعٌ عليهِ غيرُ مشتَّتٍ؛ لِيَهْنَأَ لهُ العيشُ، وتتمَّ مصلحتُهُ، ولا يَظُنَّ أنَّهُ مغمومٌ حزينٌ مُتأسِّفٌ.

هذا حُكْمُ مَن وُلدَ أعمى.

فأمَّا مَن أُصيبَ بعَينيهِ بَعدَ البَصَرَ فهو بمنزلَةِ سائرِ أهلِ البلاءِ المُنتقِلينَ مِنَ العافيَةِ إلى البليَّةِ، فالمحنَةُ عليهِ شديدَةٌ، لأنَّهُ قَد حِيلَ بينهُ وبينَ ما أَلِفَهُ منَ المرائي والصُّوَرِ وَوُجوهِ الانتفاعِ ببصَرهِ، فهذا لهُ حُكمٌ آخَرُ.

[حال فاقد السمع]

وكذلكَ مَن عَدِمَ السَّمعَ؛ فإنَّهُ يَفقدُ رُوحَ المخاطَبَةِ والمُحاوَرَةِ، ويَعْدَم لذَّةَ المُذاكَرَةِ ونغمَةَ الأصواتِ الشجيَّةِ، وتَعْظُمُ المُؤنَةُ على النَّاسِ في خطابهِ، ويتبرَّمونَ به، ولا يسمعُ شيئاً من أخبارِ النَّاسِ وأحاديثهم، فهو بينهم شاهدٌ كغائبٍ، وحيٌّ كَمَيْتٍ، وقريبٌ كبَعيدٍ(١).

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله:

وقَد اختَلفَ النُّظَّارُ في أيِّهما أقرَبُ إلى الكمالِ وأقلُّ اختلالاً لأمورهِ: الضَّريرُ أو الأطرَشُ؟

وذكروا في ذلكَ وُجوهاً، وهذا مبنيٌّ على أصلٍ آخَرَ؛ وهو: أيُّ الصِّفتَينِ أكملُ: صفَةُ السَّمعِ أو صفَةُ البَصرِ؟

والذي يليقُ بهذا الموضعِ أن يُقالَ: عادمُ البَصَرِ أشدُّهما ضَرراً، وأسلمُهما دِيناً، وأحمَدُهما عاقبَةً، وعادمُ السَّمعِ أقلُّهما ضَرراً في دنياهُ، وأجهلُهما بدينهِ، وأسوأُ عاقبَةً؛ فإنَّهُ إذا عَدِمَ السَّمعَ عدمَ المواعظَ والنَّصائحَ، وانْسَدَّت عليهِ أبوابُ العلوم النَّافعَةِ، وانفتَحَت له طُرُقُ الشهواتِ التي يُدركُها البَصرُ، ولا ينالهُ منَ العلمِ ما يَكُفُّهُ عنها، =

[حال فاقد البيان]

وأمَّا مَن عَدِمَ البيانَين ـ بيانَ القَلبِ وبيانَ اللسانِ ـ فذلكَ بمنزلَةِ الحيوانات البَهيميَّة، بل هي أحسنُ حالاً منهُ؛ فإنَّ فيها ما خُلقَت له منَ المنافعِ والمصالحِ التي تُستعمَلُ فيها، وهذا يجهَلُ كثيراً ممَّا تَهتدي إليهِ البهائمُ ويُلْقي نَفسَهُ فيما تكُفُّ البهائمُ أنفسَها عنهُ.

وإنْ عَدِمَ بيانَ اللسانِ دونَ بيانِ القَلبِ عَدِمَ خاصَّةَ الإنسانِ ـ وهي النُّطْقُ ـ واشتدَّت المُؤْنَةِ بهِ وعليهِ، وعظُمَت حسرتُهُ، وطالَ تأسُّفُهُ على ردِّ الجوابِ ورَجْعِ الخطابِ، فهو كالمُقْعَدِ الذي يَرى ما هو مُحتاجٌ إليهِ ولا تَمتدُّ إليهِ يَدُهُ ولا رِجْلُهُ.

[نعمته تعالى بهذه الحواس]

فكم للَّهِ على عَبدهِ من نعمَةٍ سابغَةٍ في هذه الأعضاءِ والجوارحِ والقُوى والمنافعِ التي فيهِ فهو لا يلتفتُ إليها ولا يشكرُ اللَّهَ عليها! ولو فَقَدَ شيئاً منها لتمنَّى أنَّهُ لهُ بالدُّنيا وما عليها، فهو يتقلَّبُ في نِعَمِ اللَّهِ بسلامَةِ أعضائِه وجوارحِهِ وقُواه وهو عارٍ من شُكرِها، ولو عُرِضَت عليهِ الدُّنيا بما فيها بزوالِ واحدَةٍ منها لأبى المُعاوَضَةَ وعَلِمَ أنَّها مُعاوَضَةُ غُبْنٍ؛ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَـٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

❁ ❁ ❁

= فَضَررُهُ في دينِهِ أكثرُ، وضَررُ الأعمى في دنياهُ أكثرُ.

ولهذا لم يكُن في الصَّحابَةِ أطرشُ، وكانَ فيهم جماعَةٌ أضِرَّاءُ، وقلَّ أنْ يبتلي اللَّهُ أولياءَهُ بالطَّرَشِ، ويبتلي كثيراً منهم بالعمى.

هذا فصلُ الخطابِ في هذه المسألة؛ فمضرَّةُ الطَّرَشِ في الدِّين، ومضرَّةُ العمى في الدُّنيا، والمُعافى مَن عافاهُ اللَّهُ منهما ومتَّعهُ بسمعهِ وبَصرِهِ وجَعَلَهُما الوارِثَيْنِ منهُ.

الفصل الرابع

أعضاء الحواس

[الرأس مجمع أعضاء الحواس]

وتأمَّل كيفيَّة خَلقِ الرَّأسِ وكثرَةِ ما فيهِ من العظام حتى قيلَ: إنَّها خمسةٌ وخمسونَ عَظماً مختلفَةُ الأشكالِ والمقاديرِ والمنافع، وكيفَ ركَّبَهُ سبحانهُ وتعالى على البَدَنِ وجَعَلَهُ عالياً عليهِ عُلُوَّ الرَّاكبِ على مركوبهِ، ولمّا كانَ عالياً على البَدَنِ جَعَلَ فيه الحواسَّ الخمسَ وآلاتِ الإدراكِ كلَّها من السَّمعِ والبَصَرِ والشمِّ والذَّوقِ واللمسِ.

وزيَّنَ سبحانَه الرَّأسَ بالشعرِ، وجَعَلَهُ لباساً لهُ لاحتياجهِ إليهِ، وزيَّنَ الوجهَ بما أنبتَ فيهِ من الشعورِ المختلفَةِ الأشكالِ والمقاديرِ، فزيَّنهُ بالحاجبينِ، وجَعَلَهُما وقايَةً لِمَا يتحدَّرُ من بَشَرةِ الرَّأسِ إلى العَينين، وقوَّسهما، وأحسَنَ خطَّهما، وزيَّنَ أجفانَ العينين بالأهدابِ، وزيَّنَ الوجهَ أيضاً باللِّحيَةِ[1] وجعلها كمالاً ووَقاراً للرَّجُلِ، وزيَّنَ الشفتين بما أنبَتَ فوقَهما من الشارب وتحتَهما مِن العَنْفَقة.

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله:
ومُنِعَتْها المرأةُ لتبقى نضارَةُ وجهِها وحُسْنُهُ لا يَشِينهُ الشعرُ، واشْتَرَكا في سائرِ الشعورِ للحكمَةِ والمنفعَةِ التي فيها.

[العين]

وجَعَلَ حاسَّةَ البَصَرِ في مُقدَّمِهِ ليكونَ كالطَّليعَةِ والحَرَسِ الكاشفِ للبَدنِ، وركَّبَ كلَّ عينٍ من سبعِ طبقاتٍ، لكلِّ طَبَقَةٍ وصفٌ مخصوصٌ، ومقدار مخصوصٌ، ومنفعةٌ مخصوصَةٌ لو فُقدَت طَبَقَةٌ من تلكَ الطَّبقاتِ السَّبعِ أو زالت عن هَيئتها وموضعها؛ لتعطَّلَت العَينُ عن الإبصار.

ثمَّ أركزَ سبحانهُ داخلَ تلكَ الطَّبقاتِ السَّبعِ خَلْقاً عَجيباً وهو إنسانُ العَينِ بقَدرِ العَدَسَةِ يُبصِرُ به ما بينَ المشرقِ والمَغربِ والأرضِ والسَّماءِ، وجعَلَهُ من العَينِ بمنزلَةِ القَلبِ من الأعضاءِ، فهو مَلِكُها، وتلكَ الطَّبقاتُ والأجفانُ والأهدابُ خَدَمٌ له وحُجَّابٌ وحُرَّاسٌ، فتبارَكَ اللَّهُ أحسَنُ الخالقين.

فانظر كيفَ حسَّنَ شكلَ العَينينِ وهيئتَهما ومقدارَهما.

ثمَّ جمَّلهما بالأجفانِ غِطاءً لهما وستراً وحفظاً وزينَةً؛ فهما يَتَلقَّيانِ عن العَينِ الأذى والقذى والغبارَ ويُكِنَّانِهما من البارِدِ المؤذي والحارِّ المؤذي.

ثمَّ غَرَسَ في أطرافِ تلكَ الأجفانِ الأهدابَ جمالاً وزينَةً، ولمنافعَ أُخَر وراءَ الجمالَ والزِّينَةِ.

ثمَّ أودعَهُما ذلكَ النُّورَ الباصرَ والضُّوء الباهرَ الذي يخرقُ ما بينَ السَّماءِ والأرضِ، ثمَّ يخرقُ السَّماءَ مُجاوزاً لرؤيَةِ ما فوقها من الكواكبِ.

وقَد أودَعَ سبحانهُ هذا السرَّ العَجيبَ في هذا المقدارِ الصَّغير بحيثُ تنطبعُ فيه صورَةُ السَّماواتِ مع اتِّساع أكنافها وتباعُدِ أقطارها.

[الأذن]

وشقَّ لهُ السَّمعَ وخَلَقَ الأُذُنَ أحسَنَ خِلقَةٍ وأبلغَها في حُصولِ المقصودِ منها، فجعلها مُجوَّفَةً كالصَّدَفَةِ لتجمعَ الصَّوتَ فتؤدِّيَهُ إلى الصِّماخِ، وليحسَّ بدبيبِ الحيوانِ فيها فَيُبادرَ إلى إخراجِهِ، وجَعَلَ فيها غُضوناً وتجاويفَ واعوجاجاتٍ تُمسِكُ الهواءَ والصَّوتَ الدَّاخلَ فتكسرُ حِدَّتَهُ ثمَّ تؤدِّيهِ إلى الصِّماخ.

ومن حكمةِ ذلكَ ـ أيضاً ـ أن يُطَوَّلَ بهِ الطَّريقُ على الحيوانِ، فلا يَصلُ إلى الصِّماخ حتى يستَيقظَ أو ينتبهَ لإمساكِهِ.

وفيه أيضاً حِكَمٌ غير ذلكَ.

ثم اقتَضَتْ حِكمَةُ الرَّبِّ الخالقِ سبحانَه أنْ جَعَلَ ماءَ الأُذُنِ مُرًّا في غايَةِ المرارَةِ، فلا يُجاوِزُهُ الحيوانُ ولا يَقطعُهُ داخلاً إلى باطنِ الأُذُنِ، بل إذا وَصَلَ إليهِ أعمَلَ الحِيلَةَ في رجوعِهِ.

وجعَلَ ماءَ العَيْنِ مالحاً لِيَحْفَظَها، فإنَّها شحمَةٌ قابلةٌ للفسادِ، فكانَت مُلوحةُ مائها صيانَةً لها وحفظاً.

وجَعَلَ ماءَ الفم عَذباً حلواً ليدركَ به طعومَ الأشياءِ على ما هي عليهِ، إذ لو كانَ على غيرِ هذه الصِّفَةِ لأحالَها إلى طبيعتِهِ، كما أنَّ مَن عَرَضَ لفمِهِ المرارَةُ استمرَّ طَعْمَ الأشياءِ التي ليسَت بمُرَّة، كما قيل:

ومَن يَكُ ذا فمٍ مُرٍّ مَريضٍ يجدْ مُرًّا بهِ الماءَ الزُّلالا

[الأنف]

ونَصَبَ سبحانهُ قَصَبَةَ الأنفِ في الوجهِ فأحسَنَ شكلَهُ وهيئَتَهُ ووَضْعَهُ، وفتحَ فيه المَنْخِرَين، وحجَزَ بينهما بحاجزٍ، وأودَعَ فيهما حاسَّةَ الشمِّ التي تُدْرَكُ بها أنواعُ الرَّوائحِ الطَّيِّبَةِ والخبيثَةِ والنَّافعَةِ

والضَّارَّةِ وليتنَشَّقَ به الهواءَ فيوصلَهُ إلى القَلبِ فيتروَّحَ به ويتغذَّى به.

ثمَّ لم يجعَل في داخلِهِ من الاعوجاجاتِ والغُضونِ ما جَعَلَ في الأذنِ لئلّا يُمسكَ الرَّائحَةَ فَيُضعفها ويقطعَ مجراها.

وجعَلَهُ سبحانُه مصبّاً تنحدُر إليهِ فَضَلاتُ الدِّماغ فتجتمعُ فيهِ ثمَّ تخرجُ منهُ.

واقتَضَتْ حكمتُه أن جَعَلَ أعلاهُ أدقَّ من أسفلِهِ؛ لأنَّ أسفَلَهُ إذا كانَ واسعاً اجتمعَتْ فيهِ تلكَ الفضلاتُ فخرَجَتْ بسهولَةٍ، ولأنَّهُ يأخذُ من الهواءِ مَلْأَهُ ثمَّ يتصاعَدُ في مجراهُ قليلاً قليلاً، حتى يَصلَ إلى القَلبِ وصولاً لا يضرُّهُ ولا يُزعِجُهُ.

ثمَّ فَصَلَ بين المَنْخِرَيْنِ بحاجزٍ بينهما حكمَةً منهُ ورحمَةً؛ فإنَّهُ لما كانَ قَصَبَةً ومجرًى ساتراً لِمَا ينحدرُ فيه من فضلاتِ الرَّأسِ ومجرى النَّفَسِ الصَّاعدِ منهُ جَعَلَ في وسطهِ حاجزاً لئلا يفسدَ بما يَجري فيه فيمنعَ نَشْقَهُ للنَّفس، بل إمَّا أن يَعتَمدَ الفضلاتِ نازلَةً من أحَدِ المنفذين في الغالبِ فيَبقى الآخَرُ للنَّفَسِ، وإمَّا أن يَجري فيهما فينقسمَ فلا يَنسدَّ الأنفُ جملَةً بل يبقى فيه مدخَلٌ للنَّفَسِ.

وأيضاً؛ فإنَّهُ لمّا كانَ عُضواً واحداً وحاسَّةً واحدةً ـ ولم يكُن عضوَينِ وحاسَّتينِ كالأُذُنَيْنِ والعَينين اللَّتين اقتَضَت الحكمَةُ تعدُّدَهما ـ فإنَّهُ ربَّما أُصيبت إحداهما أو عَرَضَت لها آفَةٌ تمنعها من كمالها فتكونُ الأُخرى سالمةً، فلا تَتَعطَّلُ منفعةُ هذا الجنسِ جملَةً، وكانَ وجودُ أنْفَيْنِ في الوجهِ شيئاً ظاهراً فنَصَبَ أنفاً واحداً، وجعَلَ فيهِ منفذينِ حجَزَ بينهما بحاجزٍ يجري مجرى تَعدُّدِ العَينين والأذنين في المنفعَةِ وهو واحدٌ.

فتبارَكَ اللَّهُ ربُّ العالَمين وأحسَنُ الخالقين.

[الفم وما فيه]

وشقَّ سبحانهُ للعَبدِ الفَمَ في أحسَنِ موضعٍ وأليَقهِ بهِ، وأودَعَ فيهِ من المنافع وآلاتِ الذَّوقِ والكلامِ وآلاتِ الطَّحْنِ والقَطعِ ما يَبهرُ العقولَ عجائبُهُ؛ فأودَعَهُ اللسانَ الذي هو أحدُ آياتهِ الدَّالَّةِ عليهِ، وجعَلَهُ تَرْجُماناً لملكِ الأعضاءِ مُبِيناً مؤدِّياً عنهُ كما جَعَل الأُذنَ رسولاً مُؤدِّياً مُبلِّغاً إليهِ، فهي رسولُهُ وبَريدُهُ الذي يُؤدِّي إليهِ الأخبارَ، واللسانُ بَريدُهُ ورَسولُهُ الذي يُؤدِّي عنهُ ما يريدُ.

واقتَضَتْ حكمتُهُ سبحانهُ أنْ جَعَلَ هذا الرَّسولَ مَصوناً محفوظاً مستوراً غَيرَ بارزٍ مكشوفٍ كالأُذنِ والعَينِ والأنفِ؛ لأنَّ تلكَ الأعضاءَ لمّا كانت تؤدِّي من الخارجِ إليهِ جُعِلَتْ بارزَةً ظاهرَةً، ولمّا كانَ اللسانُ مُؤدِّياً منهُ إلى الخارجِ جعلَ لهُ ستراً مصوناً لعَدمِ الفائدَةِ في إبرازهِ لأنَّهُ لا يأخذُ من الخارج إلى القَلب.

وأيضاً؛ فإنَّهُ لمّا كانَ أشرَفَ الأعضاءِ بعدَ القلبِ، ومنزلتُهُ منه منزلَةَ ترجمانِهِ ووزيرِهِ ضُرِبَ عليهِ سرادقٌ تسترهُ وتصونُهُ، وجُعلَ في ذلكَ السُّرادقِ كالقَلبِ في الصَّدرِ.

وأيضاً؛ فإنَّهُ من ألطَفِ الأعضاءِ وألينِها وأشدِّها رطوبَةً، وهو لا يتصرَّفُ إلّا بواسطَةِ الرُّطوبَةِ المحيطَةِ به، فلو كانَ بارزاً صارَ عُرضَةً للحرارةِ واليُبوسَةِ والنَّشَافِ المانعِ لهُ من التَّصرُّفِ، ولغَيرِ ذلكَ من الحكَمِ والفوائدِ.

ثمَّ زيَّنَ سبحانهُ الفَمَ بما فيه من الأسنانِ التي هي جمالٌ لهُ وزينةٌ، وبها قِوامُ العَبدِ وغذاؤهُ، وجَعلَ بعضَها أرحاءَ[1] للطَّحنِ،

---

(١) ما يطحن به، مفردها: رحى.

وبعضَها آلَةً للقَطعِ، فأحكَمَ أُصولَها وحدَّدَ رؤوسَها، وبيَّض لونَها، ورتَّبَ صفوفَها مُتساويَةَ الرُّؤوسِ، مُتناسقَةَ التَّرتيبِ، كأنَّها الدُّرُّ المنظومُ بياضاً وصفاءً وحُسناً.

وأحاطَ سبحانهُ على ذلك حائطين، وأودَعَهُما منَ المنافعِ والحِكَمِ ما أودَعَهما، وهما الشفتانِ؛ فحسَّنَ لونَهما وشكلَهما وَوَضْعَهما، وهيَّأهما وجعلهما غطاءً للفَمِ وطَبَقاً لهُ، وجعلَهما إتْماماً لمخارجِ حروفِ الكلامِ ونهايَةً لهُ، كما جَعَلَ أقصى الحَلْقِ بدايَةً لهُ، واللّسانَ وما جاوَرَهُ وَسَطاً، ولهذا كانَ أكثَرُ العَمَلِ فيها لهُ؛ إذ هو الواسطَةُ.

واقتَضَتْ حِكمتُهُ أَنْ جَعَلَ الشفتين لحماً صِرْفاً لا عظمَ فيهِ ولا عَصَبَ، ليتمكَّنَ بهما من مَصِّ الشرابِ، ويسهُلَ عليهِ فتحُهما وطَبْقُهما.

وفي هذه الآلاتِ مآربُ أُخرى ومنافعُ سوى منفَعَةِ الكلامِ:

ففي الحُنجرةِ مسلكُ النَّسيمِ البارِدِ الذي يُروِّحُ على الفؤادِ بهذا النَّفَسِ الدَّائمِ المُتتابعِ.

وفي اللسانِ منفعَةُ الذَّوقِ، فتُذاقُ بهِ الطُّعومُ وتُدرَكُ لذَّتُها ويُمَيَّزُ بهِ بينها، فيعرفُ حَقيقَةَ كلِّ واحدٍ منها، وفيهِ معَ ذلكَ معونَةٌ على إساغَةِ الطَّعامِ وأن يلوكَهُ ويَقْلِبَهُ حتى يَسهُلَ مسلكُهُ في الحَلْقِ.

وفي الأسنانِ منَ المنافعِ ما هو معلومٌ من تَقطيعِ الطَّعامِ كما تَقدَّم، وفيها إسنادُ الشَّفَتَينِ وإِمساكُهما عن الاسترخاءِ وتَشويهِ الصُّورَةِ، ولهذا تَرى مَنْ سَقَطَت أسنانهُ كيفَ تَستَرخي شَفَتاهُ.

وفي الشَّفتين منافعُ عَديدَةٌ، يَرْشَفُ بها الشرابُ حتى يكونَ

الدَّاخلُ منهُ إلى حَلْقهِ بقَدْرٍ فلا يَشْرَقُ بهِ الشاربُ، ثمَّ هُما بابٌ مُغْلَقٌ على الفمِ الذي ينتهي إليهِ ما يخرجُ منَ الجوفِ، ومنهُ يَبتدي ما يَلِجُ فيهِ، فَهُما غِطاءٌ وطابقٌ عليهِ، يَفتحهُما البّوابُ متى شاء، ويُغلقهُما إذا شاءَ، وهما أيضاً جمالٌ وزينَةٌ للوَجهِ، وفيهما منافعُ أُخرى سوى ذلكَ.

وانظُرْ إلى مَن سَقَطَت شَفَتاهُ ما أشوَهَ منظرَهُ!

وقَد بانَ أنَّ كلَّ واحدٍ من هذه الأعضاءِ يتصرَّفُ إلى وجوهٍ شتَّى منَ المنافعِ والمآربِ والمصالحِ كما تَتَصرَّفُ الأداةُ الواحدَةُ في أعمالٍ شتَى.

وخصَّ الفكَّ الأسفل بالتَّحريكِ؛ لأنَّ تَحريكَ الأخفِّ أحسنُ، ولأنَّهُ يشتملُ على الأعضاءِ الشريفَةِ فلم يُخاطِرْ بها في الحركةِ.

[الأصوات وتنوعها]

ثمَّ تأمَّلْ هذا الصَّوتَ الخارجَ من الحَلْقِ، وتهيئةَ آلاتهِ، والكلامَ وانتظامَهُ والحروفَ ومخارجَها وأدواتِها ومقاطعَها وأجراسَها، تجدِ الحكمَةَ الباهرَةَ في هواءٍ ساذَجٍ يَخْرُجُ من الجَوفِ فيسلُكُ في أُنبوبَةِ الحُنجرَةِ حتى ينتهيَ إلى الحَلْقِ واللسانِ والشفتين والأسنانِ، فَيَحْدُثُ له هناكَ مقاطعُ ونهاياتٌ وأجراسٌ يُسمعُ له عندَ كلِّ مَقطع ونهايَةٍ جَرْسٌ متميِّزٌ منفصلٌ عن الآخَرِ، يحدثُ بسببهِ الحرفُ.

فهو صوتٌ واحدٌ ساذَجٌ يجري في قَصَبَةٍ واحدَةٍ حتى ينتهي إلى مقاطعَ وحدودٍ تُسمعُ له منها تسعَةٌ وعشرونَ حرفاً، يدورُ عليها الكلامُ كلُّهُ؛ أمرهُ ونَهيهُ، وخبرهُ واستخبارهُ، ونَظْمُهُ ونثرهُ،

وخُطَبُهُ ومواعظُهُ وفُضولهُ؛ فمنهُ المُضحكُ، ومنهُ المُبكي، ومنهُ المُؤْيِسُ، ومنهُ المُطْمِعُ، ومنهُ المُخَوِّفِ، ومنه المُرَجّيُّ، والمُسلِّي، والمُحزِن، والقابضُ للنَّفْسِ والجوارحِ، والمُنَشِّطُ لها والذي يُسْقِمُ الصَّحيحَ ويُبْرِئُ السَّقيمَ، ومنهُ ما يُزيلُ النِّعَمَ ويُحِلُّ النِّقَمَ، ومنهُ ما يُستَدفعُ به البلاءُ، ويُستجلَبُ به النَّعماءُ، وتُستمالُ به القلوبُ، ويُؤلَّفُ به بينَ المُتباغِضَيْنِ، ويوالى به بينَ المُتعادِيَيْنِ، ومنهُ ما هو بضدِّ ذلكَ.

ومنهُ الكلمةُ التي لا يُلقي لها صاحبها بالاً يَهوي بها في النَّارِ أبعَدَ مِمّا بينَ المشرقِ والمَغربِ[1]، والكلمةُ التي لا يُلقي لها بالاً صاحبُها يَرفعه بها في أعلى عِلِّيِّين في جوارِ ربِّ العالَمين.

فسبحانَ مَن أنشأَ ذلكَ كلَّهُ من هواءٍ ساذَجٍ يَخْرُجُ من الصَّدرِ لا يُدرىٰ ما يُرادُ بهِ! ولا أينَ ينتهي! ولا أينَ مُستقرُّهُ! هذا إلى ما في ذلكَ من اختلافِ الألسنَةِ واللُّغاتِ التي لا يُحصيها إلّا اللّٰهُ، فيجتمعُ الجَمْعُ منَ النَّاسِ من بلادٍ شتَّىٰ فيتكلَّمُ كلٌّ منهم بلغَةٍ فَتَسْمَعُ لغاتٍ مختلفَةً وكلاماً مُنتظماً مُؤلَّفاً ولا يُدْرِكُ كلٌّ منهم ما يقولُ الآخَرُ.

واللسانُ الذي هو جَارِحَةٌ واحدٌ في الشكلِ والمنظَرِ، وكذلكَ الحَلْقُ والأضراسُ والشفتانِ، والكلامُ مُختلِفٌ متفاوُتٌ أعظمَ تفاوتٍ، فالآيَةُ في ذلك كالآيةِ في الأرضِ التي تُسقى بماءٍ واحدٍ، ويَخْرُجُ من ذلكَ مِن أنواعِ النَّباتِ والأزهارِ والحُبوبِ والثمارِ تلكَ الأنواعُ المُختلفَةُ المُتبايِنَةُ.

---

(١) روى ذلك البخاري (٦٤٧٧) ومسلم (٢٩٨٨).

ولهذا أخبَرَ اللَّهُ سبحانهُ في كتابهِ أنَّ في كلٍّ منهما آيات للعالَمين؛ فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرَّعد: ٤].

فانْظُر الآنَ في الحُنجرَةِ، كيفَ هي كالأنبوبِ لخروجِ الصَّوتِ، واللسانِ والشفتين والأسنانِ لصياغَةِ الحروفِ والنَّغماتِ، ألَا تَرى أنَّ مَن سَقَطَت أسنانُهُ لم يُقِم الحُروفَ التي تَخرجُ منها ومنَ اللسانِ، ومَن نَقَصَتْ شَفَتُهُ كيفَ لم يُقِم الحروفَ الشفهيَّةَ، ومَن ثَقُلَ لسانُه كيف لم يُقِمِ الرَّاءَ واللامَ والذَّالَ، ومَن عَرَضَت له آفَةٌ في حَلْقهِ كيفَ لَم يتمكَّن منَ الحروفِ الحلقيَّةِ.

وقد شبَّهَ أصحابُ التَّشريحِ مخرجَ الصَّوتِ بالمِزمارِ، والرِّئَةَ بالزِّقِّ[1] الذي يُنفخُ فيهِ من تَحتهِ ليدخُلَ الرِّيحُ فيهِ، والفضلاتِ التي تَقْبِضُ على الرِّئَةِ ليَخرجَ الصَّوتُ منَ الحُنجرَةِ بالأكُفِّ التي تَقبضُ على الزِّقِّ حتى يَخرجَ الهواءُ في القَصَبة، والشفتين والأسنانِ التي تَصوغُ الصَّوتَ حروفاً ونَغَماً بالأصابعِ التي تَختلفُ على المزمارِ فتَصُوغُهُ ألحاناً، والمقاطعَ التي ينتهي إليها الصَّوتُ بالأَبْخاشِ[2] التي في القَصَبَةِ، حتى قيلَ: إنَّ المِزمارَ إنَّما اتُّخِذَ على مثالِ ذلكَ منَ الإنسانِ.

فإذا تَعجَّبْتَ منَ الصِّناعَةِ التي تعملُها أكُفُّ النَّاسِ حتى

---

(١) وعاءٌ من جلدٍ يُجَزُّ شعرُه، يُتَّخذ للماء والشراب.

(٢) أي الثقوب.

تَخرجَ منها تلكَ الأصواتُ، فما أحراكَ بطولِ التَّعجُّبِ منَ الصِّناعَةِ الإلهيَّةِ التي أخرَجَتْ تلكَ الحروفَ والأصواتِ منك، منَ اللحمِ والدَّمِ والعُروقِ والعظام! ويا بُعْدَ ما بَينهما! ولكنَّ المألوفَ المُعتادَ لا يَقعُ عندَ النُّفوسِ موقعَ التَّعجّبِ، فإذا رَأَتْ ما لا نسبَةَ لهُ إليهِ أصلاً إلّا أنَّهُ غَريبٌ عندها تَلقَّتْهُ بالتَّعجُّب وتَسبيحِ الرَّبِّ تعالى، وعندها من آياتهِ العَجيبَةِ الباهرَةِ ما هو أعظمُ من ذلكَ ممَّا لا يُدركهُ القياسُ.

ثم تأمَّل اختلافَ هذه النَّغَماتِ، وتبايُنَ هذه الأصواتِ، مع تشابهِ الحناجرِ والحُلوقِ والألسنَة والشفاهِ والأسنانِ، فمَن الذي مَيَّزَ بينها أتمَّ تَمييز مع تشابهِ محالِّها سوى الخلَّاقِ العليم؟!

وخَلَقَ سبحانهُ الحناجرَ مُختلفَةَ الأشكالِ في الضِّيقِ والسَّعَةِ والخشونَةِ والْمَلاسَةِ والصَّلابَةِ واللِّينِ والطُّولِ والقِصَرِ؛ فاختلَفَت بذلكَ الأصواتُ أعظَمَ اختلافٍ، ولا يكادُ يشتبهُ صوتانِ إلّا نادراً.

ولهذا كانَ الصَّحيحُ قَبُولَ شهادَةِ الأعمى لتمييزهِ بين الأشخاصِ بأصواتهم كما يُميِّزُ البَصيرُ بينهم بصُوَرهم، والاشتباهُ العارضُ بينَ الأصواتِ كالاشتباهِ العارضِ بينَ الصُّوَرِ.



الفصل الخامس

بعض الأعضاء غير أعضاء الحواس

[اليدان]

وكذلكَ خَلْقُهُ سبحانُه لليَدينِ اللَّتينِ هما آلَةُ العَبدِ وسلاحُهُ ورأسُ مالِ معاشهِ، فطوَّلَهما بحيثُ يَصِلَانِ إلى ما شاءَ من بَدنهِ، وعرَّضَ الكفَّ ليتمكَّنَ بهِ من القَبضِ والبَسطِ، وقسَّمَ فيهِ الأصابعَ الخمسَ، وقسَّمَ كلَّ إصبَعٍ بثلاثِ أناملَ والإبهامَ باثنتين، ووضعَ الأصابعَ الأربعَةَ في جانبٍ والإبهام في جانب لتدورَ الإبهامُ على الجميع، فجاءَت على أحسَنِ وضعٍ صَلَحت به للقَبضِ والبَسطِ ومباشرَةِ الأعمالِ، ولو اجتَمَعَ الأوَّلونَ والآخِرونَ على أن يَستنبطوا بدقيقِ أفكارهم وضعاً آخَرَ للأصابعِ سوى ما وُضِعَت عليهِ لم يجدوا إليهِ سبيلاً.

فتباركَ مَنْ لو شاءَ لسوَّاها وجعَلها طَبَقاً واحداً كالصَّفيحَةِ، فلم يتمكَّن العَبدُ بذلكَ من مصالحه وأنواعِ تَصرُّفاتهِ ودقيقِ الصَّنائعِ والخطِّ وغير ذلكَ، فإنْ بَسطَ أصابعه كانَت طَبَقاً يضعُ عليهِ ما يريدُ، وإنْ ضمَّها وقبضها كانَت دبُّوساً وآلَةً للضَّربِ، وإنْ جعلها بينَ الضَّمِّ والبَسطِ كانَت مِغْرَفةً لهُ يتناوَلُ بها ويُمسكُ فيها ما يتناولهُ.

وركَّبَ الأظفارَ على رُؤوسها زينَةً لها وعماداً ووقايَةً، وليلتقطَ بها الأشياءَ الدَّقيقَةَ التي لا ينالُها جسم الأصابعِ، وجعَلَها

سلاحاً لغيرِهِ من الحيوانِ والطَّيرِ، وآلَة لمعاشِهِ، وليحكَّ الإنسانُ بها بَدَنَهُ عندَ الحاجَةِ.

فالظُّفْرُ الذي هو أقلُّ الأعضاءِ وأحقرُها لو عَدِمَهُ الإنسانُ ثمَّ ظَهَرَت به حكَّةٌ لاشتَدَّت حاجتهُ إليهِ ولم يقم مقامَهُ شيءٌ في حكِّ بَدنهِ، ثمَّ هَدى اليَدَ إلى موضعِ الحكِّ حتى تمتدَّ إليهِ ولو في النَّومِ والغَفلَةِ من غيرِ حاجَةٍ إلى طَلَبٍ، ولو استعانَ بغيرِهِ لم يعثُر على موضعِ الحكِّ إلّا بَعدَ تَعَبٍ ومشقَّةٍ.

[العظام وأربطتها]

ولمّا كان الإنسانُ مُحتاجاً إلى الحَرَكَةِ بجملَةِ بَدَنهِ وبِبَعضِ أعضائهِ للتَّردُّدِ في حاجتهِ لم يَجعَلْ عظامَهُ عظماً واحداً، بل عظاماً متعدِّدَةً، وجَعَلَ بينها مفاصلَ حتى تَتيسَّرَ بها الحَركَةُ، وكان قَدْرُ كلِّ واحدٍ منها وشكلُهُ على حسَبِ الحركةِ المطلوبَةِ منهُ.

وكيفَ شدَّ أَسْرَ تلكَ المفاصلِ والأعضاءِ وربَطَ بَعضها ببعَضٍ بأوتارٍ ورباطاتٍ أنبتها من العظمِ وألصق أحد طَرَفَي العظم بالطَّرفِ الآخَرِ كالرِّباطِ لهُ، ثمَّ جَعَلَ في أحَدِ طَرَفَي العظمِ زوائدَ خارجةً عنهُ، وفي الآخرِ نُقَراً غائصَةً فيه مُوافقَةً لشكلِ تلكَ الزَّوائدِ لتدخُلَ فيها وتنطبقَ عليها، فإذا أرادَ العبدُ أن يُحرِّكَ جزءاً من بَدَنهِ لم يمتنعْ عليهِ، ولولا المفاصلُ لتعذَّرَ ذلكَ عليهِ.

ثمَّ انظُر إلى الحكمَةِ البالغَةِ في جعلِ عظامِ أسفَلِ البَدنِ غليظَةً قويَّةً لأنَّها أساسٌ لهُ، وعظامُ أعاليه دونها في الثَّخانَةِ والصَّلابَةِ لأنَّها محمولَةٌ.

ثمَّ انظر كيفَ جَعلَ الرَّقَبَة مركباً للرَّأسِ، وركَّبها من سبعِ خَرَزَاتٍ مُجوَّفاتٍ مُستديراتٍ، ثمَّ طبَّقَ بعضها على بَعضٍ، وركَّبَ

كلَّ خَرَزَةٍ على صاحبتها تركيباً مُحكَماً مُتْقَناً حتى صارَت كأنَّها خَرَزَةٌ واحدَةٌ، وركَّبَ الرَّقَبَةَ على الظَّهرِ والصَّدرِ، ثمَّ ركَّبَ الظَّهرَ من أعلاهُ إلى منتهى عَظم العَجُزِ من أربعٍ وعشرينَ خَرَزَةً مركَّبَةً بعضُها في بَعضٍ هي مَجْمَعُ أضلاعهِ والتي تُمسِكُها أن تنحلَّ وتتفصَّلَ، ثُمَّ وصَلَ تلكَ العظامَ بَعضها ببَعضٍ؛ فَوَصَلَ عظامَ الظَّهرِ بعظامِ الصَّدرِ وعظامَ الكتفينِ بعظامِ العَضُدَين، والعضُدينِ بالذِّراعين، والذِّراعَين بالكَفِّ والأصابعِ.

انظر كيفَ كسا العظامَ العَريضَةَ كعظامِ الظَّهرِ والرَّأسِ كسوَةً من اللحمِ تُناسِبُها، والعظامَ الدَّقيقَةَ كسوَةً تناسبها كالأصابعِ، والمتوسِّطَةَ كذلكَ كعظامِ الذِّرَاعَينِ والعَضُدَينِ، فهو مُركَّبٌ علَى ثلاثِ مئةٍ وستِّينَ عظماً؛ منها مئتانِ وثمانيَةٌ وأربعونَ مفاصل، وباقيها صغارٌ حُشِيَتْ خلالَ المفاصلِ، فلو زادَت عظماً واحداً لكانَ مضرَّةً على الإنسانِ يحتاجُ إلى قَلْعهِ، ولو نَقَصَت عظماً واحداً كانَ نقصاناً يحتاجُ إلى جَبرهِ، فالطَّبيبُ ينظرُ في هذه العظامِ وكيفيَّةِ تركيبها ليعرفَ وجهَ العلاجِ في جَبرها، والعارفُ ينظرُ فيها ليَستدلَّ بها على عَظَمَةِ باريها وخالقها وحكمتهِ وعلمهِ ولُطفهِ، وكم بينَ النَّظَرين!

ثمَّ إنَّهُ سبحانهُ رَبَطَ تلكَ الأعضاءَ والأجزاءَ بالرِّباطاتِ، فشدَّ بها أسرَها، وجعلها كالأوتارِ تُمسِكُها وتحفظها حتى بَلَغَ عَددُها إلى خمسِ مئةٍ وتسعَةٍ وعشرينَ رباطاً، وهي مُختلفَةٌ في الغِلَظِ والدِّقَّةِ والطُّولِ والقِصَرِ والاستقامَةِ والانحناء بحسب اختلافِ مواضعها ومحالِّها، فجعَلَ منها أربَعَةً وعشرينَ رباطاً آلَةً لتحريكِ العَينِ وفتحها وضمِّها وإبصارها، لو نَقَصَتَ منها رباطاً واحداً اختلَّ أمرُ العَينِ، وهكذاً لكلِّ عضوٍ من الأعضاءِ رباطاتٌ

هنَّ لهُ كالآلاتِ التي بها يتحرَّكُ ويتصرَّفُ ويفعلُ كلَّ ذلكَ.

صنعُ الرَّبِّ الحكيم، وتَقديرُ العَزيزِ العليم في قَطرَةٍ من ماءٍ مَهينٍ، فويلٌ للمُكذِّبينَ وبُعداً للجاحدين.

ومن عجائبِ خَلقهِ أنَّهُ جَعَلَ في الرَّأسِ ثلاثَ خزائنَ نافذاً بعضُها إلى بعضٍ؛ خِزانَةً في مُقدَّمهِ، وخِزانَةً في وسطهِ، وخِزانَةً في آخرهِ، وأودعَ تلكَ الخزائِنَ من أسرارهِ ما أودعها من الذِّكرِ والفكرِ والتَّعقُّلِ.

[الدماغ]

هذا؛ ولو رأيتَ الدِّماغَ وكُشِفَ لكَ عن تركيبهِ وخَلْقهِ لرأيتَ العَجَبَ العُجابَ، ولَكُشِفَ لكَ عن تركيبٍ يَحارُ فيهِ العقلُ، قَد كُنَّ[1] بحُجُبٍ وأغشيَةٍ بعضُها فوقَ بَعضٍ لِتَصونَهُ عن الأعراضِ، وتَحفظَهُ عن الاضطرابِ.

ثمَّ أطبَقَت عليهِ الجُمجُمَةُ بمنزلَةِ الخوذَةِ وبيضَةِ[2] الحديدِ لِتَقيَه حدَّ الصَّدمَةِ والسَّقطَةِ والضَّربَةِ التي تَصلُ إليهِ، فتتلقَّاها تلكَ البَيضَةُ عنهُ، بمنزلَةِ الخَوْذَةِ التي على رأسِ المُحاربِ.

ثمَّ جُلِّلَت تلكَ الجُمجُمَةُ بالجلدِ الذي هو فَروةُ الرَّأسِ يسترُ العظمَ منَ البُروزِ للمُؤذياتِ.

ثمَّ كُسيَت تلكَ الفروَةُ حُلَّةً منَ الشعرِ الوافرِ وقايَةً لها وسَتْراً منَ الحرِّ والبَردِ والأذى، وجمالاً وزينَةً لهُ.

فمن الذي حَصَّنَ الدِّماغَ هذا التَّحصينَ وقدَّرهُ هذا التَّقديرَ،

---

(١) أي غطي وحجبَ وستر.

(٢) هي ما يضعه المحارب على رأسه كالخوذة.

وجعلَهُ خِزانَةً أودعَ فيها منَ المنافعِ والقوى والعجائبِ ما أودعَهُ؟ ثمَّ أحْكَمَ سدَّ تلكَ الخزانَةِ، وحصَّنها أتمَّ تَحصينٍ، وصانَها أعظَمَ صيانَةٍ، وجعَلها معدِنَ الحواسِّ والإدراكاتِ؟!

[القلب]

وأمَّا القَلبُ فهو الملكُ المُشتغِلُ لجميعِ آلاتِ البَدَنِ والمستخدِمُ لها، فهو محفوفٌ بها، محشودٌ، مخدومٌ، مستقِرٌّ في الوَسطِ، وهو أَشرَفُ أعضاءِ البَدَنِ، وبهِ قوامُ الحياةِ، وهو منبعُ الرُّوحِ الحيوانيِّ والحرَارةِ الغريزيَّة، وهو معدنُ العَقلِ والعلمِ والحلمِ والشجاعَةِ والكرم والصَّبرِ والاحتمالِ والحبِّ والإرادَةِ والرِّضا والغَضَبِ وسائرِ صفاتِ الكمالِ.

فجميعُ الأعضاءِ الظَّاهرَةِ والباطنَةِ وقواها إنَّما هي جُندٌ من أجنادِ القَلبِ.

فإنَّ العَينَ طليعتُهُ ورائدُهُ الذي يكشفُ له المرئيَّاتِ، فإنْ رأت شيئاً أدَّتهُ إليهِ، ولشدَّةِ الارتباطِ الذي بينها وبينه إذا استقرَّ فيهِ شيءٌ ظَهرَ فيها، فهي مِرآتُهُ المُترجِمَةُ للنَّاظرِ ما فيهِ، كما أنَّ اللسانَ تَرْجُمانُهُ المؤدِّي للسَّمعِ ما فيهِ.

ولهذا كثيراً ما يَقرنُ سبحانهُ في كتابهِ بينَ هذه الثَّلاثِ.

كقولهِ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقولِهِ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨].

وكذلكَ يقرنُ بينَ القلبِ والبَصرِ، كقولِه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقولهِ في حقِّ رسولهِ محمَّد ﷺ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١]، ثمَّ قالَ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

وكذلكَ الأُذنُ هي رسولُهُ المؤدِّي إليهِ.

وكذلكَ اللسانُ تَرْجُمانُهُ.

وبالجملَةِ؛ فسائرُ الأعضاءِ خَدَمُهُ وجنودُهُ، وقال النَّبيُّ ﷺ: (أَلَا إنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إذا صَلَحَت صلح لها سائرُ الجَسَدُ، وإذا فَسَدَت فَسَد لها سائرُ الجَسَدِ، أَلَا وهي القَلْبُ)(١).

وقال أبو هريرَة: القلبُ مَلكٌ والأعضاءُ جنودهُ، فإنْ طابَ الملكُ طابَت جنودهُ، وإذا خَبُثَ المَلِكُ خَبُثَت جنودهُ.

[هل المرجع القلب أم الدماغ؟]

وهذا بحثٌ مُتَّصلٌ بقاعدَةٍ، وهي: أنَّ الحواسَّ والعَقلَ هل مبدؤها القلبُ أو الدِّماغُ؟

فقالت طائفَةٌ: مَبْدؤها كلُّها القلبُ وهي مرتبطَةٌ بهِ، وبينهُ وبينَ الحواسِّ منافذُ وطرقٌ.

قالوا: وكلُّ واحدٍ من هذه الأعضاءِ التي هي آلاتُ الحواس لهُ اتِّصالٌ بالقَلبِ بأعصابٍ وغيرِ ذلكَ، وهذه الأعصابُ تخرجُ من القَلبِ إلى أن تأتي إلى كلِّ واحدٍ من هذه الأجسام التي فيها هذه الحواسُّ.

قالوا: فالعَينُ إذا أبصَرَت شيئاً أَدَّتهُ بالآلَةِ التي فيها إلى القَلبِ؛ لأنَّ هذه الآلَةَ مُتَّصلَةٌ منها إلى القلبِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩).

والسَّمعُ إذا أحسَّ صوتاً أدَّاه إلى القلبِ وكذلكَ كلُّ حاسَّةٍ.

ثمَّ أوردوا على أنفسهم سُؤالاً، فقالوا: إنْ قيلَ: كيفَ يجوزُ أن يكونَ عضوٌ واحدٌ على ضروبٍ من الامتزاجِ يمدُّ عدَّةَ حواسَ مُختلفَةٍ، وأَجسامُ هذه الحواسِّ مختلفةٌ وقوَّةُ كلِّ حاسَّةٍ مُخالفَةٌ لقوَّةِ الحاسَّةِ الأخرى؟

وأجابوا عن ذلكَ: بأنَّ جميعَ العروقِ التي في البَدنِ كلِّها متَّصلَةٌ بالقَلبِ إمَّا بأنفسِها وإمَّا بواسطةٍ، فما من عِرْقٍ ولا عضوٍ إلّا ولهُ اتِّصالٌ بالقَلبِ اتِّصالاً قريباً أو بَعيداً.

قالوا: ويَنبعثُ منهُ في تلكَ العروقِ والمجاري إلى كلِّ عضوٍ ما يُناسِبُهُ ويُشاكِلُهُ، فينبعثُ منهُ إلى العينين ما يكونُ منهُ حاسَّةَ البَصَرِ، وإلى الأُذنين ما يُدْرِكُ به المسموعات، وإلى اللحم ما يكون بهِ حِسُّ اللمسِ، وإلى الأنف ما يكون به حسّ الشمِّ، وإلى اللسانِ ما يكونُ بهِ حِسُّ الذوقِ، وإلى كلِّ ذي قوَّةٍ ما يَمُدُّ قوَّتهُ ويحفظها، فهو المُمِدُّ لهذه الأعضاءِ والحواسِّ والقوى.

ولهذا كانَ الرَّأيُ الصَّحيحُ أنَّهُ أوَّلُ الأعضاء تكويناً، قالوا: ولا ريبَ أنَّ مبدأَ القوَّةِ العاقلةِ منهُ.

وإنْ كانَ قَد خالَفَ في ذلكَ آخَرونَ، وقالوا: بل العقلُ في الرَّأس.

فالصَّوابُ أنَّ مبدأه ومنشأهُ منَ القلب، وفُروعَه وثمرتَه في الرَّأسِ، والقرآنُ قد دلَّ على هذا بقولِهِ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، ولم يُرِدْ بالقَلبِ هنا مُضغةَ اللحمِ المُشْتَرَكَةَ بينَ الحيواناتِ، بل المُرادُ ما فيهِ من العقلِ واللُّبِّ.

ونازَعَهم في ذلكَ طائفةٌ أخرى، وقالوا: مبدأُ هذه الحواسِّ إنَّما هو الدِّماغُ، وأنكروا أنْ يكونَ بينَ القَلْبِ والعَينِ والأُذُنِ والأنفِ أعصابٌ أو عُروقٌ، وقالوا: هذا كذبٌ على الخِلْقَةِ.

والصَّوابِ التَّوسُّطُ بين الفريقينِ، وهو أنَّ القلبَ ينبعثُ منهُ قوَّةٌ إلى هذه الحواسِّ وهي قُوَّةٌ معنويَّةٌ لا تحتاجُ في وُصولِها إليها إلى مَجَارٍ مخصوصَةٍ وأعصابٍ تكونُ حامِلَةً لها، فإنَّ وُصولَ القوى إلى هذه الحواسِّ والأعضاءِ لا تتوقَّفُ إلَّا على قَبُولها واستعدادها وإمدادِ القَلبِ، لا على مَجَارٍ وأعصابٍ.

وبهذا يزولُ الالتباسُ في هذا المقامِ الذي طالَ فيهِ الكلامُ، وكَثُر فيهِ النِّزاعُ والخصامُ.

واللَّهُ أعلمُ، وبهِ التَّوفيقُ للصَّوابِ.

والمقصودُ؛ التَّنبيهُ على أقلِّ القليلِ من وجوهِ الحكمَةِ التي في خَلْقِ الإنسانِ، والأمرُ أضعافُ ما يخطرُ بالبالِ، أو يجري فيهِ المقالُ، وإنَّما فائدَةُ ذكرِ هذه الشَّذْرَةِ ـ التي هي كَلَا شيءٍ بالنِّسبَةِ إلى ما وراءَها ـ التَّنبيهُ.

[المعدة وجهاز الهضم]

وإذا نَظَرَ العَبدُ إلى غذائهِ فَقَط في مدخَلهِ ومُستقرِّهِ ومخرجِهِ رأى فيه العِبَرَ والعجائبَ؛ كيفَ جُعِلَت لهُ آلَةٌ يتناولُهُ بها، ثمَّ بابٌ يدخُلُ منه، ثمَّ آلَةٌ تُقطِّعُهُ صغاراً، ثمَّ طاحونٌ يطحنهُ، ثمَّ أُعِينَ بماءٍ يعجنهُ، ثمَّ جُعِلَ له مجرى وطريقٌ إلى جانبِ النَّفَسِ، ينزلُ هذا ويصعَدُ هذا، فلا يلتقيان مع غايَةِ القُربِ، ثمَّ جَعَلَ لهُ حوايا وطُرُقاً تُوصِلُهِ إلى المعدَة فهي خِزانتُهُ وموضعُ اجتماعهِ،

ولها بابانِ: بابٌ أعلى يدخُلُ منهُ الطَّعامُ، وبابٌ أسفَلُ يخرجُ منهُ ثُفْلُهُ[1].

والبابُ الأعلى أوسَعُ من الأسفَلِ إذ الأعلى مدخلٌ للحاصلِ، والأسفَلُ مصرفٌ للضَّارِّ منهُ، والأسفَلُ مُنطبِقٌ دائماً ليستقرَّ الطَّعامُ في موضعهِ، فإذا انتَهى الهَضمُ فإنَّ ذلكَ البابَ ينفتحُ إلى انقضائهِ مِن الدَّفعِ ويُسمَّى البَّوابَ لذلكَ، والأعلى يُسمَّى فمَ المعدَة، والطَّعامُ ينزلُ إلى المعدَةِ مُنْكبساً فإذا استقرَّ فيها انْماعَ وذابَ.

ويحيطُ بالمعدَةِ من داخلها وخارجها حرارةٌ ناريَّةٌ، بل ربَّما تَزيدُ على حرارَةِ النَّارِ، وينضجُ بها الطَّعامُ فيها كما ينضجُ الطَعامُ في القِدْرِ بالنَّارِ المحيطَةِ بهِ، ولذلكَ تُذيبُ ما هو مُستحجِرٌ كالحصى وغيرهِ، حتى تتركَه مائعاً، فإذا أذابَتْهُ علا صَفْوُهُ إلى فوقَ، ورَسَا كدره إلى أسفَلَ.

ومن المعدَةِ عروقٌ متَّصلَةٌ بسائرِ البَدنِ يُبعَثُ فيها معلومُ كلِّ عضوٍ وقوامُهُ بحسبِ استعدادهِ وقَبولهِ، فَيُبعَثُ أشرفُ ما في ذلكَ وألطفُهُ وأخفُّهُ إلى الأرواحِ؛ فيبعثُ إلى البَصَرِ بَصَراً وإلى السَّمعِ سمعاً وإلى الشمِّ شمًّا، وإلى كلِّ حاسَّةٍ بحسبها، فهذا ألطفُ ما يتولَّدُ عن الغذاء، ثمَّ ينبعثُ منهُ إلى الدِّماغِ ما يناسبهُ في اللَّطافَةِ والاعتدالِ، ثمَّ ينبعثُ من الباقي إلى الأعضاء في تلكَ المجاري بحسبها، وينبعثُ منهُ إلى العظام والشعر والأظافرِ ما يُغذِّيها ويحفظُها فيكونُ الغذاءُ داخلاً إلَى المعدَةِ من طرقٍ ومَجارٍ، وخارجاً منها إلى الأعضاء من طرقٍ ومجارٍ؛ هذا واردٌ إليها وهذا صادرٌ عنها، حكمَةٌ بالغَةٌ ونعمَةٌ سابِغَةٌ.

---

(١) الثفل: كدر الشيء الذي يستقر في أسفله.

ولمَّا كانَ الغذاءُ إذا استحالَ في المعدة استحال دماً ومِرَّةً سوداءَ ومِرَّةً صَفراءَ وبلغماً، اقتَضَتْ حِكمتُهُ ﷻ أنْ جَعَلَ لكلِّ واحدٍ من هذه الأخلاطِ مَصْرِفاً ينصبُّ إليهِ ويجتمعُ فيهِ ولا ينبعثُ إلى الأعضاءِ الشريفَةِ إلّا أكملُهُ، فوضعَ المرارَةَ مصبًّا للمِرَّةِ الصَّفراء، ووضَعَ الطَّحالَ مقرًّا للمِرَّةِ السَّوداءِ، والكبدُ تمتصُّ أشرَفَ ما في ذلكَ ـ وهو الدَّمُ ـ ثمَّ تبعثهُ إلى جميعِ البَدنِ من عِرْقٍ واحدٍ ينقسمُ على مجارٍ كثيرَةٍ يُوصِلُ إلى كلِّ واحدٍ من الشعورِ والأعصابِ والعظامِ والعروقِ ما يكونُ به قِوامُهُ

[فصل جهاز التنفس عن جهاز الهضم]

وجَعَلَ في الحَلْقِ مَنْفَذَينِ:

أحدَهما: للصَّوتِ، وللنَّفَس الواصلِ إلى الرِّئَةِ.

والآخَرَ: للطَّعامِ والشرابِ وهو المريءُ الواصلُ إلى المَعدَةِ.

وجَعَلَ بينهما حاجزاً يمنعُ عُبورَ أحدهما في طريقِ الآخَرِ، فلو وَصَلَ الطَّعامُ مِن منفذِ النَّفسِ إلى الرِّئةِ لأهلَكَ الحيوانَ؟

وجعَلَ الرِّئَةَ مروحَةً للقَلبِ تُروِّحُ عليهِ لا تَنِي ولا تفتُرُ، لكيلا تَنحصرَ الحرارَةُ فيهِ فيهلكَ؟



الفصل السادس

تأملات في وظائف بعض الأعضاء

فارْجِعِ الآنَ إلى نَفسِكَ، وكرِّرِ النَّظَرَ فيكَ، فهو يَكفيكَ.

وتأمَّلْ أعضاءَكَ وتَقديرَ كلِّ عضوٍ منها للأرَبِ والمَنفعةِ المُهيَّأِ لها:

فاليَدانِ للعلاجِ والبَطشِ والأخذِ والإعطاءِ والمُحارَبَةِ والدَّفعِ.

والرِّجْلانِ لحملِ البَدنِ والسَّعيِ والرُّكوبِ وانتصابِ القامَةِ.

والعينانِ للاهتداءِ والجمالِ والزِّينَةِ والملاحَةِ ورُؤيَةِ ما في السّماواتِ والأرضِ وآياتِهما وعجائبهما.

والفمُ للغذاءِ والكلامِ والجمالِ وغيرِ ذلكَ.

والأنفُ للنَّفَس وإخراجِ فَضَلاتِ الدِّماغِ وزينَة للوجهِ.

واللسانُ للبيانِ والتَّرجمَةِ عنكَ.

والأُذُنانِ صاحبتا الأخبارِ تُؤدِّيانها إليكَ.

واللسانُ يُبلِّغُ عنكَ.

والمَعِدَةُ خِزانَةٌ يَستقرُّ فيها الغذاءُ فتُنْضِجُهُ وتَطبخُهُ، وتُصْلِحُهُ إصلاحاً آخَرَ وطبخاً آخَرَ غيرَ الإصلاحِ والطَّبخِ الذي تولَّيتَه من خارجٍ.

وجُعِلَ الكبدُ للتَّخليصِ وأخذِ صَفْوِ الغذاءِ وألطفهِ.

ثمَّ رتَّبَ منها مجاريَ وطُرُقاً يسوقُ بها الغِذاءَ إلى كلِّ عضوٍ وعَظْمٍ وعَصَبٍ ولحمٍ وشعرٍ وظُفُرٍ.

وجَعَل المنافِذَ والأبوابَ لإدخالِ ما ينفعُكَ وإخراجِ ما يضرُّكَ.

فَمَن ذا الذي تولّى ذلك كلَّهُ وأحْكَمَهُ ودبَّرَهُ وقدَّرهُ فأحسَنَ تَقديرَه؟

مَن جَعَلَ الدَّمَ السَّيَّالَ محبوساً محصوراً في العُروقِ بمنزلَةِ الماءِ في الوعاءِ لِيَنْضَبِطَ فلا يجري؟

مَن جَعَلَ داخِلَ الأُذُنِ مُستوِياً كهيئةِ الكوكبِ؛ لِيَطَّرِدَ فيهِ الصَّوتُ حتى ينتهيَ إلى السَّمْعِ الدَّاخلِ وقَد انكسَرَت حِدَّةُ الهواءِ فلا ينكؤهُ، وليتعذَّرَ على الهَوَامِّ النُّفوذُ إليهِ قبلَ أن يُمسكَ، وليمسكَ ما عساهُ أن يَغشاها منَ القذى والوَسَخِ، ولغيرِ ذلكَ منَ الحِكَمِ؟

مَن جَعَلَ على الفَخِذَينِ والوَرِكينِ منَ اللحم أكثرَ ممَّا على سائرِ الأعضاءِ لِيَقيَها منَ الأرضِ فلا تألَمُ عظامُها من كثرَةِ الجلوسِ كما يألَمُ من قَد نَحَلَ جِسْمُهُ وقلَّ لَحمُهُ من طولِ الجلوسِ، حيثُ لم يَحُلْ بينهُ وبينَ الأرضِ حائلٌ؟

مَن جَعَلَ بابَ الخلاءِ في الإنسانِ في أستَرِ موضع منه، كما أنَّ البنَّاءَ الحكيمَ يجعَلُ موضعَ التخلِّي في أستَرِ موضعٍ في الدَّارِ، وهكذا منفذُ الخلاءِ في الإنسانِ في أستَرِ موضعٍ، ليسَ بارزاً من خَلفهِ ولا ناشزاً بينَ يَديهِ، بل مُغيَّبٌ غامضٌ منَ البَدنِ يلتقي عليهِ الفَخِذانِ بما عليهما منَ اللحمِ مُتوارياً، فإذا جاءَ وقتُ الحاجَةِ وجَلَسَ الإنسانُ لها بَرَزَ ذلكَ المَخرجُ للأرضِ؟!

ومَن سَلَبَ الإحساسَ الحيوانيَّ الشعورَ والأَظْفارَ التي في الآدميّ؛ لأنها قَد تَطولُ وتَمتدُّ وتَدعو الحاجَةُ إلى أخْذِها وتَخفيفها، فلو أعطاها الحِسَّ لآلَمَتْهُ وشقَّ عليهِ أخذُ ما شاءَ منها، فلو كانَت تُحِسُّ لوقَعَ الإنسانُ منها في إحدى البليّتَيْنِ:

إمَّا تَركُها حتى تَطولَ وتَفحُشَ وتَثقُلَ عليهِ!

وإمَّا مُقاساةُ الألَمِ والوَجعِ عندَ أخذها!

مَن جَعَلَ باطنَ الكف غيرَ قابلٍ لإنْباتِ الشعرِ؛ لأنَّهُ لو أشْعَرَ لتعذَّرَ على الإنسانِ صحَّةُ اللمسِ، ولشقَّ عليهِ كثيرٌ منَ الأعمال التي تُباشَرُ بالكفّ.

ولهذه الحكمَةِ سُلِبَ عن الشفتينِ، وكذا باطنِ الفَمِ، وكذا أيضاً عن القدمِ أخمصِها وظاهرِها؛ لأنَّها تُلاقي التُّرابَ والوَسَخَ والطّينَ والشوكَ، فلو كانَ هناكَ شعرٌ لآذى الإنسانَ جدًّا، وحملَ منَ الأرضِ كلَّ وقتٍ ما يُثقِلُ الإنسانَ.

وليسَ هذا للإنسانِ وحدَهُ، بل تَرى البهائمَ قَد جلَّلها الشعرُ كلَّها، وأُخْلِيَت هذه المواضعُ منهُ لهذه الحكمَةِ.

أَفَلا تَرى الصَّنعَةَ الإلهيَّةَ كيفَ سَلَبَت[1] وجوهَ الخطأ والمضرَّةِ، وجاءَت بكلِّ صوابٍ وكلِّ مَنفعَةٍ وكلِّ مَصلَحَةٍ؟!



---

(١) أي منعت.

الفصل السابع

تأملات في بعض ما فطر عليه الإنسان

[الحفظ والنسيان]

تأمَّلْ حِكمَةَ اللَّهِ ﷻ في الحِفْظِ والنِّسيانِ الذي خَصَّ بهِ نوعَ الإنسانِ وما لَهُ فيهما منَ الحِكَمِ، وما للعَبدِ فيهما منَ المصالحِ؛ فإنَّهُ لولا القوَّةُ الحافظَةُ التي خُصَّ بها لدَخَلَ عليهِ الخَلَلُ في أُمورهِ كلِّها ولم يَعرف ما لَهُ وما عليهِ، ولا ما أخذَ ولا ما أعطى، ولا ما سمعَ ورأى، ولا ما قالَ ولا ما قيلَ لهُ، ولا ذَكَرَ مَن أحسَنَ إليهِ ولا مَن أساءَ إليهِ، ولا مَن عامَلَهُ ولا مَن نَفَعهُ فيقرُبُ منهُ، ولا مَن ضرَّهُ فيَنأى عنهُ، ثمَّ كانَ لا يَهتَدي إلى الطَّريقِ الذي سَلَكَهُ أوَّلَ مرَّة ولو سلكَهُ مراراً، ولا يَعرفُ علماً ولو دَرَسَهُ عُمُرَهُ، ولا ينتفعُ بتجربَةٍ، ولا يَستطيعُ أن يعتبرَ شيئاً على ما مَضى، بل كانَ خليقاً أَنْ ينسلخَ منَ الإنسانيَّةِ أصلاً.

فتأمَّلْ عظيمَ المنفعَةِ عليكَ في هذه الخِلالِ، وموقعَ الواحدَةِ منها فَضلاً عن جميعهنَّ.

ومِنْ أعجَبِ النِّعَم عليهِ نِعْمَةُ النِّسيانِ؛ فإنَّهُ لولا النِّسيانُ لَمَا سلا شيئاً، ولا انقَضَت لهُ حَسرَةٌ، ولا تعزَّى عن مُصيبَةٍ، ولا ماتَ لهُ حُزْنٌ، ولا بَطَلَ لهُ حقدٌ، ولا استمتَعَ بشيءٍ من متاعِ الدُّنيا مع تذكُّرِ الآفاتِ، ولا رجا غَفلَةً مِن عَدوٍّ ولا نِعْمَةً من حاسدٍ. . .

فتأمَّلْ نِعمَةَ اللَّهِ في الحفظِ والنِّسيانِ مع اختلافهما وتضادِّهما، وجَعْلَهُ في كلٍّ واحدٍ منهما ضَرباً مِنَ المصلَحَةِ.

[خلق الحياء]

تأمَّلْ هذا الخُلُقَ الذي خُصَّ به الإنسانُ دونَ جميعِ الحيوانِ، وهو خُلُقُ الحياءِ الذي هو من أفضَلِ الأخْلاقِ وأجلِّها، وأعظمِها قَدْراً، وأكثرِها نَفعاً، بل هو خاصَّةُ الإنسانيَّةِ، فمَن لا حياءَ فيهِ ليسَ معهُ منَ الإنسانيَّةِ إلَّا اللحمُ والدَّمُ وصورتُهما الظَّاهرَةُ، كما أنَّهُ ليسَ معهُ من الخَيرِ شيءٌ.

ولولا هذا الخُلقُ لم يُقْرَ الضَّيفُ، ولم يُوفَ بالوَعدِ، ولم تُؤَدَّ أمانَةٌ، ولم يُقْضَ لأحَدٍ حاجَةٌ، ولا تَحرَّى الرَّجلُ الجميلَ فآثَرَهُ والقبيحَ فتجنَّبهُ، ولا سَتَرَ لهُ عَورَةً، ولا امتنَعَ من فاحشَةٍ.

وكثيرٌ من النَّاسِ لولا الحياءُ الذي فيه لم يُؤدِّ شيئاً من الأمورِ المُفتَرَضَةِ عليه، ولم يَرْعَ لمخلوقٍ حقاً ولم يَصِلْ لهُ رَحِماً، ولا برَّ لهُ والداً.

فإنَّ الباعثَ على هذه الأفعالِ.

إمَّا دينيٌّ ـ وهو رجاءُ عاقبتِها الحميدَةِ ـ.

وإمَّا دُنيويٌّ علويٌّ ـ وهو حياءُ فاعلها من الخَلْقِ ـ.

قَد تبيَّنَ أنَّهُ لولا الحياءُ إمَّا من الخالِقِ أو من الخلائقِ لم يَفعلْها صاحبُها.

وفي التِّرمذي[1] وغيرِهِ مرفوعاً: (استَحيوا منَ اللَّهِ حقَّ الحياءِ) قالوا: وما حقُّ الحياءِ؟ قال: (أنْ تَحفَظَ الرَّأسَ وما حَوى، والبَطنَ وما وَعى، وتَذْكُر المقابرَ والبِلَى).

---

(١) برقم (٢٤٥٨).

وقال ﷺ: (إذا لم تَستَحِ فاصْنَعْ ما شِئتَ)[1].

[نعمة البيان]

تأمَّلْ نِعمَةَ اللَّهِ على الإنسانِ بالبيانَينِ: البيانِ النُّطْقِيِّ، والبيانِ الخَطِّيِّ.

وقَد اعتدَّ بهما سبحانهُ في جُملَةِ ما اعتدَّ به من نعمَهِ على العَبدِ، فقال تعالى في أوَّلِ سورَةٍ أنزلَت على رسولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فتأمَّلْ كيفَ جمعَ في هذه الكلماتِ مراتبَ الخَلْقِ كلِّها، وكيفَ تَضمَّنَتْ مراتبَ الموجوداتِ الأربعَةَ بأوجَزِ لَفظٍ وأوضحهِ وأحسنهِ.

فذكرَ أوَّلاً عمومَ الخَلقِ وهو إعْطاءُ الوُجودِ الخارجيِّ.

ثمَّ ذكرَ ثانياً خُصوصَ خَلْقِ الإنسانِ لأنَّهُ موضع العبَرةِ، والآيةُ فيهِ عظيمَةٌ، ومن شهودهِ عمَّا فيه مَحْضُ تَعدُّدِ النِّعَمِ.

وذَكَرَ مادَّةَ خَلْقهِ ها هُنا منَ العَلَقَةِ، وفي سائرِ المواضعِ يذكرُ ما هوَ سابقٌ عليها، إمَّا مادَّةَ الأصلِ وهو التُّرابُ، أو الطِّين، أو الصَّلْصالُ، كالفَخَّار، أو مادَّةَ الفرع وهو الماءُ

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٤٨٣).

قال ابن القيم رحمه الله:

وعندي أنَّ هذا الكلامَ صُورَتُهُ صورَةُ الطَّلَبِ، ومعناهُ معنى الخبرِ، وهو في قُوَّةِ قولِهم: مَن لا يَستحي صَنَعَ ما يَشتهي! فليسَ بإذْنٍ ولا هو مُجَرَّدَ تَهديدٍ، وإنَّما هو في معنى الخَبَرِ، والمعنى: أنَّ الرادِعَ عن القبيحِ إنَّما هو الحياءُ، فَمَن لم يَستحِ فإنَّهُ يَصنعُ ما شاءَ.

المهينُ، وذكَرَ في هذا الموضع أوّلَ مَبادئِ تعلُّقِ التَّخليق بهِ وهو العَلَقَة؛ فإنَّهُ كانَ قبلها نُطفَةً، فأوّلُ انتقالها إنَّما هو إلى العَلَقَةِ.

ثمَّ ذكرَ ثالثاً التَّعليمَ بالقَلَم الذي هو من أعظَم نعَمهِ على عبادهِ، إذ بهِ تُخَلَّدُ العلومُ، وتُثَبَّتُ الحُقوقُ، وتُعْلَمُ الوصايا، وتُحفَظُ الشهاداتُ، ويضبَطُ حسابُ المُعاملاتِ الواقعَةِ بينَ النَّاسِ، وبهِ تُقيَّدُ أخبارُ الماضينَ للباقينَ اللاحقينَ.

ولولا الكتابَةُ لانقَطَعَتْ أخبارُ بعَضِ الأزمنَةِ عن بعَض، ودَرَسَت السُّنَنُ، وتخبَّطَت الأحكامُ، ولم يَعرفِ الخَلَفُ مذاهبَ السَّلفِ، وكانَ يعظُمُ الخَللِ الدَّاخلُ على النَّاسِ في دينهم ودنياهم لِمَا يَعْتَريهم منَ النِّسيانِ الذي يَمحو صُوَرَ العلم من قلوبهم، فجعَلَ لهم الكتابَ وعاءً حافظاً للعلم منَ الضَّياعِ كالأوعيَةِ التي تحفَظُ الأمتعَةَ منَ الذَّهابِ والبُطلانِ.

فنعمَةُ اللهِ ﷻ بتعليم القَلَم بعدَ القرآنِ من أجلِّ النِّعَم، والتَّعليمُ به ـ وإنْ كانَ ممَّا يَتَخَلَّصُ إليهِ الإنسانُ بالفِطْنَةِ والحيلَةِ ـ فإنَّ الذي بَلَغَ به ذلكَ وأوصلَهُ إليهِ عطيَّةٌ وهبها اللَّهُ منهُ، وفَضلٌ أعطاهُ اللَّهُ إيَّاهُ، وزيادَةٌ في خَلقهِ وفَضلهِ، فهو الذي علَّمهُ الكتابَةَ، وإنْ كانَ هو المُتعلِّمَ فَفِعلهُ فعلُ مُطاوعٍ لتعليمِ الذي علَّمَ بالقَلمِ، فإنَّه علَّمهُ فتعلَّمَ، كما أنَّهُ علَّمهُ الكلامَ فتكلَّمَ.

هذا ومَن أعطاهُ الذِّهْنَ الذي يعي به؟ واللسانَ الذي يُتَرجِمُ به؟ والبنانَ الذي يَخُطُّ بهِ؟

ومَن هيَّأ ذِهْنَهُ لِقَبُولِ هذا التَّعليم دونَ سائرِ الحيواناتِ؟ ومن الذي أنطَقَ لِسانَهُ، وحرَّكَ بنانهُ؟ ومنِ الذي دَعَمَ البنانَ بالكفِّ، ودعَمَ الكفَّ بالسَّاعدِ؟

فكم للَّهِ من آيَةٍ نحنُ غافلونَ عنها في التَّعليمِ بالقَلمِ!

فَقِف وَقْفَةً في حالِ الكتابَةِ، وتأمَّلْ حالَكَ وقَد أمسَكتَ القَلَمَ وهو جمادٌ ووَضَعْتَهُ على القِرْطاسِ وهو جمادٌ فيتولَّدُ من بينهما أنواعُ الحِكَمِ، وأصنافُ العلومِ، وفنونُ المراسلاتِ والخُطَبِ، والنَّظمِ والنَّثرِ، وجواباتِ المسائلِ؛ فمَن الذي أجرى فَلَكَ المعاني على قَلبِكَ؟ ورَسَمها في ذهنكَ؟ ثمَّ أجرى العباراتِ الدَّالَّةِ عليها على لسانِكَ، ثمَّ حرَّكَ بها بنانَكَ حتى صارَت نَقشاً عجيباً، معناهُ أعجبُ من صورتهِ، فَتَقضي بهِ مآربَكَ، وتبلُغ به حاجةً في صَدركَ، وتُرسِلُه إلى الأقطارِ النَّائيَةِ والجهاتِ المُتباعدَةِ، فيقومُ مقامَكَ، ويُترجمُ عنكَ، ويتكلَّمُ على لسانكَ، ويقومُ مقامَ رسولك، ويُجدي عليكَ ما لا يُجدي مَن تُرسِلُهُ سوى من علَّمَ بالقَلمِ، علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلم.

والتَّعليمُ بالقَلَمِ يستلزمُ المراتبَ الثَّلاثَةِ:

مرتبَةَ الوجودِ الذِّهْنيِّ.

والوجودِ اللفظيِّ.

والوجودِ الرَّسميِّ:

فَقَد دلَّ التَّعليمُ بالقَلَمِ على أنَّهُ سبحانهُ هو المُعْطي لهذه المراتبِ.

ودلَّ قولهُ: ﴿خَلَقَ﴾ على أنَّهُ يعطي الوُجودَ العَيني، فدلَّت هذه الآياتُ ـ مع اختصارها ووَجازَتها وفَصاحتها ـ على أنَّ مراتبَ الوجودِ بأسْرِها مُسنَدَةٌ إليهِ تعالى خَلقاً وتَعليماً.

وَذَكَرَ خَلْقين وتعليمين، خَلْقاً عامًّاً وخَلقاً خاصًّا، وتَعليماً عامًّا.

وذكرَ من صفاتهِ ها هُنا اسمَ ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ الذي فيه كلُّ خَيرٍ وكلُّ كمالٍ؛ فله كُلُّ كمالٍ وَصْفاً، ومنهُ كلُّ خَيرٍ فعلاً، فهو

الأكرمُ في ذاتهِ وأوصافهِ وأفعالهِ، وهذا الخَلْقُ والتَّعليمُ إنَّما نَشأَ من كَرَمِهِ وبرِّهِ وإحسانهِ، لا من حاجَةٍ دَعَتهُ إلى ذلكَ، وهو الغنيُّ الحميدُ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، دلَّت هذه الكلماتُ على إعطائهِ سبحانهُ مراتبَ الوجودِ بأسْرِها، فقولهُ: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إخبارٌ عن الإيجادِ الخارجيّ العَينيّ، وخَصَّ الإنسانَ بالخَلْقِ لِمَا تَقدَّم.

وقولُهُ: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ إخبارٌ عن إعطاءِ الوجودِ العلميِّ الذِّهنيِّ؛ فإنَّما تَعلَّمَ الإنسانُ القرآنَ بتعليمهِ، كما أنَّهُ إنَّما صارَ إنساناً بخلقهِ، فهو الذي خَلَقَهُ وعلَّمهُ.

ثمَّ قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ والبيانُ هنا يتناوَلُ مراتبَ ثلاثَةٍ كلٌّ منها يُسمَّى بياناً:

أحدُها: البيانُ الذِّهنيُّ الذي يُميّزُ فيه بينَ المعلوماتِ.

الثَّاني: البيانُ اللفظيُّ الذي يُعبِّرُ به عن تلكَ المعلوماتِ ويُترجمُ عنها فيها غيرَه.

الثَّالث: البيانُ الرَّسميُّ الخطِّيُّ الذي يَرْسُمُ به تلكَ الألفاظَ فيتبيَّنُ للنَّاظِرِ معانيها كما يَبِينُ للسَّامعِ معاني الألفاظِ.

فهذا بيانٌ للعَين.

وذاكَ بيانٌ للسَّمعِ.

والأوَّلُ بيانٌ للَقلبِ.

وكثيراً ما يجمعُ سبحانهُ بينَ هذه الثَّلاثَةِ.

كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ويذمُّ مَنْ عَدِمَ الانتفاعَ بها في اكتسابِ الهُدى والعلمِ النَّافعِ، كقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨].

وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ﴾ [البقرة: ٧].

[طول الأمل]

ومن حكمتِهِ سبحانهُ ما مَنَعهُم منَ العلمِ؛ علمِ السَّاعَةِ ومعرفَةِ آجالِهم، وفي ذلكَ منَ الحكمَةِ البالغَةِ ما لا يَحتاجُ إلى نَظرٍ.

فلو عَرَفَ الإنسانُ مِقدارَ عمرِهِ؛ فإن كان قَصيرَ العمرِ لم يَتَهنَّأ بالعَيشِ، وكيفَ يتهنَّأُ به وهو يترقَّبُ الموتَ في ذلكَ الوَقتِ؟ فلولا طولُ الأملِ لخربَت الدُّنيا، وإنَّما عمارتُها بالآمالِ، وإنْ كانَ طويلَ العمرِ ـ وقَد تَحقَّقَ ذلكَ ـ فهو واثقٌ بالبَقاءِ فلا يُبالي بالانهماكِ في الشهواتِ والمعاصي وأنواعِ الفَسادِ، ويقولُ: إذا قَرُبَ الوَقتُ أحدَثْتُ تَوبَةً!

وهذا مذهَبٌ لا يَرتضيهُ اللَّهُ تعالى ﷻ من عبادِهِ، ولا يقبلهُ منهم، ولا تَصحُّ عليهِ أحوالُ العالمِ، ولا يَصلُحُ العالَمُ إلّا على هذا الذي اقتَضَتْهُ حكمتُهُ وسَبَقَ في علمِهِ.

فلو أنَّ عَبداً من عبيدِكَ عملَ على أن يُسخِطَكَ أعواماً ثمَّ يُرضيَكَ ساعَةً واحدَةً إذا تَيَقَّنَ أنَّهُ صائرٌ إليكَ لم تقبل منهُ، ولم يَفُزْ لديكَ بما يفوزُ به مَنْ همُّهُ رضاكَ.

وكذا سُنةُ اللَّهِ ﷻ أنَّ العَبدَ إذا عايَنَ الانتقالَ إلى اللَّهِ تعالى لم يَنفعهُ توبةٌ ولا إقلاعٌ.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾ [النساء: ١٨].

وقـولـه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

❀ ❀ ❀

الفصل الثامن

من الحكم البالغة في خلق الإنسان

[الحكمة والإعجاز في نماء الإنسان]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمَةَ البالغَةَ في تنميتِكَ وكثرَةِ أجزائكَ من غيرِ تَفكيكٍ ولا تَفصيلٍ، ولو أنَّ صائغاً أخَذَ تمثالاً من ذَهَبٍ أو فضَّةٍ أو نُحاسٍ فأرادَ أن يَجعَلَهُ أكبَرَ ممَّا هو، هَل كان يمكنهُ ذلكَ إلّا بَعدَ أن يَكْسِرَهُ ويصوغَهُ صياغَةً أُخرى؟! والربُّ تعالى يُنمِّي جسمَ الطِّفلِ وأعضاءَهُ الظَّاهرَةَ والباطنَةَ وجميعَ أجزائهِ وهو باقٍ ثابتٌ على شكلهِ وهيئتهِ لا يتزايَلُ ولا ينفكُّ ولا يَنقُصُ.

وأعجبُ من هذا كلِّهِ تَصويرُهُ في الرَّحِم حيثُ لا تراهُ العيونُ، ولا تَلمسُهُ الأيدي، ولا تَصِلُ إليهِ الآلاتُ؛ فَيَخْرُجُ بَشَراً سويًّا مُستوفياً لكلِّ ما فيهِ مصلحتُهُ وَقِوامُهُ مِن عُضوٍ وحاسَّةٍ وآلَةٍ مِنَ الأحشاءِ والجوارحِ والحواملِ والأعصابِ والرِّباطاتِ والأغشيَةِ والعظام المُختلفَةِ الشكلِ والقَدرِ والمَنفعَةِ والموضعِ، إلى غيرِ ذلكَ من اللحم والشحم والمُخِّ وما في ذلكَ من دَقيقِ التَّركيبِ ولَطيفِ الخِلقَةِ وخَفِيِّ الحكمَةِ وبَديعِ الصَّنعَة، كلُّ هذا صُنعُ اللَّهِ أحسَنِ الخالقين في قَطرَةٍ من ماءٍ مَهينٍ.

[الحكمة والتكريم في الهيئة]

فانظُر إلى بَعضِ ما خصَّكَ به وفضَّلَكَ بهِ على البهائم

المُهْمَلَةِ، إذ خَلَقَكَ على هَيئَةٍ تَنتَصِبُ قائماً، وتَستَوي جالساً، وتَستقبلُ الأشياءَ ببَدنكَ، وتُقبلُ عليها بجُملتكَ فيُمْكِنُكَ العلمُ والصَّلاحُ والتَّدبيرُ، ولو كُنتَ كذواتِ الأربعِ المَكبوبَةِ على وجهِها لم يَظهَرْ لكَ فَضيلَةُ تَميُّزٍ واختصاصٍ، ولم يتهيَّأْ منكَ ما تهيَّأَ من هذه النِّسبَةِ.

[حكمة الانفراد والتعدد في الأعضاء]

ثمَّ تأمَّلْ حِكمَتَهُ في الأعضاءِ التي خُلِقَت فيكَ آحاداً ومَثنى وثلاثَ ورُباعَ، وما في ذلكَ من الحِكَمِ البالغَةِ.

فالرَّأسُ واللسانُ والأنفُ والذَّكَرُ خُلقَ كُلٌّ مِنها واحداً فَقَط، ولا مَصلَحَةَ في كونهِ أكثَرَ من ذلكَ، أَلَا تَرى أنَّهُ لو أُضيفَ إلى الرَّأسِ رأسٌ آخَرُ لأثقَلَا بَدَنَهُ من غيرِ حاجَةٍ إليهِ، لأنَّ جميعَ الحواسِّ التي يُحتاجُ إليها مُجتمعَةٌ في رأسٍ واحدٍ، ثمَّ إنَّ الإنسانَ كانَ ينقسمُ برأسَيْهِ قسمين، فإنْ تكلَّمَ من أحدهما وسمعَ به وأبصَرَ وشمَّ وذاقَ بقيَ الآخَرُ مُعطَّلاً لا أرَبَ فيهِ، وإن تكلَّمَ وأبصَرَ وسمعَ بهما معاً كلاماً واحداً وسمعاً واحداً وبَصَراً واحداً كانَ الآخَرُ فَضْلَةً لا فائدَةَ فيهِ! وإنِ اختَلَفَ إدراكُهما اختَلَفَت عليهِ أحوالُهُ وإدراكاتُهُ.

وكذلكَ لو كانَ لهُ لسانانِ في فمٍ واحدٍ فإنْ تكلَّمَ بهما كلاماً واحداً كانَ أحدهما ضائعاً، وإنْ تكلَّمَ بأحدهما دونَ الآخَرِ فكذلكَ، وإنْ تكلَّمَ بهما معاً كلامَينِ مُختلفينِ خَلَطَ على السَّامعِ ولم يَدْرِ بأيِّ الكلامين يأخذُ.

وكذلكَ لو كانَ لهُ هَنوَانِ[١] أو فمانِ لكانَ ـ مع قُبحِ الخِلقَةِ ـ أحدُهمَا فضلَةً لا مَنفعَةَ فيهِ!

---

(١) مثنى هن، وهو الذكر من الرجل.

وهذا بخلافِ الأعضاءِ التي خُلِقَت مثنى كالعَينَين والأُذُنَين والشفَتين واليَدين والرِّجلَينِ والسَّاقين والفَخِذين والوَرِكَين والثَّدْييَن؛ فإنَّ الحكمَةَ فيها ظاهِرَةٌ والمَصلَحَةَ بيِّنَةٌ، والجمالَ والزِّينَةَ عليها باديَةٌ.

فلو كانَ الإنسانُ بعَينٍ واحدَةٍ لكانَ مُشوَّهَ الخِلقَةِ ناقصَها، وكذلكَ الحاجبانِ.

وأمَّا اليَدانِ والرِّجلانِ والسَّاقانِ والفَخِذانِ فتعدُّدُهما ضَروريٌّ للإنسانِ لا تَتمُّ مصلحَتُهُ إلّا بذلكَ، أَلَا تَرى مَن قُطِعَت إحدى يَديهِ أو رِجلَيهِ كيفَ تَبقى حالُهُ وعجْزهُ؟ فلو أنَّ النَّجَّارَ والخيَّاطَ والحدَّادَ والخبَّازَ والبنَّاءَ وأصحابَ الصَّنائع التي لا تَتأتَّى إلّا باليَدين شُلَّت يدُ أحدِهما لتعطَّلَت عليهِ صَنْعَتُهُ، فاقتَضَت الحكمَةُ أنْ أُعطِيَ مِن هذا الضَّربِ مِنَ الجوارحِ والأعضاءِ اثنين اثنين.

وكذلكَ أُعطيَ شفتين لأنَّهُ لا تكملُ مصلحتُهُ إلّا بهما، وفيهما ضروبٌ عَديدةٌ منَ المنافعِ ومنَ الكلامِ والذَّوقِ وغطاءِ الفَمِ والجمالِ والزِّينَةَ والقُبلَةِ وغيرِ ذَلكَ.

وأمَّا الأعضاءُ الثُّلاثِيَّةُ فهي جوانبُ أنفهِ وحيطانهُ، وقَد ذكرنا حكمَةَ ذلكَ فيما تَقدَّمَ.

وأمَّا الأعضاءُ الرباعيَّةُ فالكِعابُ الأربعَةُ التي هي مَجْمَعُ القدمين، والمُمسِكَةُ لهما، وبهما قوَّةُ القدمين وحركتُهما، وفيهما منافعُ السَّاقين.

وكذلكَ أجفانُ العينين الأربعةُ، فيها منَ الحكَم والمنافع أنَّها غطاءٌ للعَينين، ووقايَةٌ لهما، وجمالٌ وزينَةٌ، وغيرُ ذلكَ منَ الحِكَمِ.

فاقتَضَت الحكمةُ البالغَةُ أنْ جُعِلَت الأعضاءُ على ما هيَ عليهِ منَ العَدَدِ والشكلِ والهيئةِ، فلو زادَت أو نَقَصَت لكانَ نَقصاً في الخِلقَةِ.

ولهذا يُوجَدُ في النَّوعِ الإنسانيِّ مِن زائدٍ في الخِلقَةِ وناقصٍ منها ما يدلُّ على حكمَةِ الرَّبِّ تعالى، وأنَّهُ لو شاءَ لجعَلَ خَلْقَهُ كلَّهم هكذا، ولِيَعْلَمَ الكاملُ الخِلْقَةِ تمامَ النِّعمَةِ عليهِ، وأنَّهُ خُلقَ خَلْقاً سويًّا معتدلاً، لم يُزَد في خَلقهِ ما لا يَحتاجُ إليهِ، ولم يُنتقَص منهُ ما يَحتاجُ إليهِ كما يَراهُ في غيرهِ، فهو أجدَرُ أن يَزدادَ شكراً وحَمداً لربِّهِ، ويعلمَ أنَّ ذلكَ ليسَ من صُنعِ الطَّبيعَةِ، وإنَّما ذلكَ صنعُ اللَّهِ الذي أتقَنَ كلَّ شيءٍ، وأنَّهُ يخلقُ ما يشاءُ.

[لكل إنسان صورة منفردة]

مِن أينَ للطَّبيعَةِ هذا الاختلافُ والفَرْقُ الحاصلُ في النَّوعِ الإنسانيِّ بينَ صُورهم؟ فقلَّ أن يُرى اثنانِ مُتشابهان من كلِّ وجهٍ، وذلكَ من أندَرِ ما في العالَم، بخلافِ أصنافِ الحيوانِ كالنَّعَمِ والوحوشِ والطَّيرِ وسائرِ الدَّوَابِّ، فإنَّكَ تَرى السِّرْبَ من الظِّباءِ، والثُّلَّةَ منَ الغنمِ، والذَّوْدَ منَ الإبلِ، والصُّوارَ من البَقَرِ، تتشابهُ حتى لا يُفرِّقَ بينَ أحَدٍ منها وبينَ الآخَرِ إلّا بَعدَ طولِ تأمُّلٍ أو بعلامَةٍ ظاهرَةٍ، والنَّاسُ مُختلفَةٌ صورُهم وخِلْقَتُهُم، فلا يكادُ اثنان منهم يجتمعان في صفَةٍ واحدَةٍ وخِلْقَةٍ واحدَةٍ، بل ولا صوتٍ واحدٍ ولا حُنجرةٍ واحدَةٍ.

والحكمَةُ البالغَةُ في ذلكَ أنَّ النَّاسَ يحتاجونَ إلى أن يتعارَفوا بأعيانِهم وحُلاهم؛ لِمَا يَجري بينهم من المعاملاتِ، فلولا الفرقُ والاختلافُ في الصُّوَرِ لَفَسَدَت أحوالُهم، وتشتَّتَ نظامُهُم، ولم يُعرَفِ الشاهدُ من المَشهودِ عليهِ، ولا المَدينُ من

ربُّ الدَّيْنِ، ولا البائعُ من المُشتري، ولا كانَ الرَّجلُ يعرفُ عِرْسَهُ[1] من غيرها للاختلاطِ، ولا هي تَعرفُ بَعْلَها من غيرهِ، وفي ذلكَ أعظمُ الفسادِ والخَللِ، فَمَن الذي ميَّزَ بينَ حُلاهم وصُوَرِهم وأصواتِهم، وفرَّقَ بينها بفروقٍ لا تَنالُها العبارَةُ ولا يُدركها الوَصف؟!

فَسَلِ المُعطِّلَ: أهذا فعلُ الطبيعة؟!

وهل في الطَّبيعَةِ اقتضاءُ هذا الاختلافِ والافتراقِ في النَّوعِ؟

وأينَ قولُ الطَّبائعيِّينَ: أنَّ فعلَها متشابهٌ لأنَّها واحدَةٌ في نَفسِها، لا تَفعلُ بإرادَةٍ ولا مَشيئةٍ، فلا يُمكنُ اختلافُ أفعالِها!

فكيفَ يجمعُ المُعطِّلُ بينَ هذا وهذا؟!

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وربَّما وقَعَ في النَّوعِ الإنساني تشابُهٌ بين اثنين لا يكادُ يُميَّزُ بينهما، فتَعْظُمُ عليهم المُؤنَةُ في معاملتهما، وتَشتدُّ الحاجَةُ إلى تَمييزِ المُستحقِّ منهما والمُؤاخَذِ بذنبهِ ومَن عليهِ الحقُّ، وإذا يعرضُ هذا في التَّشابهُ في الأسماءِ كثيراً، ويَلْقى الشاهدُ والحاكمُ من ذلك ما يَلْقى، فما الظنُّ لو وُضِعَ التشابُهُ في الخِلقَةِ والصُّورَةِ؟!

ولمَّا كانَ الحيوانُ البَهيمُ والطَّيرُ والوحوشُ لا يضرُّها هذا التَّشابهُ شيئاً لم تَدْعُ الحكمَةُ إلى الفَرقِ بين كلِّ زوجين منها، فتباركَ اللَّهُ أحسَنُ الخالقينَ الذي وسِعَت حكمتهُ كلَّ شيءٍ.

---

(١) أي زوجته.

[الجزء ضمن الكل والفرد ضمن المجموع][1]

الموجودات بأسرها كعسكر واحد، له ملك واحد، وسلطان واحد، يحفظ بعضه ببعض، وينظم مصالح بعضه ببعض، ويسد خلل بعضه ببعض، فيمد هذا بهذا، ويقوي هذا بهذا، وينقص من هذا فيزيده في الآخر ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ [آل عمران: ٢٧] ويبيد هذا فينشئ مكانه من جنسه ما يقوم مقامه، ويسدّ مسده، فيشهد حدوث الثاني أن الذي أحدثه وأوجده هو الذي أحدث الأول لا غيره، وأن حكمته لم تتغير، وعلمه لم ينقص، وقدرته لم تضعف، وأنه لا يتغير بتغير ما تغير منها، ولا يضمحل باضمحلاله ولا يتلاشى بتلاشيه، بل هو الحي القيوم، العزيز الحكيم.

هذا إلى ما في لوازم مكثها وانتظام بعضها ببعض، وما يصدر عنها من الأفعال والآثار من حكم وأفعال أخرى وغايات أخر حكمها حكم موادها وحواملها، كما نشاهده في أشخاصها وأعيانها.

فتأمل ذلك في جزئية واحدة، أنك ترى المعدة تشتاق الغذاء وتجتذبه إليها.

فانظر لوازم ذلك قبل تناوله

ولوازمه بعد تناوله.

---

(١) هذه الفقرة من كتاب «شفاء العليل» ص٦٣٩ ـ ٦٤٣.

وتبدو فيها النظرة الشمولية والواسعة لدى الإمام ابن القيم ﷺ وربطها بالنظام العام بحيث نجد أمثلتها في كل ميدان.

وما يترتب على تلك اللوازم من عمارة الدنيا.

فإذا جذبته إليها أنضجته وطبخته، كما تنضج القدر ما فيها، فتنضجه الإنضاج الذي تعده لتغذي جميع أجزاء البدن وقواه وأرواحه به، وهي وإن أنضجته لأجل نصيبها الذي ينالها منه، فهو قليل من كثير بالنسبة إلى انتفاع غيرها به.

فتدفع ما فضل عن غذائها عنها إلى من هو شديد الحاجة إليه؛ على قدر حاجته؛ من غير أن يقصد ذلك أو يشعر به، ولكن قد قصده وأحكمه مَنْ هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، بحكمته ولطفه وساقه في المجاري التي لا تنفذ فيها الإبر لدقة مسالكها حتى أوصله إلى المحتاج إليه، الذي لا صلاح له إلا بوصوله إليه، وكانت طبيعة الكبد ومزاجها في ذلك تلي طبيعة المعدة، وفعلها يلي فعلها.

وكذلك الأمعاء وباقي الأعضاء كالكبد للقلب في إعداد الغذاء، والقلب للرئة، والرئة للقلب في إعداد الهواء وإصلاحه.

فالأعضاء الموجودة في الشخص إذا تأملتها وتأملت أفعالها ومنافعها، وما تضمنه كل واحد منها من حكمة اختصت به، كشكله ووصفه ومزاجه ووضعه من الشخص بذلك الموضع المعين، علمت علماً يقيناً أن ذلك صادر عن خالق واحد، ومدبر واحد، وحكيم واحد.

فانتقل من هذا إلى أشخاص العالم شخصاً شخصاً، من النوع الإنساني تجد الحكمة الواحدة الظاهرة في تلك الأفراد الكثيرة قد نفعت بعضهم ببعض، وأعانت بعضهم ببعض.

حَرَّاثاً لزرَّاع.

وزرَّاعاً لحاصد.

وحائكاً لخياط.

وخياطاً لنجار.

ونجاراً لبناء.

فهذا يعين هذا بيده، وهذا برجله، وهذا بعينه، وهذا بأذنه، وهذا بلسانه، وهذا بماله، إذ لا يقدر أحدهم على جميع مصالحه، ولا يقوم بحاجاته، ولا توجد في كل واحد منهم جميع خواص نوعه.

فهم بأشخاصهم الكثيرة، كإنسان واحد يقوم بعضه بمصالح بعض، قد كَمَّل خواص الإنسانية في صفاته وأفعاله وصنائعه وما يراد منه.

فإن الواحد منهم لا يفي بأن يجمع جميع الفضائل العلمية والعملية والقوة والبقاء، فجعل ذلك في النوع الإنساني بجملته.

والله سبحانه قد فَرَّقَ كمالات النوع في أشخاصه، وجعل لكل شخص منها ما هو مستعد قابل له، بحيث لو قبل أكثر من ذلك لأعطيه، فإنه جواد لذاته قد فاض جوده وخيره على العالم كله، وفضل عنه أضعاف ما فاض عليه، فهو يفيضه على تعاقب الآنات أبداً، ولذلك يَفْضُلُ في الجنة فضل عن أهلها فينشئ الله لها خلقاً يسكنهم فضلها[1].

فيُعلم من استقراء العالم وأحواله انتهاؤه إلى عالم واحد وقادر واحد وحكيم واحد؛ قد أتقن نظامه أحسن الإتقان،

---

(١) رواه البخاري (٧٣٨٤) ومسلم (٢٨٤٨).

وأوجده على أتم الوجوه، وهو سبحانه ناظم أفعال الفاعلين مع كثرتها، ورابط بعضها ببعض، ومعين بعضها ببعض وجاعل بعضها سبباً لبعض، وغاية لبعض، وهذا من أدلَّ الدليل على أنه خالق واحد وربّ واحد، وقادر واحد.

دَلَّ على قدرته كثرة أفعاله وتنوعها في الوقت الواحد، وتعاقبها على تتالي الآنات، وتفنن تصرفاته في مخلوقاته على كثرتها.

ودَلَّ على علمه وحكمته كون كل صغير وكبير، ودقيق وجليل داخلاً في النظام الحكمي، ليس فيها شيء سُدى، حتى مسام الشعر في الجلد، ومراشح اللعاب في الفم، ومجاري الشعب الدقيقة من العروق في أصغر الحيوانات، التي تعجز عنها أبصارنا، ولا تنالها قدرتنا.

وهذا فيما دَقَّ لصغره، وفيما جَلَّ لعظمه، كالرياح الحاملة للسحب إلى الأرض الجرز التي لا نبات بها، فيمطرها عليها فيخرج بها نباتاً، ويحيي بها حيواناً، ويجعل فيها خزائن من الطعام والشراب والأقوات والأدوية وغير ذلك.

فإذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع عتاده، فالسماء سقفه، والأرض بساطه، والنجوم زينته، والشمس سراجه، والعقلاء سكّانه، والليل سكنهم، والنهار معاشهم، والمطر سقياهم، والنبات غذاؤهم ودواؤهم وفاكهتهم، والحيوان خدمهم، ومنه قوتهم ولباسهم، والجواهر كنوزهم وذخائرهم، كل شيء منها لما يصلح له، فضروب النبات مهيَّأة لجميع حاجاتهم، وصنوف الحيوانات معدّة لجميع مصالحهم، وذلك أدلّ دليل على وحدانية خالقه وعلمه وحكمته وقدرته.

الفصل التاسع

تكريم بني آدم

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

فسبحانَ من ألبَس خِلَعَ الكَرامَةِ كلَّها لبني آدَمَ؛ منَ العَقلِ والعلمِ والبيانِ والنُّطْقِ، والشكلِ والصُّورَةِ الحسَنَةِ والهيئةِ الشريفَةِ والقدِّ المُعتَدِلِ واكتسابِ العلوم بالاستدلالِ والفِكْرِ، واقتناصِ الأخلاقِ الشريفَةِ الفاضلَةِ منَ البرِّ والطَّاعَةِ والانقيادِ.

فكم بينَ حالهِ وهو نُطفَةٌ داخلٌ إلى الرَّحم مُستَودَعٌ هناكَ وبينَ حالهِ والمَلَكُ يَدخُلُ عليهِ في جنَّاتِ عَدنٍ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

فالدُّنيا قَريَةٌ، والمؤمنُ رَئيسُها، والكُلُّ مَشغولٌ بهِ ساعٍ في مصالحهِ، والكلُّ قَد أُقيمَ في خدمتهِ وحوائجهِ؛ فالملائكَةُ الذينَ هُم حمَلَةُ عَرشِ الرَّحمنِ ومَن حولَهُ يَستَغفرونَ لهُ، والملائكَةُ المُوكَّلونَ به يَحفظونَهُ، والمُوكَّلونَ بالقَطرِ والنَّباتِ يَسْعَوْنَ في رزقِهِ ويعملونَ فيهِ، والأفلاكُ مُسَخَّرَةٌ مُنقادَةٌ دائرَةٌ بما فيهِ مصالحهُ، والشمسُ والقمرُ والنُّجومُ مسخَّراتٌ جارياتٌ بحسابِ أزمنتهِ وأوقاتهِ وإصلاحِ رواتبِ أقواتهِ، والعالَمُ الجويُّ مُسخَّرٌ لهُ برياحهِ وهوائهِ وسحابهِ وطَيرهِ وما أُوْدِعَ فيهِ، والعالَمُ السُّفليُّ كلُّهُ

مسخَّرٌ لهُ مَخلوقٌ لمصالحهِ؛ أرضُهُ وجبالهُ، وبحارهُ وأنهارهُ، وأشجارهُ وثمارهُ، ونباتهُ وحيوانهُ وكلُّ ما فيهِ.

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣].

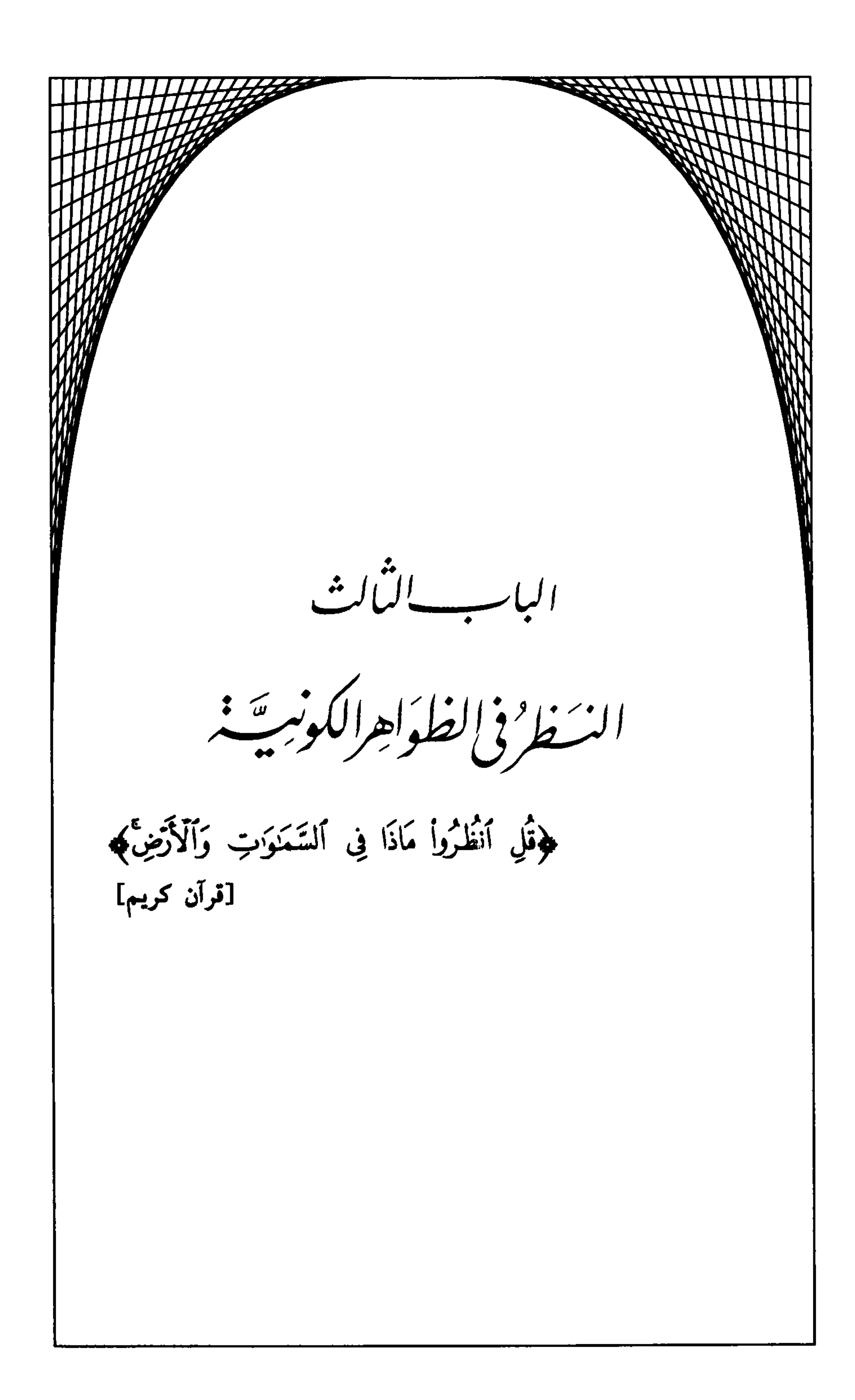
وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

فالسَّائرُ في مَعرفَةِ آلاءِ اللَّهِ وتأمُّل حكمتهِ وبَديعِ صفاتهِ أطوَلُ باعاً وأملأُ صُواعاً منَ اللَّصيقِ بمكانهِ المُقيمِ في بَلَدِ عادتِهِ وَطبعِهِ راضياً بعَيشِ بني جنسهِ لا يَرضى لنَفسهِ إلّا أن يكونَ واحداً منهم، يقولُ: لي أسوةٌ بهم!

وَهَل أنا إلّا مِن رَبيعَةَ أو مُضَر.

وليسَت نفائسُ البضائعِ إلّا لمَن امتَطى غاربَ الاغترابِ، وطوَّفَ في الآفاقِ حتى رَضيَ منَ الغَنيمَةِ بالإيابِ، فاسْتَلَانَ ما استَوعَرَهُ البَطّالونَ وأنِسَ بما استَوحَشَ منهُ الجاهلونَ.





الباب الثالث

النظر في الظواهر الكونية

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾

[قرآن كريم]



[تمهيد بشأن النظر في المخلوقات][1]

ومِن آياتهِ سبحانهُ خَلْقُ الحيوانِ على اختلافِ أَصنافهِ وأجناسهِ وأشكالهِ ومنافعهِ وألوانهِ وعجائبهِ المُودَعَةِ فيه.

فمنهُ الماشي على بَطنهِ، ومنهُ الماشي على رجليهِ، ومنهُ الماشي على أربع.

ومنهُ ما جُعِلَ سِلاحُهُ في رجليهِ ـ وهو ذو المخالبِ ـ ومنهُ ما جُعِلَ سِلاحُهُ المناقيرَ كالنَّسرِ والرَّخَمِ[2] والغُرابِ، ومنهُ ما سِلاحُهُ الأسنانُ، ومنهُ ما سلاحهُ الصَّياصي ـ وهي القرونُ يُدافِعُ بها عن نَفسهِ مَن يرومُ أخذَهُ ـ، ومنها ما أُعطيَ قوَّةً يَدفَعُ بها عن نَفسهِ لم يَحْتَجْ إلى سلاح كالأسَدِ؛ فإنَّ سِلاحَهُ قُوَّتُهُ، ومنهُ ما سِلاحُهُ في ذَرْقهِ[3]، وهو نوعٌ من الطَّيرِ إذا دنا منهُ مَن يُريدُ أَخْذَهُ ذَرَقَ عليهِ فأهلكَهُ.

ونَحنُ نَذكرُ هنا فصولاً منثورَةً من هذا البابِ مُختَصَرَةً وإن تَضمَّنَت بعضَ التَّكرار، وإن كانت غيرَ مُرتَّبةٍ[4]، فلا ضَيْرَ

---

(١) هذا التمهيد هو الفصل (١٩) في كتاب «مفتاح دار السعادة».

(٢) طائر غزير الريش أبيض اللون، مبقع بسواد له منقار طويل.

(٣) هو خرء الطير.

(٤) أقول: بذلت جهدي في ترتيب موضوعات هذا الكتاب، كما يراها القارئ بين يديه. =

بالتكرار وتَركِ التَّرتيبِ في هذا المقامِ الذي هو من أهمِّ فصولِ الكتابِ.

ولهذا تَكَرَّرَ في القرآنِ ذِكْرُ آياتهِ ويُعيدها ويُبدئها ويأمرُ عبادَهُ بالنَّظَرِ فيها مرَّةً بَعدَ أُخرى، فهو من أجلِّ مقاصدِ القرآنِ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿...لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ

= كما بذلت جهدي في حذف المكرر، وبخاصة ما كان تكراره حاصل نتيجة جمع البحوث من كتابي «شفاء العليل» و«مفتاح دار السعادة».

وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩٥ ـ ٩٩].

فأمرَ سبحانهُ بالنَّظرِ إليهِ وقتَ خروجهِ وإثمارهِ، ووقتَ نُضْجِهِ وإدراكِه، يُقال: أَيْنَعَت الثمارُ؛ إذا نَضَجت وطابَت؛ لأنَّ في خروجهِ من بين الحطبِ والورقِ آيَةً باهرَةً وقُدْرَةً بالغَةً، ثمَّ في خروجهِ من حدِّ العُفوصَةِ[1] واليُبوسَةِ والمرارَةِ والحُموضَةِ إلى ذلكَ اللونِ المُشرقِ النَّاصعِ والطَّعمِ الحُلْوِ اللذيذِ الشهيِّ لآياتٌ لقومٍ يؤمنونَ.

وقال بَعضُ السَّلفِ: حَقٌّ على النَّاسِ أن يخرجوا وقتَ إدراكِ الثِّمارِ وينعها فيَنظروا إليها، ثمَّ تلا: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾.

ولو أردنا أن نَستوعبَ ما في آياتِ اللَّهِ المَشهودَةِ من العجائبِ والدِّلالاتِ الشاهدَةِ للَّهِ بأنَّه اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو، الذي ليسَ كمثلهِ شيءٌ، وأنَّهُ الذي لا أعظمَ منه ولا أكملَ منهُ ولا أبرَّ ولا ألطفَ: لَعَجَزْنا نحنُ والأوَّلونَ والآخرونَ عن معرفَةِ أدنى عُشرِ مِعشارِ ذلكَ، ولكن ما لا يُدركُ جميعهُ لا يَنبغي تَركُهُ البتَّةَ والتَّنبيهُ على بَعضِ ما يُسْتدَلُّ به على ذلكَ.

وهذا حينَ الشروعِ في الفصولِ:

---

(١) العفص: دواء قابض مجفف (القاموس).

الفصل الأول

نظام العالم

[نظام العالم دليل على وحدة الخالق]

تأمَّل العبرَةَ في وَضعِ هذا العالَم وتأليفِ أجزائهِ ونَظْمِها على أحسَنِ نظامٍ وأدلِّهِ على كمالِ قُدرَةِ خالقهِ وكمالِ علمهِ وكمالِ حكمتهِ وكمالِ لُطفهِ؛ فإنَّكَ إذا تأمَّلْتَ العالَمَ وجدتَهُ كالبَيتِ المَبنيِّ المُعَدِّ فيهِ جميعُ آلاتهِ ومصالحهِ وكلُّ ما يحتاجُ إليهِ.

فالسَّماءُ سقفُهُ المرفوعُ عليهِ، والأرضُ مِهادٌ وبِساطٌ وفِراشٌ ومُستقرٌّ للسَّاكنِ، والشمسُ والقمرُ سِراجانِ يُزهِرانِ فيه، والنُّجومُ مصابيحُ لهُ وزينَةٌ وأدلَّةٌ للمُتنقِّلِ في طرقِ هذه الدَّارِ، والجواهرُ والمعادنُ مخزونَةٌ فيه كالذَّخائرِ والحواصل المُعَدَّةِ المُهيَّأةِ كلُّ شيءٍ منها لشأنهِ الذي يَصْلُحُ له، وضروبُ النَّباتِ مُهيَّأة لمآربهِ، وصنوفُ الحيوانِ مُصَرَّفَةٌ لمصالحهِ، فمنها الرَّكوبُ، ومنها الحَلُوبُ، ومنها الغذاءُ، ومنها اللباسُ والأمتعَةُ والآلة، ومنها الحرَسُ الذي وُكِّلَ بحرسِ الإنسانِ يحرسُه وهو نائمٌ وقاعدٌ ممَّا هو مُستَعدٌّ لإهلاكهِ وأذاهُ، فلولا ما سُلِّطَ عليهِ من ضدِّهِ لم يستقرَّ للإنسانِ قرارٌ بينهم، وجَعَلَ الإنسانَ كالمَلِك المُخَوَّلِ في ذلكَ المُحَكَّم فيه، المتصرِّفِ بفعلهِ وأمرهِ.

ففي هذا أعظمُ دلالةٍ وأوضحُها على أنَّ العالَمَ مخلوقٌ

لخالقٍ حكيم قديرٍ عليم، قدَّرهُ أحسَنَ تَقديرٍ، ونظَّمَهُ أحسَنَ نظامٍ، وأنَّ الخالقَ له يَستَحيلُ أن يكونَ اثنين بل الإلهُ واحدٌ، لا إلَهَ إلّا هو، تعالى عمَّا يقولُ الظَّالمون والجاحدونَ عُلُوًّا كبيراً، وأنَّهُ لو كانَ في السَّماواتِ والأرضِ إلهٌ غيرُ اللَّهِ لَفَسَدَ أمرُهما، واختَلَّ نظامُهما، وتعطَّلت مصالحُهما.

وإذا كانَ البَدنُ يَستحيلُ أن يكونَ المدبِّرَ له رُوحانِ مُتكافئانِ مُتساويانِ، ولو كانَ كذلكَ لَفَسدَ وهَلَكَ مع إمكانِ أنْ يكونا تحتَ قَهرٍ ثالثٍ فكيفَ يُمكن أنْ يكونَ المُدبِّرُ لهذا العالَم العُلْويِّ والسُّفْليِّ إلٰهين مُتكافئين مُتساويَيْنِ؟! هذا من المُحالِ في أوائلِ العقولِ وبَداثةِ الفِطَرِ، فـ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

فهذان بُرهانانِ يَعْجَزُ الأوَّلونَ والآخرونَ أن يَقدَحوا فيهما بقَدْحٍ صحيحٍ أو يأتوا بأحسَنَ منهما، ولا يَعترِضُ عليهما إلّا مَن لم يَفهم المرادَ منهما، ولولا خَشيَةُ الإطالَةِ لذَكرنا تَقديرَهما وبيانَ ما تَضمَّناهُ من السرِّ العَجيبِ والبرهانِ الباهرِ.

ثمَّ تأمَّلْ هذا الفَلَكَ الدوَّارَ بشمسهِ وقَمَرِهِ ونُجومِهِ وبُروجِهِ، وكيفَ يدورُ على هذا العالَمِ هذا الدَّورانَ الدَّائمَ إلى آخرِ الأجلِ على هذا التَّرتيبِ والنِّظامِ وما في طَيِّ ذلك من اختلافِ الليلِ والنَّهارِ والفُصولِ والحرِّ والبرد وما في ضِمْنِ ذلكَ من مصالحِ ما على الأرضِ من أصنافِ الحيوانِ والنَّباتِ.

وهل يخفى على ذي بَصيرَةٍ أنَّ هذا إبداعُ المُبْدِعِ الحكيمِ

وتَقديرُ العَزيزِ العليم؟! ولهذا خاطَبَ الرُّسلُ أُمَّتَهم مُخاطبةَ مَن لا شكَّ عندهُ في اللَّهِ، وإنَّما دَعَوْهُم إلى عبادتهِ وحدَهُ لا إلى الإقرارِ به، فقالت لهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فَوُجودُهُ سُبحانَهُ وربوبيَّتُهُ وقُدرتُهُ أظهَرُ من كلِّ شيءٍ على الإطلاقِ، فهو أظهَرُ للبصائرِ من الشمسِ للأبصارِ، وأبينُ للعقولِ مِن كلِّ ما تعقِلُهُ وتُقِرُّ بوجودِهِ، فما يُنكرهُ إلّا مكابرٌ بلسانهِ وقلبهِ وعقلِهِ وفِطْرتهِ، وكلُّها تُكَذِّبُهُ.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢ ـ ٤].

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقال تعالى: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤ ـ ٦].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل: ٤، ٥]، إلى قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

[خلق السماء]

تأمَّلْ خَلقَ السَّماءِ وارجعِ البَصَرَ فيها كَرَّةً بَعدَ كَرَّةٍ، كيفَ تَراها من أعظمِ الآياتِ في عُلُوِّها وارتفاعِها وسَعَتِها وقرارِها! بحيثُ لا تَصعَدُ عُلُوًّا كالنَّارِ، ولا تَهبطُ نازلَةً كالأجسامِ الثَّقيلَةِ، ولا عُمُدَ تَحتها ولا عَلاقَةَ فوقَها، بل هي ممسوكَةٌ بقُدرَةِ اللَّهِ الذي يُمسِكُ السَّماواتِ والأرضَ أن تزولا.

ثمَّ تأمَّل استواءَها واعتدالَها فلا صَدْعَ فيها ولا فَطْرَ ولا شقَّ ولا أَمْتَ[1] ولا عِوَجَ.

ثمَّ تأمَّلْ ما وُضِعَت عليهِ من هذا اللونِ الذي هو أحسنُ الألوانِ وأشدُّها مُوافقةً للبَصَرِ وتقويَةً لهُ، حتى إنَّ مَن أصابهُ شيءٌ أضرَّ ببصرهِ يُؤْمَرُ بإدمانِ النَّظرِ إلى الخُضرَةِ وما قَرُبَ منها إلى السَّوادِ، وقال الأطبَّاء: إنَّ مَن كَلَّ بَصَرُهُ فإنَّهُ مِن دوائهِ أن يُديمَ الاطِّلاعَ إلى إجَّانَةٍ[2] خَضراءَ مملوءَةٍ ماءً.

---

(١) وَهَن وضَعْف.

(٢) هي الإناء.

فتأمَّلْ كيفَ جَعَلَ أديمَ السَّماءِ بهذا اللونِ ليُمْسِكَ الأبصارَ المُتقلِّبَةَ فيه ولا يُنْكَأَ فيها بطولِ مُباشرتِها له، هذا بَعضُ فوائدِ هذا اللون، والحكمَةُ فيه أضعافُ ذلك.

ثمَّ تأمَّلِ المُمْسِكَ للسَّمواتِ والأرضِ الحافظَ لهما أنْ تزولا أو تقَعا أو يتعطَّلَ بعضُ ما فيها، أَفَترى مَن المُمْسِكُ لذلكَ؟ ومَن القيِّمُ بأمرهِ؟ ومَن المقيمُ له؟

فارْجِع الآنَ إلى النُّطفَةِ وتأمَّلْ حالَها أوَّلاً وما صارَت إليهِ ثانياً، وأنَّهُ لو اجتَمَعَ الإنسُ والجنُّ على أن يخلُقوا لها سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرَةً أو علماً أو روحاً ـ بل عظماً واحداً من أصغَرِ عظامها، بل عِرْقاً من أدقِّ عروقها، بل شعَرَةً واحدَةً ـ لَعَجَزُوا عن ذلكَ، بل ذلكَ كلُّهُ آثارُ صُنعِ اللَّهِ الذي أتقَنَ كلَّ شيءٍ في قَطرَةٍ من ماءٍ مَهينٍ.

فَمَنْ هذا صُنْعُهُ في قَطرَةِ ماءٍ فكيفَ صُنْعُهُ في ملكوتِ السَّماواتِ، وعُلوِّها، وسعتها، واستدارتها، وعِظَم خَلْقها، وحُسن بنائها، وعجائِبِ شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها، وأشكالها، وتفاوُتِ مشارقها ومغاربها؟! فلا ذرَّةَ فيها تنفكُّ عن حِكمَةٍ، بل هي أحكمُ خَلقاً وأتقَنُ صنعاً وأجمَعُ للعجائبِ من بَدَنِ الإنسانِ، بل لا نِسبَةَ لجميع ما في الأرضِ إلى عجائبِ السَّماواتِ.

قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله: ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فبدأ بذكرِ خَلقِ السَّماواتِ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وهذا كثيرٌ في القرآنِ، فالأرضُ والبحارُ والهواءُ وكلُّ ما تَحتَ السَّماواتِ ـ بالإضافَةِ إلى السَّماواتِ ـ كقَطرَةٍ في بحرٍ، ولهذا قلَّ أن تجيءَ سورَةٌ في القرآنِ إلّا وفيها ذكرُها.

إمَّا إخباراً عن عَظَمَتِها وسعتها.

وإمَّا إقساماً بها.

وإمّا دُعاءً إلى النَّظَرِ فيها.

وإمَّا إرشاداً للعبادِ أن يَستدلُّوا بها على عَظَمَةِ بانيها ورافعها.

وإمَّا استدلالاً منه سبحانه بخلقها على ما أخبَرَ به من المعادِ والقيامةِ.

وإمَّا استدلالاً منه بربوبيَّتِهِ لها على وحدانيَّتِهِ وأنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو.

وإمَّا استدلالاً منه بحُسنها واستوائها والتئامِ أجزائها وعَدمِ الفُطورِ فيها على تمامِ حِكمتِهِ وقدرتِهِ.

وكذلكَ ما فيها من الكواكبِ والشمسِ والقمرِ والعجائبِ التي تتقاصَرُ عقولُ البَشر عن قليلها.

[إقسام القرآن بالسماء]

فَكَمْ مِن قَسم في القرآنِ بها؛ كقولهِ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾

[الشمس: ٥]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ [الطارق: ١١]، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣]، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، وهي الكواكبُ التي تكونُ خُنَّساً عندَ طلوعها جوارٍ في مجراها ومسيرها، كُنَّساً عندَ غروبها، فأقسمَ بها في أحوالها الثَّلاثةِ.

ولم يُقسم في كتابهِ بشيءٍ من مخلوقاتهِ أكثَرَ من السّماءِ والنُّجومِ والشمسِ والقَمَرِ، وهو سبحانهُ يُقسمُ بما يُقسمُ بهِ من مخلوقاتهِ لتضمُّنهِ الآياتِ والعجائبَ الدَّالَّةَ عليهِ، وكلَّما كان أعظَمَ آيَةً وأبلَغَ في الدَّلالَةِ كانَ إقْسامُهُ بهِ أكثَرَ من غيرهِ، ولهذا يُعظِّمُ سبحانه هذا القَسَمَ؛ كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥، ٧٦]، وأظهَرُ القولينِ أنَّهُ قسمٌ بمواقعِ هذه النُّجومِ التي في السَّماءِ، فإنَّ اسمَ النُّجومِ عندَالإطلاقِ إنَّما ينصرفُ إليها[1].

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله:
وأيضاً؛ فإنَّهُ لم تَجْرِ عادتُهُ سبحانهُ باستعمال النُّجوم في آياتِ القرآن ولا في موضعٍ واحدٍ من كتابهِ حتى تُحمَلَ عليهِ هذه الآيَةُ، وجَرَتْ عادتُهُ سبحانه باستعمالِ النُّجومِ في الكواكبِ في جميعِ القرآنِ.
وأيضاً؛ فإنَّ نَظيرَ الإقسامِ بمواقعها هنا إقسامهُ بهوى النَّجمِ في قولهِ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾.
وأيضاً؛ فإنَّ هذا قولُ جمهورِ أهلِ التَّفسيرِ.
وأيضاً؛ فإنَّهُ سبحانهُ يُقسِمُ بالقرآنِ نفسهِ لا بوصولهِ إلى عبادهِ، هذه طريقَةُ القرآنِ؛ قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١]، ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس: ١]، ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الزخرف: ٢]، ونظائرهُ.

والمقصودُ؛ أنَّهُ سبحانَهُ إنَّما يُقسِمُ من مخلوقاتهِ بما هو من آياتهِ الدَّالَّةِ على ربوبيَّتهِ ووحدانيَّتهِ.

وقد أثنى سبحانهُ في كتابهِ على المتفكِّرين في خَلقِ السَّماواتِ والأرضِ، وذَمَّ المُعْرِضين عن ذلك، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وتأمَّلْ خَلْقَ هذا السَّقفِ الأعظم مع صلابتهِ وشدَّتهِ وثاقتهِ من دُخانٍ وهو بُخارُ الماءِ، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

فانظر إلى هذا البناءِ العظيم الشديد الواسعِ الذي رَفَعَ سَمْكهُ أعظَمَ ارتفاعٍ وزيَّنهُ بأحسَنِ زينَةٍ وأَودَعَهُ العجائبَ والآيات وكيفَ ابتدأ خَلْقَهُ مِن بُخارٍ ارتَفَعَ منَ الماءِ وهو الدُّخان.

فسُبحانَ مَن لا يَقدِرُ الخَلْقُ قَدْرَه ... ومَن هو فَوقَ العَرشِ فَردٌ مُوَحَّدُ

لَقَد تَعرَّفَ إلى خَلقهِ بأنواعِ التَعرُّفاتِ، ونَصَبَ لهم الدَّلالاتِ، وأوضَحَ لهم الآياتِ البيِّناتِ؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

[النجوم وعجيب خلقها]

ثمَّ تأمَّلْ حِكْمَتَهُ تبارَكَ وتعالى في هذه النُّجومِ وكثرتِها وعجيبِ خَلْقِها وأنَّها زينةٌ للسّماءِ وأدلَّةٌ يُهتَدى بها في طرقِ البرِّ والبَحرِ، وما جَعَلَ فيها من الضُّوءِ والنُّورِ بحيثُ يُمكِنُنا رؤيتُها مع البُعْدِ المُفرِطِ، ولولا ذلك لم يَحْصُل لنا الاهتداءُ والدَّلالةُ ومعرفَةُ المواقيتِ.

ثمَّ تأمَّلْ تَسخيرَها مُنقادَةً بأمرِ ربِّها تباركَ وتعالى جاريَةً على سَننٍ واحدٍ اقتَضَتْ حِكمتُهُ وعلمُهُ أنْ لا تَخرجَ عنه، فجَعَلَ منها البُروجَ والمنازلَ والثَّوابتَ والسيَّارَةَ والكِبَارَ والصِّغارَ والمتوسِّطَ والأبيَضَ الأزهَرَ والأبيَضَ الأحمَرَ، ومنها ما يَخفى على النَّاظرِ فلا يُدرِكُهُ.

وجَعَلَ منطقةَ البروجِ قسمين: مُرتفعَةً ومُنخفضَةً، وقدَّرَ سَيْرَها تَقديراً واحداً، ونَزَّلَ الشمسَ والقمرَ والسيَّاراتِ منها منازلَها؛ فمنها ما يقطعُها في شهرٍ واحدٍ ـ وهو القمرُ ـ ومنها ما يَقطعُها في عامٍ، ومنها ما يقطعُها في عدَّةِ أعوامٍ، كلُّ ذلكَ مُوجَبُ الحكمَةِ والعنايَةِ.

وجَعَلَ ذلكَ أسباباً لِمَا يُحْدِثُهُ سبحانهُ في هذا العالَم فيستدلُّ بها النَّاسُ على تلكَ الحوادثِ التي تُقارِنُها لمعرفتهم بما يكونُ مع طلوعِ الثُّريَّا إذا طَلَعَت وغروبها إذا سَقَطَت من الحوادثِ التي تُقارِنُها، وكذلكَ غيرُها من المنازلِ والسيَّاراتِ.

ثمَّ تأمَّلْ جَعْلَهُ سبحانهُ بناتِ نَعْشٍ[1] وما قَرُبَ منها ظاهرةً لا تَغيبُ لقربها من المركزِ، ولما في ذلك من الحكمَةِ الإلهيَّةِ، وأنَّها بمنزلَةِ الأعلامِ التي يَهْتدي بها النَّاسُ في الطُّرقِ المجهولَةِ في البرِّ والبَحرِ، فهم يَنظرونَ إليها وإلى الجَدْي والفَرقَدينِ كلَّ وَقتٍ أرادوا فيَهتَدونَ بها حيثُ شاؤوا.

[سير الكواكب]

ثمَّ تأمَّلِ اختلافِ سيرِ الكواكبِ وما فيها من العجائبِ،

---

(١) هي أسماء كواكب.

كيفَ تَجدُ بَعضَها لا يَسيرُ إلّا مع رفقتهِ، ولا يُفرِدُ عنهُم سَيرَهُ أبداً، بل لا يَسيرونَ إلّا جميعاً، وبَعضُها يسيرُ سيراً مُطْلَقاً غيرَ مُقيَّدٍ برفيقٍ ولا صاحبٍ، بل إذا اتَّفَقَ له مُصاحبتُهُ في منزلٍ وافَقَهُ فيه ليلةً وفارَقَهُ الليلَةَ الأُخرى، فبينما تراهُ ورفيقَهُ وقرينه إذ رأيتهما مُفترِقَيْنِ مُتباعدين كأنَّهما لم يتصاحَبَا قطُّ، وهذه السيَّارَةُ لها في سيرها سيرانِ مُختلفانِ غايَةَ الاختلافِ: سيرٌ عامٌّ يسيرُ بها فَلَكُها، وسيرٌ خاصٌّ تَسيرُ هي في فَلَكِها كما شبَّهوا ذلكَ بنملةٍ تَدِبُّ على رحىً ذاتَ الشمالِ، والرَّحى تأخُذُ ذاتَ اليمين، فللنملةِ في ذلكَ حركتانِ مُختلفتانِ إلى جهتَين متباينتين:

إحداهما: بنفسها، والأخرى: مكرهةٌ عليها تَبَعاً للرَّحى، تجذبُها إلى غيرِ جهَةِ قصدِها، وبذلك تجعَلُ التَّقدُّمَ فيها كلَّ منزلَةٍ إلى جهَةِ الشرقِ، ثمَّ يسيرُ فَلَكُها، وبمنزلتها إلى جهَةِ الغَربِ.

فَسَلِ الزَّنادقَةَ والمُعطِّلَةَ: أيُّ طَبيعَةٍ اقتَضَتْ هذا؟

وأيُّ فَلَكٍ أوجَبَهُ؟ وهلّا كانَت كلُّها راتبَةً أو مُتنقِّلَةً أو على مقدارٍ واحدٍ وشكلٍ واحدٍ وحركةٍ واحدَةٍ وجريانٍ واحدٍ؟

وهَل هذا إلّا صُنعُ مَن بَهَرَتْ العقولَ حِكمتُهُ وشهدت مصنوعاتُهُ ومبتدعاتُهُ بأنَّهُ الخالقُ البارئُ المُصَوِّرُ الذي ليسَ كمثلهِ شيءٌ، أحسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ، وأتقَنَ كلَّ ما صَنَعهُ، وأنَّهُ العليمُ الحكيمُ الذي خَلَقَ فسوَّى وقدَّرَ فَهدى، وأنَّ هذه إحدى آياتهِ الدَّالَّةِ عليهِ وعجائبِ مصنوعاتهِ الموصلَةِ للأفكارِ إذا سافَرتَ فيها إليه، وأنَّهُ خَلْقٌ مُسخَّرٌ مربوبٌ مُدَبَّرٌ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فإنْ قلتَ: فما الحِكمَةُ في كونِ بَعضِ النُّجومِ راتباً وبعضِها مُتنقِّلاً؟

قيل: إنَّها لو كانَت كلُّها راتبَةً لبطلت الدلالَةُ والحِكَمُ التي نشأتْ من تنقُّلِها في منازلها ومسيرِها في بُروجِها ولو كانت كلَّها مُنتَقِلَةً لم يكُن لمسيرِها منازلُ تُعرَف بها ولا رَسمٌ يُقاسُ عليها لأنَّهُ إنَّما يُقاس مسيرُ المُتنقّلةِ منها بالرَّاتبِ كما يُقاسُ مسيرُ السَّائرينَ على الأرضِ بالمنازِل التي يمرُّونَ عليها، فلو كانت كلُّها بحالٍ واحدَةٍ لاختَلَطَ نظامُها ولبطلت الحِكَمُ والفوائدُ والدَّلالاتُ التي في اختلافها ولتشبَّثَ المُعطِّلُ بذلكَ وقال: لو كانَ فاعلُها ومُبدعُها مختاراً لم تكن على وجهٍ واحدٍ وأمرٍ واحدٍ وقَدرٍ واحدٍ!

فهذا التَّرتيبُ والنِّظامُ الذي هي عليهِ من أدلِّ الدَّلائلِ على وجود الخالقِ وقُدرتهِ وإرادتهِ وعلمهِ وحكمتهِ ووحدانيَّتهِ.

وبالجملَةِ؛ فما من كوكبٍ من الكواكبِ إلّا وللرَّبِّ تبارَكَ وتعالى في خَلقهِ حِكَمٌ كثيرَةٌ، ثمَّ في مقدارهِ، ثمَّ في شكلهِ ولونهِ، ثمَّ في موضعهِ من السَّماءِ وقُربهِ من وسطها وبُعدهِ، وقُربهِ من الكوكبِ الذي يليهِ وبُعدِه منهُ.

[الشمس]

ثمَّ انظر إلى مسيرِ الشمسِ في فَلَكها في مدَّةِ سنةٍ، ثمَّ هيَ في كلِّ يومٍ تطلعُ وتغربُ بسَيرٍ سخَّرها لهُ خالقُها لا تَتَعدَّاهُ ولا تَقصُرُ عنهُ، ولولا طلوعُها وغروبُها لَمَا عُرِفَ الليلُ والنَّهارُ ولا المواقيتُ، ولأَطْبَقَ الظَّلامُ على العالَمِ أو الضِّياءُ، ولم يتميَّزْ وقتُ المعاشِ عن وقتِ السُّباتِ والرَّاحَةِ.

وكيفَ قدَّرَ لها العزيزُ العليمُ سَفَرَينِ متباعدين:

أحدهما: سفرُها صاعدَةً إلى أوْجِها.

والثَّاني: سفرُها هابطَةً إلى حضيضها.

تنتقلُ في منازلِ هذا السَّفَرِ منزلَةً منزلَةً حتى تبلُغَ غايتَها منهُ.

وقَد اتَّفَقَ أربابُ الهَيئَةِ على أنَّ الشمسَ بقدرِ الأرضِ مِئَةُ مرَّةٍ ونيِّفاً وستِّينَ مرَّةً، والكواكبُ التي نَراها كثيرٌ منها أصغرُها بَقدرِ الأرضِ، وبهذا يُعْرَفُ ارتفاعُها وبُعدُها.

[الشمس والقمر وحساب الزمن]

ثـمَ تـأمَّـلْ حَـالَ الـشـمـسِ والـقـمـرِ ومـا أُوْدِعَـاهُ مـنَ الـنُّـورِ والإضاءَةِ، وكيفَ جَعَلَ لهما بُروجاً ومنازلَ يَنْزِلانِها مرحَلَةً بَعْدَ مرحَلَةٍ لإقامَةِ دولَةِ السَّنَة وتمامِ مصالحِ حسابِ العالَم الذي لا غَناءَ لهم في مصالحهم عنه، فبذلكَ يُعلَمُ حسابُ الأعمارِ والآجالِ المؤجَّلةِ للدُّيونِ والإيجارات والمعاملاتِ والعَدَدِ وغَيرِ ذلك، فلولا حُلولُ الشمسِ والقمرِ في تلكَ المنازلِ وتنقُّلُهما فيها منزلَةً بَعدَ منزلَةٍ لم يُعلَم شيءٌ من ذلكَ.

وقَد نبَّهَ اللَّهُ تعالى على هذا في غيرِ موضعٍ من كتابهِ، كـقـولـهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

وانظُرْ إلى القمرِ وعجائبِ آياتهِ! كيفَ يُبديهِ اللَّهُ كالخَيطِ

الدَّقيقِ ثمَّ يتزايَدُ نورُهُ ويتكاملُ شيئاً فشيئاً كلَّ ليلَةٍ حتى يَنتَهي إلى إبْدارهِ وكمالهِ وتمامهِ، ثمَّ يأخُذُ في النُّقصانِ حتى يعودَ إلى حالتهِ الأولى ليظهَرَ من ذلكَ مواقيتُ العبادِ في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم، فتميَّزَت به الأشهرُ والسِّنونَ، وقامَ به حسابُ العالَم مع ما في ذلكَ من الحِكَمِ والآياتِ والعِبَرِ التي لا يُحصيها إلّا اللَّهُ.

[الشمس وفصول السنة]

ثمَّ تأمَّلْ بَعدَ ذلكَ أحوالَ هذه الشمس في انخفاضِها وارتفاعِها لإقامَةِ هذه الأزمنَةِ والفُصولِ، وما فيها من المصالح والحِكَم، إذ لو كانَ الزَّمانُ كلُّهُ فَصلاً واحداً لفاتَتْ الفُصولَ الباقيَة فيه؛ فلو كانَ صَيفاً كلُّهُ لفاتَت منافعُ مصالحِ الشتاءِ، ولو كانَ شتاءً لفاتَت منافعُ الصَّيفِ، وكذلكَ لو كانَ ربيعاً كلُّهُ، أو خَريفاً كلُّهُ.

ففي الشتاءِ تَغُورُ الحرارةُ في الأجوافِ وبُطونِ الأرضِ والجبالِ فتتولَّدُ موادُّ الثِّمار وغيرها، وتبرُدُ الظَّواهرُ ويُستكثفُ الهواءُ فيه، فيحصلُ السَّحابِ والمطرُ والثَّلجُ والبَرَدُ الذي به حياةُ الأرضِ وأهلِها، واشتدادُ أبدانِ الحيوانِ وقوَّتُها، وتَزَايُدُ القوى الطَّبيعيَّةِ واستخلافُ ما حلَّلهُ حرارَةُ الصَّيفِ منَ الأبدانِ.

وفي الرَّبيع تَتَحرَّكُ الطَّبائعُ وتظهرُ الموادُّ المُتولِّدَةُ في الشتاء، فيظهرُ النَّباتُ، ويتنوَّرُ الشجرُ بالزَّهْرِ، ويتحرَّكُ الحيوانُ للتَّناسُلِ.

وفي الصَّيفِ يحتدُّ الهواءُ ويسخُنُ جدًّا فتنضجُ الثِّمارُ وتنحلُّ فَضَلاتُ الأبدانِ والأخلاطُ التي انعَقَدتْ في الشتاء وتَغُورُ البُرودَةُ

وتَهرُبُ إلى الأجوافِ، ولهذا تبردُ العيونُ والآبارُ ولا تهضِمُ المعدةُ الطَّعامَ التي كانت تَهضِمهُ في الشتاءِ من الأطعمَةِ الغليظَةِ؛ لأنَّها كانت تهْضِمُها بالحرارَةِ التي سكنت في البطونِ، فلمَّا جاءَ الصَّيفُ خَرَجَت الحرارَةُ إلى ظاهر الجَسَدِ، وغارَت البرودَةُ فيه.

فإذا جاءَ الخريفُ اعتَدَلَ الزَّمانُ وصفا الهواءُ وبَرَدَ فانكَسَرَ ذلك السَّموم، وجعَلَهُ اللَّهُ بحكمتهِ برزخاً بينَ سَمومِ الصَّيفِ وبَردِ الشتاءِ لئلّا ينتقِلَ الحيوانُ وَهْلَةً واحدَةً منِ الحرِّ الشديد إلى البَردِ الشديد فيجدُ أذاهُ ويعظُمُ ضَرَرُهُ، فإذا انتقَلَ إليهِ بتدريجٍ وتَرتيبٍ لم يَصْعُبْ عليهِ فإنَّهُ عندَ كلِّ جزءٍ يَستعدُّ لقَبُولِ ما هوَ أشدُّ منه، حتى تأتي جمهرةُ البَردِ بعدَ استعدادٍ وقَبولٍ.

حِكمةٌ بالغَةٌ وآيَةٌ باهرَةٌ.

وكذلك الرَّبيعُ برزخٌ بينَ الشتاءِ والصَّيفِ ينتقلُ فيه الحيوانُ من بَردِ هذا إلى حَرِّ هذا بتَدريج وتَرتيبٍ.

فتباركَ اللَّهُ ربُّ العالمين وأحسَنُ الخالقين.

[الشمس وإنارتها لجوانب الأرض]

ثُمَّ تأمَّلِ الحِكمَةَ في طُلوعِ الشمسِ على العالَم، كيفَ قدَّرهُ العَزيزُ العليمُ سبحانهُ، فإنَّها لو كانَت تَطلُعُ في موضعٍ من السَّماءِ فتقفُ فيهِ ولا تَعْدُوهُ لَمَا وصَلَ شعاعُها إلى كثيرٍ من الجهاتِ؛ لأنَّ ظِلَّ أحَدِ جوانبِ كُرَةِ الأرضِ يحجبُها عن الجانبِ الآخَرِ، فكانَ يكونُ الليلُ دائماً سرمداً على مَنْ لم تَطْلُع عليهم، والنَّهارُ دائماً سَرْمداً على مَنْ هي طالعَةٌ عليهم، فيفسدُ هؤلاءِ وهؤلاءِ.

فاقتَضَت الحكمَةُ الإلهيَّةُ والعنايَةُ الربَّانيَّةُ أنْ قدَّرَ طلوعَها من أوَّلِ النَّهارِ من المشرقِ، فَتُشْرِقُ على ما قابَلَها من الأُفُقِ الغَربيِّ،

ثمَّ لا تزالُ تدورُ وتَغشى جهَةً بَعدَ جهَةٍ حتى تَنتهيَ إلى المغربِ، فَتُشْرِقَ على ما استَتَرَ عنها في أوَّلِ النَّهارِ فيختلفَ عندهم الليلُ والنَّهارُ فتنتظمَ مصالحُهم.

[الشمس والقمر والليل والنهار]

ثمَّ تأمَّلْ حالَ الشمسِ والقمرِ في طلوعهما وغروبِهما لإقامَةِ دَولَتي الليلِ والنَّهارِ، ولولا طلوعُهما لبَطَلَ أمرُ العالَم، وكيفَ كانَ النَّاسُ يَسْعَونَ في معايِشِهم، ويتصرَّفونَ في أُمورِهم، والدُّنيا مُظلمَةٌ عليهم؟! وكيفَ كانوا يتهنَّوْنَ بالعَيش مع فَقْدِ النُّورِ؟! ثمَّ تأمَّل الحكمَة في غُروبها؛ فإنَّهُ لولا غُروبُها لم يكُن للنَّاسِ هدوءٌ ولا قرارٌ مع فَرْطِ الحاجَةِ إلى السُّباتِ وجُمومِ الحواسِّ وانبعاثِ القوى الباطنَةِ وظهورِ سُلطانها في النَّومِ المُعِينِ على هَضمِ الطَّعامِ وتَنفيذِ الغذاءِ إلى الأعضاءِ.

ثمَّ لولا الغروبُ لكانَت الأرضُ تَحْمَى بدوامِ شروقِ الشمسِ واتِّصالِ طلوعها حتى يحترقَ كلُّ ما عليها من حيوانٍ ونباتٍ، فَصارَت تطلعُ وقتاً بمنزلةِ السِّراجِ يُرْفَعُ لأهلِ البيتِ ليقضُوا حوائجَهم، ثمَّ تَغيبُ عنهم مثلَ ذلكَ ليقرُّوا ويَهدؤوا، وصارَ ضياءُ النَّهارِ مع ظَلامِ الليلِ وحرُّ هذا مع بَردِ هذا ـ مع تضادِّهما ـ متعاوِنَيْنِ متظاهِرَيْنِ، بهما تمامُ مصالح العالم.

وقَد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبَّهَ عبادَهُ عليهِ بقولهِ ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

وخَصَّ سبحانهُ النَّهارَ بذكرِ البَصَرِ لأنَّهُ مَحَلُّهُ، وفيهِ سُلطانُ البَصرِ وتصرُّفُه.

وخَصَّ الليلَ بذكرِ السَّمعِ لأنَّ سُلطانَ السَّمعِ يكونُ بالليلِ، وتَسمعُ فيه الحيواناتُ ما لا يسمعُ في النَّهارِ لأنَّهُ وقتُ هدوءِ الأصواتِ وخُمودِ الحركاتِ، وقُوَّةِ سُلطانِ السمعِ وضعفِ سلطانِ البَصَرِ، والنَّهارُ بالعَكسِ؛ فيهِ قوَّةُ سُلطانِ البَصرِ وضعفُ سلطانِ السمعِ فقولُه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ راجعٌ إلى قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم﴾ به.

وقولُه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]، فذكر تعالى خَلْقَ الليلِ والنَّهارِ، وأنَّهما خِلفَةٌ، أي: يخلُفُ أحدُهما الآخرَ لا يجتمعُ معهُ، ولو اجتمعَ معه لفاتَت المصلَحةُ بتعاقُبِهما واختلافِهما.

وهذا هو المُرادُ باختلافِ الليلِ والنَّهارِ، كونُ كلٍّ واحدٍ منهما يخلُفُ الآخَرَ لا يجامِعُهُ ولا يُحايِثُهُ، بل يَغشى أحدُهما صاحبَهُ فيطلبهُ حثيثاً حتى يُزيلَهُ عن سُلطانهِ، ثمَّ يجيءُ الآخَرُ عَقِيبَهُ فيطلُبُهُ حثيثاً حتى يَهزِمَهُ ويُزيلَهُ عن سُلطانهِ، فهما يتطالبان ولا يُدرِكُ أحدُهما صاحبَهُ.

[الليل والنهار آيتان من آيات الله]

ومن آياتهِ ﷻ الليلُ والنَّهارُ، وهما من أعجَبِ آياتهِ وبدائعِ مصنوعاتهِ، ولهذا يُعيدُ ذِكْرَهما في القرآنِ ويُبدئُهُ.

كقولِه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقولـه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقولـه ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

وقولـه ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١].

وهذا كثيرٌ في القرآنِ.

فانظُر إلى هاتين الآيتين وما تَضمَّنَتاهُ من العِبَرِ والدَّلالاتِ على ربوبيَّةِ اللَّهِ وحِكمتِهِ، كيفَ جَعَلَ الليلَ سَكَناً ولباساً يغشى العالَمَ فتسكنُ فيهِ الحَرَكاتُ، وتأوي الحيواناتُ إلى بيوتها، والطَّيرُ إلى أوكارها، وتستجمُّ فيه النُّفوسُ وتستريحُ من كدِّ السَّعيِ والتَّعَبِ.

حتى إذا أخَذَتْ منه النُّفوسُ راحَتَها وسُباتَها، وتطلَّعَتْ إلى معايشها وتصرُّفها، جاءَ فالِقُ الإصباح ﷻ بالنَّهارِ يَقْدُمُ جيشَهُ بشيرُ الصَّباحِ فهَزَمَ تلكَ الظُّلمَةَ ومزَّقَها كلَّ مُمزَّقٍ، وأزالَها، وكشفَها عن العالَم فإذا هم مُبصرونَ، فانتَشرَ الحيوانُ وتَصرَّفَ في معاشِهِ ومصالحِهِ وخَرَجَتِ الطُّيورُ من أوكارها.

فيا لهُ من مَعادٍ ونشأةٍ دالٍّ على قُدرَةِ اللَّهِ سبحانهُ على المعادِ الأكبرِ، وتكرُّرُه ودوامُ مُشاهَدَةِ النُّفوسِ له بحيثُ صارَ عادَةً ومَألَفاً مَنَعَها عن الاعتبارِ به والاستدلالِ به على النَّشأةِ الثَّانيَةِ وإحياءِ الخَلْقِ بَعدَ مَوتهم، ولا ضَعْفَ في قُدرَةِ القادرِ التَّامِّ القُدرَةِ ولا قُصورَ في حكمتِهِ ولا في علمِهِ يُوجِبُ تخلُّفَ ذلك، ولكنَّ اللَّهَ يَهدي من يشاءُ ويُضلُّ من يشاءُ.

وهذا أيضاً من آياتهِ الباهرَةِ أنْ يَعْمَىٰ عن هذه الآياتِ الواضحَاتِ البيِّنَاتِ مَن شاءَ مِن خلقهِ فلا يَهتَدي بها ولا يُبصرها كَمَن هو واقفٌ في الماءِ إلى حَلقهِ وهو يَستغيثُ مِن العَطَشِ ويُنكِرُ وجودَ الماءِ!

وبهذا وأمثالهِ يُعرَفُ اللَّهُ ﷻ ويُشكرُ ويُحمَدُ ويُتَضرَّعُ إليهِ ويُسألُ.

[مقادير الليل والنهار]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمَةَ في مقاديرِ الليلِ والنَّهارِ تجدْها على غايَةِ المصلَحَةِ والحكمَةِ، وأنَّ مِقدارَ اليوم والليلةِ لو زادَ على ما قُدِّرَ عليهِ أو نَقَصَ لفاتَت المصلَحَةُ واختَلَفَتِ الحكمَةُ بذلك، بل جَعَلَ مِكْيالَهُما أربَعَة وعشرينَ ساعَةً، وجعلا يتعارضانِ الزيادَةَ والنُّقصانَ بينهما، فما يَزيدُ في أحدِهما من الآخرِ يعودُ الآخرُ فيستردُّهُ منه.

قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣]، وفيه قولانِ:

أحدُهما: أنَّ المعنى: يُدخِلُ ظُلمَةَ هذا في مكانِ ضياءِ ذلكَ، وضياءَ هذا في مكانِ ظُلمَةِ الآخَرِ، فَيُدْخِلُ كلَّ واحدٍ منهما في موضعِ صاحبهِ.

وعلى هذا فهي عامَّةٌ في كلِّ ليلٍ ونهارٍ.

والقول الثَّاني: أنَّهُ يزيدُ في أحدِهما ما يَنْقُصُهُ من الآخرِ، فما نَقَصَ منه يلجُ في الآخَرِ لا يَذهَبُ جملَةً.

وعلى هذا فالآيَةُ خاصَّةٌ ببَعضِ ساعاتِ كُلٍّ من الليلِ والنَّهارِ في غيرِ زَمَنِ الاعتدالِ، فهي خاصَّةٌ في الزَّمانِ وفي مِقْدارِ

ما يلجُ في أحدِهما من الآخَر، وهو في الأقاليم المُعتدلَةِ غايَةُ ما تَنتهي الزيادَةُ خمسَ عَشْرَةَ ساعَةً، فيصيرُ الآخَرُ تسعَ ساعاتٍ، فإذا زادَ على ذلكَ انحرَفَ ذلكَ الإقليمُ في الحرارَةِ أو البُرودَةِ إلى أن ينتهي إلى حدٍّ لا يَسْكُنُهُ الإنسانُ ولا يتكوَّنُ فيه النَّباتُ، وكلُّ موضعٍ لا تَقعُ عليهِ الشمسُ لا يَعيشُ فيه حيوانٌ ولا نباتٌ لفَرْطِ بَردِهِ ويُبسهِ، وكلُّ موضعٍ لا تُفارِقُهُ كذلكَ لفَرْطِ حرِّهِ ويُبسهِ.

والمواضعُ التي يَعيشُ فيها الحيوانُ والنَّباتُ هي التي تَطلعُ عليها الشمسُ وتَغيبُ وأعدلُها المواضعُ التي تتعاقَب عليها الفصولُ الأربَعةُ ويكونُ فيها اعتدالان: خَريفيٌّ ورَبيعِيٌّ.

[تبديد الظلمة بضوء القمر والكواكب]

ثمَّ تأمَّلْ إنارةَ القمرِ والكواكبِ في ظُلمَةِ الليلِ والحِكمَةَ في ذلكَ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى اقتَضَتْ حِكمتُهُ خَلْقَ الظُّلمَةِ لهدوءِ الحيوانِ وبَردِ الهواءِ على الأبدانِ والنَّباتِ، فَتُعادِلُ حرارَةَ الشمسِ فيقومُ النَّباتُ والحيوانُ.

فلمّا كانَ ذلك مُقتَضى حكمتهِ شابَ الليلَ بشيءٍ من الأنوارِ ولم يجعلْهُ ظُلمَةً داجِيَةً حِنْدِساً[1] لا ضوءَ فيهِ أصلاً، فكانَ لا يتمكَّنُ الحيوانُ فيه من شيءٍ من الحركةِ ولا الأعمالِ.

ولمّا كانَ الحيوانُ قَد يحتاجُ في الليلِ إلى حَرَكَةٍ ومَسيرٍ وعلم لا يتهيَّأُ لهُ بالنَّهارِ لضيقِ النَّهارِ أو لشدَّةِ الحرِّ أو لخوفهِ بالنَّهارِ ـ كحالِ كثيرٍ من الحيوانِ ـ جَعَلَ في الليلِ من أضواءِ

---

(١) هي الليل المظلم.

الكواكبِ وضوءِ القمرِ ما يتأتّى مَعَهُ أعمالٌ كثيرةٌ كالسَّفَرِ والحرثِ وغير ذلكَ من أعمالِ أهلِ الحُروثِ والزُّروعِ فَجَعَلَ ضوءَ القمرِ بالليلِ معونَةً للحيوانِ على هذه الحركاتِ، وجَعَلَ طُلوعَهُ في بَعضِ الليلِ دونَ بعَضٍ مع نَقصِ ضوئهِ عن الشمسِ لئلّا يَستويَ الليلُ والنَّهارُ فتفوتَ حكمَةُ الاختلافِ بينهما والتَّفاوتِ الذي قَدَّرهُ العزيزُ العليمُ.

فتأمَّلِ الحِكْمَةَ البالغَةَ والتَّقْديرَ العجيبَ الذي اقْتَضى أنْ أعانَ الحيوانَ على دولَةِ الظَّلامِ بجُندٍ من النُّورِ يستعينُ بهِ على هذه الدَّولَةِ المُظلمَةِ، ولم يَجعَلِ الدَّولة كُلَّها ظُلمةً صِرْفاً بل ظلمة مَشْوبَةً بنورٍ، رحمةً منهُ وإحساناً، فَسُبحانَ مَن أَتْقَنَ ما صَنَعَ وأحسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ.



الفصل الثاني

كوكب الأرض

[الأرض من الآيات العظيمة]

وإذا نَظرْتَ إلى الأرضِ وكيفَ خُلِقَت رأَيْتَها من أعظم آياتِ فاطرها وبديعها، خَلَقَها سبحانهُ فِراشاً ومِهاداً، وذلَّلها لعبادهِ، وجَعَلَ فيها أرزاقَهم وأقواتَهم ومعايشَهم، وجَعَلَ فيها السُّبُلَ لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرُّفاتهم، وأرساها بالجبالِ فجعلها أوتاداً تحفظُها لئلّا تميدَ بهم، ووسَّعَ أكنافَها ودحاها، فمدَّها وبَسَطَها، وطحاها فوسَّعها من جوانبها، وجعلها كِفاتاً للأحياءِ تضمُّهُم على ظَهرها ما داموا أحياءً، وكِفاتاً للأمواتِ تضمُّهُم في بطنها إذا ماتوا فظَهرها وطنٌ للأحياءِ، وبَطْنُها وطنٌ للأمواتِ.

[دعوة القرآن إلى النظر إلى الأرض]

وقَد أكثَرَ تعالى مِن ذكرِ الأرضِ في كتابهِ، ودعا عبادَهُ إلى النَّظرِ إليها، والتَّفكُّرِ في خلقها؛ فقال تعالى:

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ

رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]. . .

وهذا كثيرٌ في القرآنِ.

[سكون الأرض واستقرارها]

ثمَّ تأمَّلْ خَلْقَ الأرضِ على ما هيَ عليهِ حينَ خُلِقتْ واقفَةً ساكنَةً لتكونَ مِهاداً، ومُستقرًّا للحيوانِ والنَّباتِ والأمتعَةِ، ويتمكَّنَ الحيوانُ والنَّاسُ منَ السَّعْيِ عليها في مآربهم والجلُوسِ لراحاتهم والنومِ لهدوئهم من أعمالهم، ولو كانَت رَجْراجَةً مُنْكفئةً لم يستطيعوا على ظَهرها قراراً ولا هدوءاً، ولا ثَبَتَ لهم عليها بناءٌ، ولا أمكنهم عليها صناعَةٌ ولا تجارَةٌ ولا حراثَةٌ ولا مصلَحَةٌ، وكيفَ كانوا يتهنَّوْنَ بالعَيشِ والأرضُ تَرتَجُّ من تَحتهم!

واعْتَبِرْ ذلكَ بما يُصيبهم من الزَّلازلِ ـ على قلَّةِ مُكْثِها ـ كيفَ تُصيِّرهم إلى تَركِ منازلهم والهَرَبِ عنها، وقَد نبَّهَ اللَّهُ تعالى على ذلكَ بقولهِ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]، وفي القراءَةِ الأخرى: مِهاداً.

وفي «جامعِ التِّرمذي»[١] وغيرهِ من حديثِ أَنَسِ بن مالكٍ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «لمَّا خَلَقَ اللَّهُ الأرضَ جَعَلت تَميدُ، فخَلَقَ الجبالَ عليها فاستقرَّت، فعجبَت الملائكَةُ من شدَّةِ الجبالِ!

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٣٦٩) وضعفه الألباني.

فقالوا: يا ربِّ، هل مِن خَلْقِكَ شيءٌ أشدُّ من الجبالِ؟ قال: نعم، الحديدُ، قالوا: يا ربِّ، هل مِن خَلْقِكَ شيءٌ أشدُّ من الحديد؟ قال: نَعم، النَّارُ، قالوا: يا ربّ، فهَل مِن خَلقِكَ شيءٌ أشدُّ من النَّارِ؟ قال: نعم، الماء، قالوا: يا ربِّ، هل من خلقِك شيءٌ أَشدُّ من الماء؟ قال: نَعم، الرِّيح، قالوا: يا ربّ، فَهَل من خلقِكَ شيءٌ أشدُّ من الرِّيح؟ قال: نَعم، ابنُ آدمَ يتصدَّقُ صَدَقةً بيمينِه يُخفيها عن شمالِهِ».

[الأرض لينة يابسة]

ثمَّ تأمَّل الحِكمةَ البالغَةَ في لُيونَةِ الأرضِ مع يُبْسِها؛ فإنَّها لو أفرَطَت في اللِّينِ كالطِّينِ لم يستَقرَّ عليها بناءٌ ولا حيوانٌ ولا تمكَّنَّا من الانتفاعِ بها، ولو أفرَطَتْ في اليُبسِ كالحَجَرِ لم يُمكنْ حرثُها ولا زرعُها ولا شقُّها وفلحُها ولا حفرُ عيونها ولا البناءُ عليها؛ فَنَقَصَت عن يُبسِ الحجارَةِ وزادَت على لُيونَةِ الطِّينِ، فجاءَت بتقديرِ ربِّها فاطرها على أحسَنِ ما جاءَ عليهِ مِهادُ الحيوانِ من الاعتدالِ بينَ اللِّينِ واليُبُوسَةِ فَتُهَيَّأُ عليها جميعُ المصالح.

[تنوّع الأرض بين سهل وجبل]

ولمَّا اقتَضَتْ حكمتُهُ تبارَكَ وتعالى أنْ جَعَلَ منَ الأرضِ السَّهْلَ والوَعْرَ والجبالَ والرِّمالِ ليُنتَفَعَ بكلِّ ذلكَ في وجهِهِ ويَحصُلَ منه ما خُلِقَ له، وهُيِّئت الأرضُ بهذه المثابَةِ: لزم من ذلكَ أنْ صارَت كالأُمِّ التي تَحملُ في بطنها أنواعَ الأولادِ من كلِّ صنفٍ ثمَّ تُخرجُ للنَّاسِ والحيوانِ من ذلكَ ما أَذِنَ لها فيهِ ربُّها أنْ تُخرِجَهُ، إمَّا بعلمهم، وإمَّا بدونهِ، ثمَّ يَرُدَّ إليها ما خَرَجَ منها.

وجَعَلها سبحانهُ كِفاتاً[1] للأحياءِ ما داموا على ظَهرها، فإذا ماتوا استَودَعتْهُم في بَطنها فكانَت كفاتاً لهم؛ تضمُّهم على ظَهرها أحياءً وفي بَطنها أمواتاً، فإذا كانَ يومُ الوَقتِ المَعلومِ وقَد أثقَلَها الحَمْلُ وحانَ وقتُ الولادَةِ ودُنُوِّ المخاضِ أوحى إليها ربُّها وفاطرُها أنْ تَضَعَ حملَها وتُخرجَ أثقالها فتُخرجَ النَّاسَ من بَطنها إلى ظَهرها، وتقولُ: ربِّ هذا ما استَودَعتَني، وتُخرجُ كنوزَها بإذنِهِ تعالى، ثمَّ تُحدِّثُ أخبارَها وتَشهدُ على بَنيها بما عملوا على ظَهرها من خَيرٍ وشرٍّ.

[سعة الأرض وامتدادها]

ومن ذلكَ سَعَةُ الأرضِ وامتدادُها، ولولا ذلكَ لضاقَتْ عن مساكنِ الإنسِ والحيوانِ وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابتِ ثمارهم وأعشابهم.

فإنْ قلتَ: فما حِكمَةُ هذه القِفارِ الخاليَةِ والفَلَواتِ الفارغَةِ المُوحشَةِ؟

فاعلَمْ أنَّ فيها معايشَ ما لا يُحصيهِ إلا اللَّهُ منَ الوحوشِ والدَّوابِّ، وعليها أرزاقُهم وفيها مَطْرَدُهُم ومنزلُهم كالمدنِ والمساكنِ للإنسِ، وفيها مجالُهم ومرعاهم وَمَصِيفُهم ومَشْتاهُم، ثمَّ فيها ـ بعدُ ـ مُتَّسَعٌ ومُتَنَفَّسٌ للنَّاسِ ومُضْطَرَبٌ إذا احتاجوا إلى الانتقالِ والبَدْوِ والاستبدالِ بالأوطانِ، فكم من بيداءَ سَمْلَقٍ[2] صارَت قُصوراً وجِناناً ومساكنَ، ولولا سعَةُ الأرضِ وفسحُها لكانَ أهلُها كالمحصورينَ والمحبوسينَ في أماكنهم لا يجدونَ

---

(١) الكفت: الضم.

(٢) أي قاعاً صفصفا.

عنها انتقالاً إذا فَدَحَهم ما يُزْعجُهم عنها ويضطرُّهم إلى النُّقلَةِ منها.

[إحياء الأرض بنزول المطر]

فانظُرْ إليها وهي ميّتةٌ هامِدَةٌ خاشعَةٌ، فإذا أنزلْنا عليها الماءَ اهتزَّت فتحرَّكَت، ورَبَتْ فارتَفَعَت، واخضرَّت وأنبَتَت من كلِّ زوجٍ بهيجٍ، فأخرَجَت عجائبَ النَّباتِ في المنظرِ والمَخْبَرِ، بهيجٍ للنَّاظرينَ، كريمٍ للمُتناوِلينَ، فأخرَجَتِ الأقواتَ على اختلافِها وتبايُنِ مقاديرها وأشكالِها وألوانِها ومنافِعها، والفواكهَ والثِّمارَ، وأنواعَ الأدوِيَةِ ومراعي الدَّوابِّ والطَّيرِ.

ثمَّ انظر إلى قِطَعِها المُتجاوراتِ، وكيفَ ينزلُ عليها ماءٌ واحدٌ فَتُنْبِتُ الأزواجَ المختلفَةَ المُتباينةَ في اللونِ والشكلِ والرَّائحَةِ والطَّعم والمنفعَةِ واللِّقاحُ واحدٌ، والأمُّ واحدَةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، فكيفَ كانَت هذه الأجنَّةُ المُختلفَةُ مُودَعةً في بطنِ هذه الأمِّ؟ وكيفَ كانَ حَمْلُها من لقاحٍ واحدٍ؟ صُنْعَ اللّهِ الذي أتْقَنَ كلَّ شيءٍ، لا إلهَ إلّا هو.

ولولا أنَّ هذا من أعظمِ آياتهِ لما نبَّهَ عليهِ عبادَهُ ودعاهم إلى التَّفكُّرِ فيه.

قال اللّهُ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ

فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧]، فجعَلَ النَّظَرَ في هذه الآيَةِ وما قبلَها من خَلقِ الجَنينِ دليلاً على هذه النَّتائجِ الخَمسِ مُستلزماً للعمل بها.

[نزول المطر من العلو]

ثمَّ تأمَّلِ الحِكمَةَ البالغَةَ في نُزولِ المَطرِ على الأرضِ مِن عُلُوٍّ ليعُمَّ بسقيهِ وِهادَها وتِلالَها وظِرابَها وآكامَها ومُنخفضَها ومرتفعَها، ولو كانَ ربُّها تعالى إنَّما يَسقيها من ناحيَةٍ من نواحيها لَمَا أتى الماءُ على النَّاحيَةِ المُرتفعَةِ إلّا إذا اجتمَعَ في السُّفلى وكَثُرَ، وفي ذلك ضَررٌ وفسادٌ، فاقتَضَتْ حِكمتُهُ أنْ سقاها مِن فوقها فينشئ سبحانُه السَّحابَ ـ وهي رَوَايا الأرضِ ـ ثمَّ يُرسِلُ الرِّياحَ فتحملُ الماءَ من البَحرِ وتلقحُها به كما يلقحُ الفَحلُ الأُنثى، ولهذا تَجدُ البلادَ القَريبةَ من البَحرِ كثيرَةَ الأمطارِ، وإذا بَعُدَت من البَحرِ قلَّ مطرُها.

وفي هذا المعنى يقولُ الشاعرُ يَصِفُ السَّحابَ:

شَرِبْنَ بماءِ البَحرِ ثمَّ تَرفَّعَتْ   متى لُججٍ خُضْرٍ لهنَّ نئيجُ(١)

وفي «الموطَّأ» مرفوعاً ـ وهو أحدُ الأحاديثِ الأربَعَةِ المقطوعَةِ ـ: (إذا نشأت سحابةٌ بحريَّةٌ ثمَّ تشاءَمَت فتلك عينٌ غُدَيْقَةٌ)(٢)؛ فاللَّهُ سبحانُه يُنْشِئُ الماءَ في السَّحابِ إنشاءً، تارَةً يُقلِّبُ الهواءَ ماءً، وتارَةً يحملُهُ الهواءُ منَ البَحرِ فَيُلقِّحُ به

---

(١) النئيج: الحركة السريعة.

(٢) وقوله: «نشأت» أي: ابتدأت.
وقوله: «بحريّة» أي: من ناحية البحر.
وقوله: «تَشاءَمت» أي: أخذت نحوَ الشام.
وقوله: «عين غُديقة» أي: سحاب كثير الماء.

السَّحابَ ثمَّ ينزلُ منهُ على الأرضِ للحِكَمِ التي ذكرناها، ولو أنَّهُ ساقَهُ منَ البَحرِ إلى الأرضِ جارياً على ظَهرِها لم يَحصُل عمومُ السَّقي إلّا بتخريبِ كثيرٍ من الأرضِ، ولم يحصُلْ عُمومُ السَّقْيِ لأجزائها، فصاعَدَهُ سبحانهُ إلى الجوِّ بلُطفهِ وقُدرتهِ ثمَّ أنزلَهُ على الأرضِ بعنايةٍ من اللُّطفِ والحكمَةِ التي لا اقتراحَ لجميعِ عُقولِ الحُكَماءِ فوقها فأنزلَهُ ومعهُ رحمتُهُ على الأرضِ.

[إنزال المطر بقدر الحاجة]

ثمَّ تأمَّلِ الحِكمَةَ البالغَةَ في إنزالهِ بقَدْرِ الحاجَةِ حتى إذا أخَذَتِ الأرضُ حاجَتَها منهُ ـ وكانَ تتابعُهُ عليها بَعدَ ذلكَ يضرُّها ـ أقلَعَ عنها وأعقَبهُ بالصَّحْوِ، فهما ـ أعني الصَّحوَ والتَّغييمَ ـ يَعْتَقِبانِ على العالَمِ لما فيه صلاحُهُ، ولو دامَ أحدُهما كانَ فيه فسادُهُ، فلو توالَت الأمطارُ لأهلَكَت ما على الأرضِ، ولو زادَت على الحاجَةِ أفسَدَت الحُبوبَ والثِّمارَ، وعَفّنتِ الزروعَ والخضرواتِ وأرْخَتِ الأبدانَ، وخَثَّرَتِ الهواءَ، فحدَثَت ضروبٌ منَ الأمراضِ، وفَسَدَ أكثرُ المآكلِ، وتقطَّعَت المسالكُ والسُّبُلُ، ولو دامَ الصَّحْوُ لجفَّت الأبدانُ، وَغِيضَ الماءُ، وانقَطَعَ مَعينُ العيونِ والآبارِ والأنهارِ والأوديَةِ، وعَظُمَ الضَّرَرُ، واحْتَدَمَ الهواءُ، فيبِسَ ما على الأرضِ، وجفَّت الأبدانُ، وغَلَبَ اليُبْسُ، وأحدَثَ ذلكَ ضُروباً من الأمراضِ عَسِرَةَ الزَّوالِ.

فاقتَضَتْ حِكمَةُ اللطيفِ الخَبيرِ أنْ عاقَبَ بينَ الصَّحْوِ والمَطر على هذا العالَم، فاعتَدَلَ الأمرُ، وصحَّ الهواءُ، ودفعَ كلُّ واحدٍ منهما عادِيَةَ الآخَرِ، واسْتقامَ أمرُ العالَمِ وصَلَحَ.

[النظر في الجبال]

ثمَّ انظُرْهُ كيفَ أَحْكَمَ جوانبَ الأرضِ بالجبالِ الرَّاسياتِ الشوامخِ الصُّمِّ الصِّلابِ؟ وكيفَ نَصَبها فأحسَنَ نَصْبَها؟ وكيفَ رَفَعها وجَعلها أصلَبَ أجزاءِ الأرضِ لئلّا تَضْمحِلَّ على تطاوُلِ السِّنين وترادُفِ الأمطارِ والرِّياحِ، بل أَتْقَنَ صُنْعَها وأحْكَمَ وَضْعَها، وأودَعَها من المنافعِ والمعادنِ والعُيونِ ما أَوْدَعَهَا، ثمَّ هدى النَّاسَ إلى استخراجِ تلكَ المعادنِ منها، وألْهَمَهُم كيفَ يَصنعونَ منها النّقودَ والحُلِيَّ والزِّينَةَ واللباسَ والسِّلاحَ وآلاتِ المعاشِ على اختلافها، ولولا هدايتُهُ سبحانهُ لهم إلى ذلكَ لَمَا كانَ لهم علمُ شيءٍ منهُ ولا قُدرَةٌ عليهِ.

ثمَّ تأمَّلِ الحكمَةَ العجيبَةَ في الجبالِ التي قد يحسبُها الجاهلُ الغافلُ فضلَةً في الأرضِ لا حاجَةَ إليها! وفيها مَن المنافِع ما لا يُحصيهِ إلّا خالقُها وناصبُها.

وفي حديثِ إسلامِ ضِمامِ بن ثَعلَبَةَ[1] قولُهُ للنَّبيِّ ﷺ: بالذي نَصَبَ الجبالَ وأودَعَ فيها المنافعَ، آللَّهُ أمَرَكَ بكذا وكذا؟! قال: (اللهمَّ نَعَم).

[منافع الجبال]

فمن منافِعها: أنَّ الثَّلجَ يَسقطُ عليها فيَبقى في قُلَلِها حاضِناً لشرابِ النَّاسِ إلى حينِ نفادِهِ، وجُعِلَ فيها ليذوبَ أوَّلاً فأوَّلاً، فتجيءَ منهُ السُّيولُ الغزيرَةُ، وتَسيلَ منهُ الأنهارُ والأودِيَةُ، فيَنبتَ في المُروجِ والوِهادِ والرُّبىٰ ضروبُ النَّباتِ والفواكهِ والأدويَةِ التي لا يكونُ مِثلُها في السَّهلِ والرَّمْلِ.

---

(١) رواه النسائي (٢٠٩١ ـ ٢٠٩٣) وأبو داود (٤٨٦ ـ ٤٨٧) وابن ماجه (١٤٠٢) والدارمي (٦٥١ ـ ٦٥٢) وأصله متفق عليه دون موضع الشاهد في الجميع.

فلولا الجبالُ لسَقَطَ الثَّلجُ على وجهِ الأرضِ فانحلَّ جُملَةً وساحَ دفعَةً فَعُدِمَ وقتَ الحاجَةِ إليهِ وكانَ في انحلالهِ جُملَةُ السُّيولِ التي تُهْلِكُ ما مرَّت عليه فيضرّ بالنَّاسِ ضَرَراً لا يُمكنُ تلافيهِ ولا دَفعُهُ لأذيَّتِهِ.

ومن منافعها: ما يكونُ في حُصونها وقُلَلِها من المغاراتِ والكهوفِ والمعاقلِ التي هي بمنزلَةِ الحُصونِ والقِلاعِ، وهي أيضاً أَكْنانٌ للنَّاسِ والحيوانِ.

ومِن منافعها: ما يُنحَتُ من أحجارها للأبنيَةِ على اختلافِ أصنافها والأرحِيَةِ[1] وغيرها.

ومن منافعها: ما يُوجَدُ فيها من المعادنِ على اختلافِ أصنافها من الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ والحَديدِ والرَّصاصِ والزَّبَرْجَدِ وأضعافِ ذلكَ من أنواعِ المعادنِ الذي يعجزُ البَشرُ عن معرفتها على التَّفصيل، حتى إنَّ فيها ما يكونُ الشيءُ اليَسيرُ منهُ تَزيدُ قيمتُهُ ومنفعتهُ على قيمَةِ الذَّهبِ بأضعافٍ مضاعَفَةٍ، وفيها من المنافعِ ما لا يعلمهُ إلّا فاطرُها ومُبدعُها سبحانه وتعالى.

ومن منافعها أيضاً: أنَّها تَرُدُّ الرِّياحَ العاصفَةَ وتكسرُ حدَّتَها فلا تَدَعُها تَصدُمُ ما تَحتَها، ولهذا فالسَّاكنونَ تَحتها في أمانٍ مِنَ الرِّياحِ العِظَامِ المُؤذيَةِ.

ومِن منافعها أيضاً: أنَّها تَرُدُّ عنهم السُّيولَ إذا كانت في مجاريها فتَصرفُها عنهم ذاتَ اليَمينِ وذاتَ الشمالِ، ولولاها لأَخْرَبَت السُّيولُ في مجاريها ما مرَّت به فتكون لهم بمنزلَةِ السَّدِّ والسَّكَن.

---

(١) الأرحية: الأداة التي يطحن بها.

ومن منافعها: أنَّها أعلامٌ يُستَدلُّ بها في الطُّرقاتِ، فهي بمنزِلَةِ الأدلَّةِ المَنصوبَةِ المُرْشِدَةِ إلى الطُّرقِ، ولهذا سمَّاها اللَّهُ أعلاماً؛ فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢] فالجواري: هيَ السُّفُنُ، والأعلامُ: الجبالُ؛ واحدُها عَلَمٌ.

قالت الخنساءُ:

وإنَّ صَخْراً لتأتمُّ الهُداةُ بهِ كأنَّهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ

فسمَّى الجبَلَ عَلَماً؛ من العلامَةِ والظُّهورِ.

ومِن منافعها أيضاً: ما يَنبتُ فيها من العقاقيرِ والأدويَةِ التي لا تكونُ في السُّهولِ والرِّمالِ، كما أنَّ ما يَنبتُ في السُّهولِ والرِّمالِ لا يَنبتُ مثلُهُ في الجبالِ، وفي كلٍّ من هذا وهذا منافعُ وَحِكَمٌ لا يُحيطُ به إلّا الخلَّاقُ العليمُ.

ومِن منافعها: أنَّها تكونُ حُصوناً من الأعداءِ يتحرَّزُ فيها عبادُ اللَّهِ من أعدائهم كما يتحصَّنونَ بالقلاعِ، بل تكونُ أبلغ وأحصَنَ من كثيرٍ من القلاعِ والمُدنِ.

ومن منافعها: ما ذكرَهُ اللَّهُ تعالى في كتابهِ أنّه جعَلها للأرضِ أوتاداً تُثَبِّتُها ورواسيَ بمنزلَةِ مراسي السُّفنِ، وأعظِمْ بها منفعَةً وحِكمةً!

هذا وإذا تأمَّلْتَ خِلْقتَها العجيبَةَ البَديعَةَ على هذا الوَضعِ وَجَدْتَها في غايَةِ المُطابَقَةِ للحِكمَةِ؛ فإنَّها لو طالَتْ واستَدقَّتْ كالحائطِ لَتَعذَّرَ الصُّعودُ عليها والانتفاعُ بها وسَتَرت عن النَّاسِ الشمسَ والهواءَ فلم يتمكَّنوا من الانتفاعِ بها، ولو بُسِطَت على وجهِ الأرضِ لضيَّقَت عليهم المزارعَ والمساكنَ ولملأت السَّهلَ، ولَمَا حَصَلَ لهم بها الانتفاعُ من التَّحصُّنِ والمغاراتِ والأكْنانِ،

وَلَمَا سَتَرت عنهم الرِّيَاح، وَلَمَا حَجَبَت السُّيولَ، ولو جُعِلَت مَستَديرَةً شكلَ الكُرَةِ لم يتمكَّنوا من صُعودها، وَلَما حَصَلَ لهم بها الانتفاعُ التَّامُّ، فكانَ أَوْلى الأشكالِ والأوضاعِ بها وأليقَها وأوقعَها على وَفْقِ المَصلَحَةِ هذا الشكلُ الذي نُصِبَتَ عليهِ.

[دعوة القرآن إلى النظر إلى الجبال]

ولَقَد دعانا اللَّهُ سبحانهُ في كتابهِ إلى النَّظرِ فيها وفي كيفيَّةِ خَلقها، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

فَخَلْقُها ومنافعُها من أكبَرِ الشواهدِ على قُدرَةِ بارئها وفاطرها وعلمِهِ وحِكْمتهِ ووَحدانيَّتِهِ، هذا معَ أنَّها تُسبِّحُ بحمدهِ وتخشعُ لهُ وتَسجُدُ وتَشَقَّق وتَهبِطُ من خَشيَتِهِ.

وهي التي خافَت من ربِّها وفاطرها وخالقها على شدَّتها وعِظَمِ خَلقها منَ الأمانَةِ إذ عَرَضها عليها وأشفَقَت من حملها.

[جبال شرفّها الله تعالى]

ومنها الجبلُ الذي كلَّمَ اللَّهُ عليهِ موسى كليمَهُ ونجيَّهُ.

ومنها الجبلُ الذي تَجلَّى لهُ ربُّهُ فساخَ وتدكدك.

ومنها الجبَلُ الذي حبَّبَ اللَّهُ ورسولَهُ وأصحابَهُ إليهِ وأحبَّهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ وأصحابهُ[1].

ومنها الجبلانِ اللذانِ جعلهما اللَّهُ سوراً على بيتهِ، وجَعَلَ

---

(١) هو جبل أحد.

الصَّفا في ذيلِ أحدهما والمروَةَ في ذيلِ الآخَرِ، وشَرَعَ لعبادهِ السَّعيَ بينهما وجَعَلَهُ من مناسكِهم ومُتَعَبَّداتِهم.

ومنها جبلُ الرَّحمَةِ المَنصوبُ عليهِ ميدانُ عَرفاتٍ، فللَّهِ كَمْ من ذنبٍ مَغفورٍ وعَثرَةٍ مُقالَةٍ وزلَّةٍ مَعْفُوٍّ عنها وحاجَةٍ مَقْضيَّةٍ وكُرْبَةٍ مفروجَةٍ وبليَّةٍ مَدفوعَةٍ ونعمَةٍ مُتجدِّدَةٍ وسعادَةٍ مُكتَسَبَةٍ وشقاوةٍ ممحُوَّةٍ!

كيفَ وهو الجَبَلُ المخصوصُ بذلكَ الجمعِ الأعظمِ والوَفدِ الأكرمِ الذين جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميقٍ وقوفاً لربِّهِم مُستكينينَ لعظمتِهِ خاشعينَ لعزَّتهِ شُعْثاً غُبْراً حاسرينَ عن رؤوسهم يَستقيلونَهُ عَثراتِهِم ويسألونَهُ حاجاتِهِم، فَيَدنو منهم، ثمَّ يُباهي بهِم الملائكَةَ[1].

فللَّهِ ذاكَ الجبَلُ وما يَنزلُ عليهِ من الرَّحمَةِ والتَّجاوُزِ عن الذُّنوبِ العظامِ.

ومنها جبلُ حراءَ الذي كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يَخلو فيهِ بربِّهِ[2]، حتى أكرَمهُ اللَّهُ برسالتِهِ وهو في غارهِ، فهو الجبلُ الذي فاضَ منهُ النُّورُ على أقطارِ العالَمِ، فإنَّهُ ليَفخَرُ على الجبالِ، وحُقَّ لهُ ذلكَ.

فسبحانَ مَن اختَصَّ برحمتِهِ وتكريمهِ مَن شاءَ من الجبالِ والرِّجالِ، فجَعَلَ منها جبالاً هيَ مِغْناطيسُ القلوبِ كأنَّها مُركَّبةٌ منه، فهيَ تَهوي إليهِ كلَّما ذَكَرْتَها وتَهفو نَحوها، كما اختَصَّ منَ الرِّجالِ مَن خصَّهُ بكرامَتِهِ، وأتمَّ عليهِ نعمَتَهُ ووَضَعَ عليهِ مَحَبَّةً

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٣٤٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٣) ومسلم (١٦٠)

منهُ، فأحبَّهُ وحبَّبهُ إلى ملائكتهِ وعبادهِ المُؤمنينَ وَوَضَعَ لهُ القَبولَ في الأرضِ بينهم.

وإذا تأمَّلْتَ البقاعَ وجدتَها تَشقى كما تَشقى الرِّجالُ وتَسعَدُ

فدَع عنكَ الجبَلَ الفلاني وجَبَلَ بني فُلانٍ وجبَلَ كذا!

خُذ ما تراهُ وَدَعْ شيئاً سَمعتَ بهِ في طَلعةِ الشمسِ ما يُغنيكَ عن زُحَلِ

[عندما تصير الجبال كالعهن]

هذا؛ وإنَّها لَتعلمُ أنَّ لها موعداً ويوماً تُنسَفُ فيها نَسْفاً وتَصيرُ كالعِهْنِ من هَولهِ وعِظَمِهِ، فهيَ مُشفقَةٌ من هَولِ ذلك المَوعدِ مُنتظرَةٌ لهُ.

وكانَت أمُّ الدَّرداءِ ﷺ إذا سافرَت فَصَعَدَت على جَبَلٍ تقولُ لمَن مَعها: أَسْمِع الجبالَ ما وَعدَها ربُّها؟ فيقول: ما أُسْمِعُها؟! فتقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]، فهذا حالُ الجبالِ وهي الحجارَةُ الصُّلبَةُ، وهذه رِقَّتُها وخشيتُها وتَدَكْدُكُها من جلالِ ربِّها وعظمتهِ، وقَد أخبَرَ عنها فاطِرُها وباريها أنَّهُ لو أنزَلَ عليها كلامَهُ لخَشَعَت ولَتصدَّعَت من خَشيَةِ اللَّهِ.

فيا عَجَباً من مُضغَةِ لحمٍ أقسى من هذه الجبالِ تَسمعُ آياتِ اللَّهِ تُتلى عليها، ويُذكَرُ الرَّبُّ تباركَ وتعالى فلا تَلينُ ولا تَخشَعَ ولا تُنيبُ، فليسَ بِمُستنكَرٍ على اللَّهِ ﷻ ولا يُخالِفُ حِكمتَهُ أنْ يخلقَ لها ناراً تُذيبها إذ لم تَلِن على كلامهِ وذِكْرِهِ وزواجرِهِ ومواعِظِهِ.

فمَن لم يُلِنْ للَّهِ في هذه الدَّارِ قلبَهُ، ولم يُنِب إليهِ، ولم يُذِبْهُ بحبِّهِ والبُكاءِ من خَشيَتِهِ فلْيَتمتَّعْ قليلاً، فإنَّ أمامَهُ المُليِّنَ الأعظمَ، وسُيَردُّ إلى عالمِ الغَيبِ والشهادَةِ فيَرى ويعلم!

[الهواء اللطيف]

ومن آياتِهِ الباهرَةِ هذا الهواءُ اللطيفُ المحبوسُ بينَ السَّماءِ والأرضِ يُدْرَكُ بِحِسِّ اللمسِ عند هُبوبِهِ، يُدْرَكُ جسمُهُ ولا يُرى شخصهُ، فهو يجري بينَ السَّماءِ والأرضِ والطَّيرُ مُحَلِّقَةٌ فيه سابحَةٌ بأجنحتِها في أمواجِهِ كما تَسبحُ حيواناتُ البحرِ في الماءِ، وتضطربُ جوانبُهُ وأمواجُهُ عندَ هيجانهِ كما تضطربُ أمواجُ البَحر، فإذا شاءَ ﷻ حرَّكهُ بحركةِ الرَّحمَةِ فجعَلَهُ رُخاءً ورحمَةً وبُشراً بينِ يدَي رحمتهِ، ولاقحاً للسَّحابِ يلقحُهُ بحمل الماءِ كما يلقحُ الذَّكَرُ الأُنثى بالحَمْلِ.

ثمَّ تأمَّلْ هذا الهواءَ وما فيهِ من المصالحِ؛ فإنَّهُ حياةُ هذه الأبدانِ والمُمسِكُ لها مِن داخلٍ بما تستنشقُ منهُ، ومِن خارجٍ بما تُباشِرُ بهِ من روحهِ فتَتَغذَّى به ظاهراً وباطناً.

وفيهِ تُطرَدُ هذه الأصواتُ فتحملُها وتُؤدِّيها فتحملُها للقَريبِ والبَعيدِ؛ كالبَريدِ والرَّسولِ الذي شأنهُ حَمْلُ الأخبارِ والرَّسائلِ، وهو الحاملُ لهذه الرَّوائحِ على اختلافها ينقلُها من موضعٍ إلى موضعٍ فتأتي العَبدَ الرَّائحَةُ من حيثُ تَهُبُّ الرِّيحُ، وكذلكَ تأتيهُ الأصواتُ، وهو أيضاً الحاملُ للحرِّ والبَردِ اللذَيْنِ بهما صلاحُ الحيوانِ والنَّباتِ.

[الرياح التي تسوق السحاب]

وتأمَّلْ منفعَةَ الرِّيحِ وما يجري له في البرِّ والبحرِ وما هُيِّئتْ له من الرَّحمَةِ والعذابِ.

وتأمَّلْ كم سُخِّرَ للسَّحابِ من ريح حتى أمطرَ؛ فَسُخِّرَت له المُثيرةُ[1] أوَّلاً بينَ السَّماءِ والأرضِ، ثمَّ سُخِّرَت له الحاملَةُ التي

---

(١) هذا وما بعده في هذا المقطع من أسماء السحاب.

تحملهُ على متنها كالجمَلِ الذي يحملُ الرَّاويَةَ، ثمَّ سُخِّرَت لهُ المُؤَلِّفَةُ فَتُؤلِّفُ بين كِسَفِهِ وقِطَعِهِ حتَّى يجتمعَ بعضُها إلى بَعضٍ فَتصيرُ طَبقاً واحداً، ثمَّ سُخِّرَت لهُ اللاقحَةُ بمنزلَةِ الذَّكَرِ الذي يلقحُ الأُنثى فتلقحهُ بالماءِ ولولاها لكانَ جَهاماً[1] لا ماءَ فيه، ثمَّ سُخِّرت لهُ المُزجيَةُ التي تُزْجيهِ وتسوقهُ إلى حيثُ أُمِرَ فَيُفرِغُ ماءَهُ هنالك، ثمَّ سُخِّرَت له بَعدَ إعصارهِ المُفرِّقَةُ التي تَبثُّهُ وتُفرِّقُهُ في الجوِّ فلا يَنزلُ مجتمعاً، ولو نَزَلَ جُملَةً لأهلَكَ المساكنَ والحيوانَ والنَّباتَ، بل تُفرِّقُهُ فتجعلهُ قَطراً، وكذلكَ الرّياحُ التي تلقحُ الشجرَ والنَّباتَ ولولاها لكانَت عقيماً، وكذلكَ الرِّياحُ التي تُسيِّرُ السُّفن ولولاها لوقفت على ظَهرِ البَحرِ.

[رياح الرحمة ورياح العذاب]

وتُسمَّى رياحُ الرَّحمَةِ المْبشِّراتِ والنَّشرَ والذَّارياتِ والمُرسَلاتِ والرُّخاءَ واللواقحَ، ورياحُ العَذابِ العاصفَ والقاصفَ ـ وهما في البحرِ ـ والعقيمَ والصَّرصَرَ ـ وهما في البرِّ ـ، وإنْ شاءَ حرَّكهُ بحركةِ العذابِ فجعلَهُ عقيماً، وأَوْدَعَهُ عذاباً أليماً.

وَجَعَلَهُ نِقْمَةً على مَنْ يشاءُ مِن عبادهِ، فيجعلُهُ صَرصراً ونَحْساً وعاتياً ومُفْسِداً لِمَا يمرُّ عليهِ وهي مُختلفَةٌ في مَهابِّها، فمنها صَباً ودَبُورٌ وجَنوبٌ وشَمالٌ.

وفي منفعتِها وتأثيرِها أعظمُ اختلافٍ؛ فريحٌ ليِّنَةٌ رَطْبَةٌ تُغَذّي النَّباتَ وأبدانَ الحيوانِ، وأُخرى تُجفِّفهُ وأُخرى تُهلِكُهُ وتُعْطِبهُ، وأُخرى تشدُّهُ وتُصلِّبهُ وأُخرى تُوْهِنُهُ وتُضْعِفُهُ.

---

(١) هو السحاب لا ماء فيه.

ومن منافعها أنَّها تُبرِدُ الماءَ وتُضْرِمُ النَّارَ التي يُرادُ إضرامها وتُجَفِّفُ الأشياءَ التي يُحتاجُ إلى جفافها.

ولهذا يُخبِرُ سُبحانَهُ عن رياحِ الرَّحمَةِ بصيغَةِ الجَمْعِ لاختلافِ منافعها وما يَحْدُثُ منها، فريحٌ تُثيرُ السَّحابَ وريحٌ تُلَقِّحُهُ، وريحٌ تحمِلُهُ على مُتونِها وريحٌ تُغَذِّي النَّباتَ.

ولمَّا كانت الرِّيحُ مُختلِفَةً في مهابِّها وطبائعها جَعَلَ لكلِّ ريحٍ ريحاً مُقابلتَها تكسِرُ سَوْرَتها[1] وحِدَّتها، وتُبقي لينَها ورحمتَها، فرياحُ الرَّحمَةِ متعدِّدَةٌ، وأمَّا ريحُ العذابِ فإنَّهُ ريحٌ واحدَةٌ تُرسلُ من وجهٍ واحدٍ لإهلاكِ ما تُرسَلُ بإهلاكهِ، فلا تقومُ لها ريحٌ أُخرى تقابلُها وتكسرُ سَوْرَتها وتَدفعُ حِدَّتها، بل تكونُ كالجيشِ العظيمِ الذي لا يُقاوِمُهُ شيءٌ، يُدمِّرُ كلَّ ما أتى عليهِ.

وتَأمَّلْ حِكمَةَ القرآنِ وجلالَتَهُ وفصاحَتَهُ كيفَ اطَّرَدَ هذا فيه في البَرِّ، وأمَّا في البحرِ فجاءَت ريحُ الرَّحمَةِ فيهِ بلفظِ الواحدِ، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢]، فإنَّ السُّفُنَ إنَّما تَسيرُ بالرِّيحِ الواحدَةِ التي تأتي من وجهٍ واحدٍ، فإذا اختَلَفَت الرِّياحُ على السُّفن وتقابَلَتْ لم يتمَّ سَيرُها.

فالمقصودُ منها في البحرِ خلافُ المقصودِ منها في البرِّ، إذ المقصودُ في البحرِ أن تكونَ واحدَةً طيِّبَةً لا يُعارِضُها شيءٌ فأُفرِدَت هنا وجُمعَت في البرِّ.

---

(١) أي شدتها.

[مهاب الرياح]

ثمَّ تأمَّلِ الحِكمَةَ البالغَةَ في أنْ جَعَلَ مهبَّ الشَّمالِ عليها أرفعَ من مهبِّ الجَنوبِ، وحكمَةُ ذلكَ أن تتحدَّرَ المياهُ على وجهِ الأرضِ فتسقيَها وترويَها ثمَّ تفيضَ فتصبَّ في البَحرِ، فكما أنَّ البانيَ إذا رَفَعَ سطحاً رَفعَ أحدَ جانبيهِ وخَفَضَ الآخرَ ليكونَ مصبًّا للماءِ، ولو جعَلَهُ مُستوياً لقامَ عليهِ الماءُ فأفسَدهُ، كذلكَ جُعِلَ مهبُّ الشَّمالِ في كلِّ بَلَدٍ أرفعَ من مَهَبِّ الجنوبِ، ولولا ذلكَ لبقيَ الماءُ واقفاً على وجهِ الأرضِ فمنعَ النَّاسَ من العَمَلِ والانتفاعِ، وقَطَعَ الطُّرُقَ والمسالكَ، وأضرَّ بالخَلْقِ.

أفَيَحْسُنُ عندَ من له مُسكَةٌ من عَقلٍ أن يقولَ: هذا كلُّهُ اتِّفاقٌ من غيرِ تَدبيرِ العزيزِ الحكيم الذي أتقَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ؟!

[الرياح والزلازل]

ولمَّا كانَت الرِّياحُ تجولُ فيها، وتَدخُلُ في تجاويفها، وتُحدِثُ فيها الأبخرَةَ وتنخفِقُ الرِّياحُ، ويتعذَّرُ عليها المنفذُ: أذِنَ اللَّهُ سبحانهُ لها في الأحيانِ بالتَّنفُّسِ فَتُحْدِثُ فيها الزَّلازلَ العِظامَ، فَيَحْدُثُ من ذلكَ لعبادهِ الخَوفُ والخشيَةُ والإنابَةِ والإقلاعُ عن معاصيهِ والتَّضرُّع إليهِ والنَّدمُ؛ كما قال بعضُ السَّلفِ وَقَد زُلزلَت الأرضُ: إنَّ ربَّكُم يَستَعتبُكُم.

وقال عُمَر بن الخطَّاب ـ وَقَد زُلزلتِ المَدينَةُ فخطَبهُم وَوعظهُم وقال ـ: لئن عادَت لا أُساكنكم فيها.

[أثر الهواء والرياح في الحياة]

وبالجُملةِ؛ فحياةُ ما على الأرض من نباتٍ وحيوانٍ

بالرِّياحِ؛ فإنَّهُ لولا تسخيرُ اللَّهِ لها لعبادِهِ لَذَوى[1] النَّباتُ وماتَ الحيوانُ وفَسَدَت المطاعمُ وأَنْتَنَ العالَمُ وفَسَدَ.

ألا تَرى إذا رَكَدَت الرِّياحُ كيفَ يحدُثُ الكَرْبُ والغمُّ الذي لو دامَ لأَتْلَفَ النُّفوسَ، وأسقَمَ الحيوانَ، وأمرَضَ الأَصِحَّاءَ، وأنهَكَ المرضى، وأفسَدَ الثِّمارَ، وعفَّنَ الزَّرعَ، وأحدَثَ الوباءَ في الجوِّ!

فسبحانَ من جَعَلَ هبوبَ الرِّياحِ تأتي بروحِهِ ورحمتِهِ ولُطفِهِ ونعمتِهِ، كما قال النَّبيُّ ﷺ في الرِّياحِ: (إنَّها من رَوحِ اللَّهِ، تأتي بالرَّحمَةِ)[2].

ونُنَبِّهُ على لطيفَةٍ في هذا الهواءِ؛ وهي أنَّ الصَّوتَ أَثَرٌ يَحْدُثُ عندَ اصطكاكِ وقَرْعِ الأَجْرامِ، وليسَ نفسَ الاصطكاكِ كما قال ذلكَ مَن قالهُ! ولكنَّهُ مُوجَبُ الاصطكاكِ وقرعِ الجسمِ للجسمِ أو قلعِهِ عنهُ، فسببهُ قَرعٌ أو قلعٌ، فيحدثُ الصَّوتُ، فيحملُهُ الهواءُ ويُؤدِّيهِ إلى مسامعِ النَّاسِ، فينتفعونَ بهِ في حوائجهم ومُعاملاتهم بالليلِ والنَّهارِ، وتحدثُ الأصواتُ العظيمَةُ من حركاتهم، فلو كانَ أثَرُ هذه الحركاتِ والأصواتِ يبقى في الهواءِ كما يبقى الكتابُ في القرطاسِ لامتلأ العالَمُ منه، ولعَظُمَ الضَّررُ به واشتدَّت مُؤنتُهُ واحتاجَ النَّاسُ إلى محوه من الهواءِ، والاستبدالِ به أعظمَ مِن حاجتهم إلى الاستبدالِ بالكتابِ المملوءِ كتابَةً؛ فإنَّ ما يُلقى من الكلامِ في الهواءِ أضعافُ ما يُودَعُ في القِرْطاسِ.

فاقتَضَت حكمةُ العَزيزِ الحكيمِ أنْ جعَلَ هذا الهواءَ قرطاساً

(١) أي ضعف وهزل.

(٢) رواه أبو داود برقم (٥٠٩٧).

خفيًّا يحمل الكلامَ بقَدْر ما يبلغُ الحاجَةَ ثمَّ يَنْمَحي بإذنِ ربِّهِ فيعودُ جديداً نقيًّا لا شيءَ فيهِ فيحملُ ما حُمِّلَ كلَّ وقتٍ.

[السحاب]

ومِن آياتهِ السَّحابُ المُسَخَّرُ بينَ السَّماءِ والأرضِ، كيفَ يُنشئهُ سبحانهُ بالرِّياحِ فتثيرهُ كِسَفاً؟! ثمَّ يُؤلِّفُ بينهُ ويضمُّ بعضَهُ إلى بَعضٍ، ثمَّ تلقحهُ الرِّيحُ ـ وهي التي سمَّاها سبحانهُ لواقحَ ـ ثمَّ يسوقُهُ على متونها إلى الأرضِ المُحتاجَةِ إليهِ، فإذا علاها واستَوى عليها اهراقَ ماءَهُ عليها، فيرسلُ سبحانهُ عليهِ الرِّيحَ وهو في الجوِّ فتذروهُ وتُفرِّقُهُ لئلّا يؤذيَ ويَهدمَ ما ينزلُ عليهِ بجملتهِ، حتى إذا رَوِيَت وأخَذَت حاجَتَها منهُ أقلَعَ عنها وفارقها، فهي روايا الأرضِ محمولَةٌ على ظهورِ الرِّياحِ.

وفي «التِّرمذي» وغيرهِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا رأى السَّحابَ قال: (هذه روايا الأرضِ يسوقُها اللَّهُ إلى قومٍ لا يَشكرونهُ ولا يَذكرونهُ)[1] فالسَّحابُ حاملُ رزقِ العبادِ وغيرهم التي عليها ميرتُهم[2].

وكانَ الحَسَنُ إذا رأى السَّحابَ قال: في هذا ـ واللَّهِ ـ رزقكُم، ولكنَّكُم تُحرَمُونهُ بخطاياكُم وذنوبكُم.

وفي «الصَّحيح»[3] عن النَّبيِّ ﷺ قال: (بينما رجلٌ بفلاةٍ من الأرضِ إذ سمعَ صَوتاً في سحابَةٍ: اسقِ حَديقَةَ فلانٍ، فمرَّ الرَّجلُ معَ السَّحابةِ حتى أتَت على حديقَةٍ، فلمَّا توسَّطَتْها أفرَغَتْ

---

(١) رواه الترمذي برقم (٣٢٩٨).

(٢) أي طعامهم.

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٩٨٤).

فيها ماءَها، فإذا برجلٍ معهُ مِسْحاةٌ يَسحي الماءَ بها، فقال: ما اسمُكَ يا عَبدَ الله؟ قال: فلان، للاسم الذي سمعَهُ في السَّحابَةِ...).

وبالجُملَةِ؛ فإذا تأمَّلْتَ السَّحابَ الكَثيفَ المُظلِمَ تراهُ يجتمعُ في جوٍّ صافٍ لا كُدُورَةَ فيه، وكيفَ يخلقهُ اللَّهُ متى شاءَ وإذا شاءَ، وهو مع لينهِ ورَخَاوتهِ حاملٌ للماءِ الثَّقيل بينَ السَّماءِ والأرضِ، إلى أن يأذَنَ لهُ ربُّهُ وخالقُهُ في إرسالِ ما مَعَهُ من الماءِ فيرسلُهُ ويُنزلُهُ منهُ مُقَطَّعاً بالقَطَراتِ، كلُّ قَطرَةٍ بِقَدْرٍ مخصوصٍ اقتَضَتْهُ حِكمتُهُ ورحمتُهُ، فيرشُّ السَّحابُ الماءَ على الأرضِ رشًّا، ويُرسِلُهُ قَطَراتٍ مُفصَّلةً، لا تختلطُ قَطرةٌ منها بأُخرى، ولا يتقدَّمُ مُتأخِّرُها، ولا يتأخَّرُ مُتقدِّمها، ولا تُدْرِكُ القَطرَةِ صاحبتَها فتمتزجُ بها، بل تنزلُ كلُّ واحدَةٍ في الطَّريقِ الذي رُسمَ لها لا تَعدلُ عنهُ حتى تُصيبَ الأرضَ قَطرَةً قَطرَةً، قد عُيِّنَت كلُّ قَطرَةٍ منها لجزءٍ من الأرضِ لا تَتعدَّاهُ إلى غيرهِ.

فلو اجتَمَعَ الخَلْقُ كلُّهُم على أن يَخلقوا منها قَطرَةً واحدَةً أو يُحصوا عَدَدَ القَطْرِ في لَحظَةٍ واحدَةٍ لعَجَزُوا عنهُ.

فتأمَّلْ كيفَ يسوقُهُ سبحانهُ رِزقاً للعبادِ والدَّوابِّ والطَّيرِ والذَّرِّ والنَّمل، يسوقُه رزقاً للحيوان الفُلانيِّ في الأرض الفُلانيَّة بجانب الجبل الفُلانيّ، فَيَصِلُ إليهِ على شدَّةٍ من الحاجَةِ والعَطَشِ في وقتِ كذا وكذا.

[الحر والبرد والتدرج في الانتقال بينهما]

ثمَّ تأمَّلْ هذه الحِكمَةَ البالغَةَ في الحرِّ والبَردِ وقيامِ الحيوانِ والنَّباتِ عليهما، وفكِّرْ في دخولِ أَحدِهما على الآخَرِ بالتَّدريجِ

والمُهْلَةِ حتى يبلغَ نهايتَهُ، ولو دخَلَ عليهِ مُفاجأةً لأضرَّ ذلكَ بالأبدانِ وأهلكها، وبالنَّباتِ، كما لو خَرجَ الرَّجلُ من حَمَّام مُفْرِطِ الحرارَةِ إلى مكانٍ مُفرطٍ في البُرودَةِ، ولولا العنايَةُ والحِكمَةُ والرَّحمَةُ والإحسانُ لَمَا كان ذلكَ.

فإنْ قلتَ: هذا التَّدريجُ والمُهْلَةُ إنَّما كانَ لإبطاءِ سيرِ الشمسِ في ارتفاعها وانخفاضها!

قيلَ لكَ: فما السَّببُ في ذلكَ الإبْطاء في الانخفاض والارتفاع؟

فإنْ قلتَ: السَّببُ في ذلكَ بُعْدُ المسافَةِ من مشارقها ومغاربها.

قيلَ لكَ: فما السَّببُ في بُعْدِ المسافَةِ؟ ولا يُمكنه ـ أيضاً ـ أَنْ يقولَ: بُعْد المسافة؛ لأنَّ القمرَ يقطعُها في شَهْر، والشمسَ تقطعُها في سَنَةٍ؛ لهذه الحكمةِ البيِّنَةِ...

ولا تزالُ المسألةُ مُتُوجِّهَةً عليكَ كلَّما عَيَّنتَ سبباً، حتى تُفضي بك إلى أحَدِ أمرين:

إمَّا مكابَرةٌ ظاهرةٌ ودعوى أنَّ ذلكَ اتِّفاقٌ من غيرِ مُدَبّرٍ ولا صانعٍ!

وإمَّا الاعترافُ بربِّ العالمين، والإقرارُ بقيُّومِ السَّماواتِ والأرضين، والدُّخولُ في زُمرَةِ أولي العَقلِ من العالَمين.

ولن تجدَ بين القسمين واسطَةً أبداً، فلا تُتْعِب ذِهْنَكَ بهذياناتِ المُلحدينَ فإنَّها عندَ مَن عَرفها مِن هَوَسِ الشياطين، وخيالاتِ المُبطلين.

وإذا طَلَعَ فجرُ الهُدى وأشرَقَت النبوَّةُ فعساكرُ تلكَ الخيالاتِ والوساوسِ في أوَّلِ المُنهزمين.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث

البحار

ومن آياتهِ وعجائبِ مصنوعاتهِ البحارُ المُكتنِفَةُ لأقطارِ الأرضِ التي هي خُلْجانٌ من البَحرِ المحيطِ الأعظمِ بجميعِ الأرضِ، حتى إنَّ المكشوفَ منَ الأرضِ والجبالِ والمدنِ بالنِّسبَةِ إلى الماءِ كجزيرَةٍ صَغيرةٍ في بحرٍ عظيمٍ، وبقيَّةُ الأرضِ مغمورةٌ بالماءِ.

ولولا إمساكُ الرَّبِّ تباركَ وتعالى لهُ بقدرتهِ ومشيئتهِ وحَبسُهُ الماءَ لطَفَحَ على الأرضِ وعلاها كلَّها.

هذا طبعُ الماءِ، ولهذا حارَ عقلاءُ الطَّبائعيِّين في سَبَبِ بروزِ هذا الجزءِ من الأرضِ مع اقتضاءِ طبيعَةِ الماءِ للعلوِّ عليهِ وأنْ يغمُرَهُ! ولم يجدوا ما يُحيلونَ عليه ذلكَ إلّا الاعترافَ بالعنايَةِ الأزليَّةِ والحكمَةِ الإلهيَّةِ التي اقتَضَتْ ذلكَ لِعَيشِ الحيوانِ الأرضيِّ في الأرضِ.

وهذا حقٌّ، ولكنَّهُ يوجبُ الاعترافَ بقُدرَةِ اللَّهِ وإرادتهِ ومَشيئتهِ وعلمهِ وحكمتهِ وصفاتِ كمالهِ، ولا مَحيصَ عنه.

وفي «مُسنَد الإمام أحمد» عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: (ما مِن يومٍ إلّا والبحرُ يستأذنُ ربَّهُ أن يُغرِقَ بني آدمَ).

وهذا أحَدُ الأقوالِ في قولهِ ﷻ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]: أنَّهُ المحبوسُ. حكاهُ ابنُ عطيَّةَ وغيرهُ.

قالوا: ومنه ساجورُ الكلبِ؛ وهي القلادَةُ من عودٍ أو حَديدٍ التي تُمسِكُهُ.

وكذلك لولا أنَّ اللَّهَ يحبسُ البَحرَ ويُمسِكُهُ لفاضَ على الأرضِ، فالأرضُ في البَحرِ كبيتٍ في جُملَةِ الأرضِ.

وإذا تأمَّلْتَ عجائبَ البَحرِ وما فيهِ من الحيواناتِ على اختلافِ أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارِّها وألوانها حتى إنَّ فيها حيواناً أمثالَ الجبالِ لا يقومُ له شيءٌ، حتى إنَّ فيه من الحيواناتِ ما يُرى ظهورها فيظنُّ أنَّها جزيرَةٌ فينزلُ الرُّكَّابُ عليها فتحسُّ بالنَّارِ إذا أُوقِدَتْ فَتتحرَّكُ فيُعلمُ أنَّهُ حيوانٌ!

وما من صنفٍ من أصنافِ حيوانِ البرِّ إلّا وفي البَحرِ أمثالُهُ، حتى الإنسانُ والفرسُ والبَعيرُ وأصنافها، وفيه أجناسٌ لا يُعهَدُ لها نَظيرٌ في البرِّ أصلاً، هذا مع ما فيهِ من الجواهرِ واللؤلؤِ والمرجانِ، فترى اللؤلؤةَ كيف أُودعت في كِنٍّ كالبيتِ لها ـ وهي الصَّدَفُ ـ تَكُنُّها وتحفظُها، ومنه اللؤلؤ المكنون؛ وهو الذي في صَدفهِ لم تمسَّهُ الأيدي.

وتأمَّلْ كيفَ نَبَتَ المَرْجانُ في قَعرهِ في الصَّخرَةِ الصمَّاءِ تحتَ الماءِ على هَيئةِ الشجرِ، هذا مع ما فيهِ من العَنبَرِ وأصنافِ النَّفائسِ التي يقذفُها البَحرُ وتُستخرجُ منه.

ثمَّ انظر إلى عجائبِ السُّفنِ وسيرها في البَحرِ تشقُّهُ وتمخَرُهُ بلا قائدٍ يقودُها ولا سائقٍ يسوقُها، وإنَّما قائدُها وسائقُها الرِّياحُ التي يُسخِّرها اللَّهُ لإجرائها، فإذا حُبِسَ عنها القائدُ والسَّائقُ ظلَّت راكدَةً على وجهِ الماءِ؛ قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣]، وقال اللَّهُ تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

فما أعظمَها من آيَةٍ وأبْيَنَها من دلالَةٍ! ولهذا يُكرِّرُ سبحانهُ ذِكرَها في كتابهِ كثيراً.

ثمَّ إنَّهُ سبحانَهُ أعطى هذا المخلوقَ اللطيفَ[1] الذي يُحرِّكهُ أضعَفُ المخلوقاتِ ويخرقهُ، من الشدَّةِ والقوَّةِ والبأسِ ما تَقْلَقُ به الأجسامُ الصُّلبَةُ القويَّةُ المُمتَنِعَةُ، ويُزعِجُها عن أماكنها ويُفَتِّتُها ويحملُها على متنهِ.

فانظُر إليهِ مع لطافتهِ وخفَّتهِ إذا دَخلَ في الزِّقِّ[2] مثلاً وامتلأ بهِ، ثمَّ وُضِعَ عليهِ الجسمُ الثَّقيلُ - كالرَّجلِ وغيرهِ - وتحامَلَ عليهِ ليغمسَهُ في الماءِ لم يُطق، ويضعُ الحديدَ الصُّلْبَ الثَّقيلَ على وجهِ الماءِ فيرسبُ فيهِ، فامتنَعَ هذا اللطيفُ من قَهرِ الماءِ لهُ ولم يمتنع منهُ القويُّ الشديدُ.

وبهذه الحكمَةِ أمسَكَ اللَّهُ سبحانهُ السُّفِن على وجهِ الماءِ مع ثِقَلِها وثِقَلِ ما تَحْويهِ، وكذلكَ كلُّ مُجوَّفٍ حلَّ فيهِ الهواءُ فإنَّهُ لا يرسُبُ فيهِ؛ لأنَّ الهواءَ يمتنعُ من الغَوصِ في الماءِ فتَتعلَّقُ به السَّفينَةُ المشحونَةُ المُوقَرةُ.

فتأمَّلْ كيفَ استجارَ هذا الجسمُ الثَّقيلُ العظيمُ بهذا اللطيفِ الخفيفِ وتعلَّقَ بهِ حتى أمِنَ منَ الغَرَقِ، وهذا كالذي يَهْوي في قَليبٍ فيتعلَّقُ بذيل رجلٍ قويٍّ شديدٍ يمتنعُ عن السُّقوطِ في القَليبِ

---

(١) أي الماء.

(٢) وعاء من جلد يتخذ للماء وغيره من المائعات.

فينجو بتعلُّقهِ بهِ، فسبحانَ مَن علَّقَ هذا المركبَ العظيمَ الثَّقيلَ بهذا الهواءِ اللطيفِ من غيرِ عَلاقَةٍ ولا عُقدَةٍ تُشاهَد!

وبالجملَةِ؛ فعجائبُ البَحرِ وآياتهُ أعظمُ وأكثَرُ من أن يُحصِيَها إلّا اللّهُ سبحانهُ، وقال اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع

العناصر الأربعة

[سهولة الحصول عليها]

وتأمَّل الحكمَةَ البَديعَةَ في تَيسيرهِ سبحانهُ على عبادهِ ما هم أحوَجُ إليهِ، وتوسيعهِ وبذلهِ، فكلَّما كانوا أحوَجَ إليهِ كانَ أكثَرَ وَأَوْسَعَ، وكلَّما استَغْنَوا عنهُ كانَ أقلَّ، وإذا توسَّطَتِ الحاجَةُ توَسَّطَ وجودُهُ، فلم يكُن بالعامِّ ولا بالنَّادرِ على مراتبِ الحاجاتِ وتفاوتِها.

فاعتبِرْ هذا بالأُصولِ الأربعَةِ: التُّرابِ والماءِ والهواءِ والنَّارِ.

وتأمَّلْ سَعَةَ ما خَلَقَ اللَّهُ منها وكثرَتَهُ.

فتأمَّلْ سعَةَ الهواءِ وعُمومَهُ ووجودَهُ بكلِّ مكانٍ؛ لأنَّ الحيوانَ المخلوقَ في البرِّ لا يُمكنهُ الحياةُ إلّا بهِ، فهو مَعَهُ أينما كانَ وحيثُ كانَ، لأَنَّهُ لا يَستغني عنه لحظَةً واحدَةً، ولولا كثرتُهُ وسعتُهُ وامتدادُهُ في أقطارِ العالَمِ لاخْتَنَقَ العالَمُ من الدُّخَانِ والبُخَارِ المُتصاعِدِ المُنعَقِدِ.

فتأمَّلْ حكمَةَ ربِّكَ في أنْ سخَّرَ لهُ الرِّياحَ، فإذا تصاعَدَ إلى الجوِّ أحالَتْهُ سَحاباً أو ضباباً فأذهَبتْ عن العالَمِ شرَّهُ وأذاهُ.

فمن الذي دبَّرَ هذا التَّدبيرَ وقدَّرَ هذا التَّقديرَ؟ وهل يقدرُ

أَهلُ العالَمِ كلُّهُم لو اجتَمعوا أن يُحيلوا ذلكَ ويقلبوهُ سحاباً أو ضباباً أو يُذهِبوهُ عن النَّاسِ ويكشِفوهُ عنهم؟ ولو شاءَ ربُّهُ تعالى لحبَسَ عنهُ الرِّياحَ فاخْتَنَقَ على وجهِ الأرضِ فأهلَكَ ما عليها من الحيوانِ والنَّاسِ.

وكذلك الماءُ لولا كثرتُهُ وتدفُّقُهُ في الأوديَةِ والأنهارِ لضاقَ عن حاجَةِ النَّاسِ إليهِ ولَغَلَبَ القويُّ فيه الضَّعيفَ واستبدَّ به دونَهُ، فيحصلُ الضَّرَرُ وتَعْظُمُ البليَّةُ مع شدَّةِ حاجَةِ جميعِ الحيوانِ إليهِ من الطَّيرِ والوحوشِ والسِّباعِ، فاقتَضَت الحكمَةُ أنْ كانَ بهذه الكَثرَةِ والسَّعَةِ في كلِّ وقتٍ.

وأمَّا النَّارُ، فإنَّ الحِكمَةَ اقتَضتْ كُمونها؛ متى شاءَ العَبدُ أَوْراها عندَ الحاجَةِ، فهي وإنْ لم تكُن مبثوثةً في كلِّ مكانٍ فإنَّها عَتيدةٌ حاصلَةٌ متى احْتِيجَ إليها، واسعةٌ لكلِّ ما يُحتاجُ إليهِ منها غيرَ أنَّها مُودَعَةٌ في أجسامٍ جُعلَت معادنَ لها؛ للحكمَةِ التي تَقدَّمَت.

[حكمة خلق النار]

ثمَّ تأمَّلِ الحِكمَةَ في خَلْقِ النَّارِ على ما هيَ عليهِ من الكُمُونِ[1] والظُّهورِ، فإنَّها لو كانَت ظاهِرَةً أبداً ـ كالماءِ والهواء ـ كانت تحرقُ العالَمَ وتنتشرُ ويَعْظُمُ الضَّرَرُ بها والمفسَدَةُ، ولو كانَت كامنَةً لاتَظهرُ أبداً لفاتَت المصالحُ المُترتِّبَةُ على وجودها، فاقتَضَتْ حكمَةُ العزيزِ العليمِ أنْ جَعَلها مخزونَةً في الأجسامِ يُخرجها ويَنْفثُها الرَّجُلُ عند حاجَتهِ إليها، فيُمسِكها ويحبسها بمادَّةٍ يجعلها فيها من الحَطَبِ ونحوهِ، فلا يزالُ حابسَها

---

(١) الاختفاء.

ما احتاجَ إلى بقائها، فإذا استغنى عنها وترك حَبْسَها بالمادَّةِ خَبَتْ بإذنِ ربِّها وفاطرِها، فَسَقَطتِ المُؤنَةُ والمضرَّةُ ببقائها. . .

فسبحانَ مَن سخَّرها وأنشأها على تَقديرٍ مُحْكَم عجيب اجتَمَعَ فيهِ الاستمتاعُ والانتفاعُ والسَّلامَةُ من الضَّرَرِ، قالَ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧١ ـ ٧٤].

فسبحانَ ربِّنا العظيم، لَقَد تَعَرَّفَ إلينا بآياتهِ، وشفانا ببيِّناتهِ، وأغنانا بها عن دلالاتِ العالَمين، فأخبَرَ سبحانهُ أنَّهُ جعَلها تذكِرَةً بنارِ الآخرَةِ فنستجيرُ منها ونَهربُ إليهِ منها، ومتاعاً للمُقْوِين؛ وهم المسافرون النَّازلونَ بالقَوَاءِ ـ والقِيّ وهي الأرضُ الخاليَةُ ـ وهم أحوَجُ إلى الانتفاعِ بالنَّارِ للإضاءَةِ والطَّبخِ والخبزِ والتَّدفِّي والأُنس وغيرِ ذلك.

[اختصاص الإنسان بالنار]

ثمَّ تأمَّلْ حِكمتَهُ تعالى في كونهِ خَصَّ بها الإنسانَ دونَ غيرهِ من الحيواناتِ، فلا حاجَةَ بالحيوانِ إليها، بخلافِ الإنسانِ؛ فإنَّهُ لو فَقدها لَعَظُمَ الدَّاخِلُ عليهِ في معاشهِ ومصالحهِ، وغيرُهُ من الحيواناتِ لا يستعملُها ولا يتمتَّعُ بها.

ونُنبِّهُ مِن مصالحِ النَّارِ على خَلَّةٍ صغيرَةِ القَدرِ عظيمَةِ النَّفعِ وهي في هذا المِصْباحِ الذي يتَّخِذُهُ النَّاسُ فَيَقْضُون به من حوائجهم ما شاؤوا من ليلهم، ولولا هذه الخَلَّةُ لكانَ النَّاسُ نِصْفِ أعمارهم بمنزلةِ أصحابِ القبورِ، فمَن كانَ يَستطيع كتابَةً أو خياطَةً أو صناعةً أو تصرُّفاً في ظلمَةِ الليل الدَّاجي؟! وكيفَ

كانَت تكونُ حالُ مَن عَرَضَ له وَجَعٌ في وقتٍ من الليلِ فاحْتاجَ إلى ضياءٍ أو دواءٍ أو استخراجِ دمٍ أو غير ذلك؟

ثمَّ انظر إلى ذلك النُّور المَحْمُولِ في ذُبالَةِ المِصباحِ على صِغَرِ جوهرِهِ كيف يضيءُ ما حولَكَ كلَّهُ فترى به القريبَ والبَعيدَ!

ثمَّ انظُر إلى أنَّهُ لو اقتَبَسَ منه كل مَن يفْرِضُ[1] أو يقدِرُ من خَلْقِ اللَّهِ كيفَ لا يفنى ولا ينفَدُ ولا يضعُفُ!

وأمَّا منافعُ النَّارِ في إنْضاجِ الأطعمَةِ والأدويَةِ وتجفيفِ ما لا يُنتفعُ إلّا بجفافهِ، وتحليلِ ما لا يُنتفعُ إلّا بتحليلهِ، وعَقدِ ما لا يُنتفعُ إلّا بعقدهِ وتركيبهِ: فأكثرُ من أن يُحصى.

ثمَّ تأمَّل ما أُعطيت النَّارُ منَ الحركَةِ الصَّاعدَةِ بطبعها إلى العلوِّ، فلولا المادَّةُ تُمسِكُها لذهبَتْ صاعدَةً، كما أنَّ الجسمَ الثقيلَ لولا المُمْسِكُ يُمسِكهُ لذهَبَ نازلاً.

فمَن أعطى هذه القوَّةَ التي يُطلبُ بها الهبوطُ إلى مُستقرِّه؟!
وأعطى هذه القوَّةَ التي يُطْلَبُ بها الصُّعودُ إلى مُستقرِّها؟!

وهل ذلكَ إلّا بتَقديرِ العزيزِ العليمِ؟!



(١) أي يقدح من الزند.

الفصل الخامس

الذهب والفضة

ثمَّ تأمَّلْ حِكمَةَ اللَّهِ ﷻ في عِزَّةِ هذين النَّقدين ـ الذَّهبِ والفضَّةِ ـ وقُصورِ خِبْرَةِ العالَم عمَّا حاولوا من صنعتهما والتَّشبُّهِ بخلقِ اللَّهِ إيَّاهما، مع شدَّةِ حِرْصِهِم وبُلوغِ أقصى جُهدِهم واجتهادهم في ذلكَ، فلم يَظفروا بسوى الصَّنْعَةِ، ولو مُكِّنوا مِن أن يَصنعوا مثلَ ما خَلَقَ اللَّهُ من ذلكَ لَفَسَدَ أمرُ العالَم واستفاضَ الذَّهبُ والفضَّةُ في النَّاسِ حتى صارا كالسَّعَفِ والفَخَّارِ، وكانَت تَتعطَّلُ المصلحَةُ التي وُضِعا لأجلها، وكانَت كثرتُهما جدًّا سبَبَ تعطُّلِ الانتفاعِ بهما فإنَّهُ لا يَبقى لهما قيمَةٌ، ويبطُلُ كونُهما قِيَماً لنفائسِ الأموالِ والمعاملاتِ وأرزاقِ المقاتِلَةِ، ولم يتسخَّرْ بعضُ النَّاسِ لبَعضٍ، إذ يَصيرُ الكلُّ أربابَ ذَهبٍ وفضَّةٍ، فلو أغنى خلقَهُ كلَّهم لأفقَرَهم كلَّهم، فمَن يرضى لنفسهِ بامتهانها في الصَّنائعِ التي لا قِوامَ للعالَمِ إلّا بها!

فسبحانَ مَن جَعَلَ عِزَّتَهما سبَبَ نظامِ العالَمِ ولم يجعلْها في العِزَّةِ كالكبريتِ الأحمَرِ الذي لا يُوصَلُ إليهِ فتفوتُ المصلَحَةُ بالكُلِّيَّةِ بل وَضَعَهما وأنْبَتَهما في العالَم بقَدْرٍ اقتَضَتْهُ حِكمتُهُ ورحمتُهُ ومصالحُ عبادهِ.

وقرأتُ بخطِّ الفاضلِ جبريلَ بن رَوحِ الأنباري قال: أخبَرَني بعَضُ من تداوَلَ المعادِنَ أنَّهم أوْغَلوا في طَلبها إلى بَعضِ

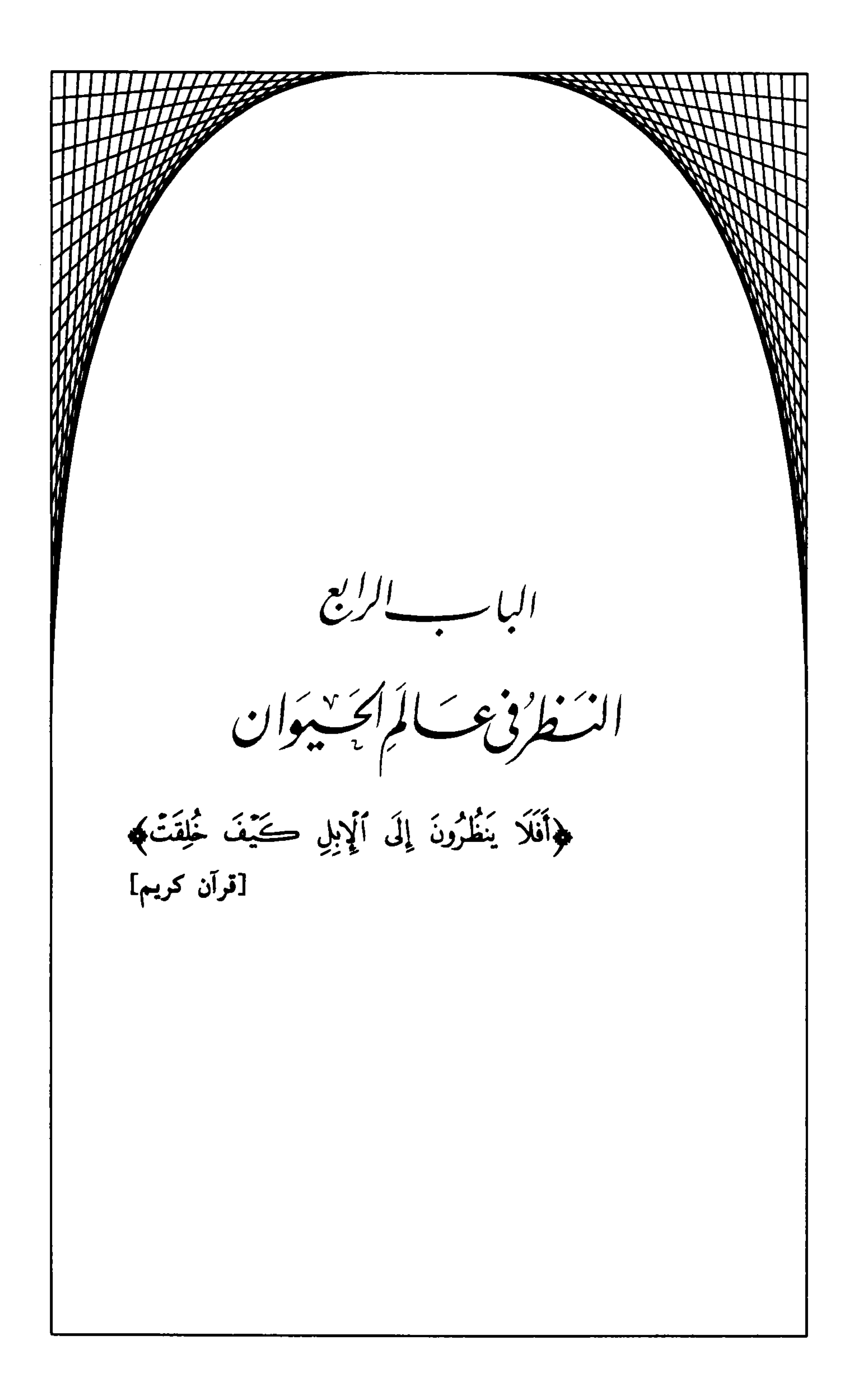
نواحي الجبَل فانتَهوا إلى موضعٍ، وإذا فيهِ أمثالُ الجبالِ منَ الفضَّةِ، ومِن دونِ ذلكَ وادٍ يَجري مُتصلِّباً بماءٍ غزيرٍ لا يُدْرَكُ، ولا حِيلَةَ في عبورِهِ، فانصَرفوا إلى حَيثُ يعملونَ ما يَعْبُرونَ به فلمَّا هَيَّؤوهُ وعادوا وراموا طريقَ النَّهرِ فما وقفوا له على أثرٍ، ولا عَرَفوا إلى أينَ يتوجَّهونَ فانصَرفوا آيِسينَ.

وهذا أحدُ ما يدُلُّ على بطلانِ صناعَةِ الكيمياءِ، وأنَّها عند التَّحقيقِ زَغَلٌ وصَنْعَةٌ لا غير، وقد ذكرنا بُطلانها وبيَّنَّا فسادَها من أربَعينَ وجهاً في رسالَةٍ مُفردَةٍ.

والمقصودُ أنَّ حكمَةَ اللَّهِ تعالى اقتَضَتْ عِزَّةَ هذينِ الجوهَرَين وقِلَّتَهما بالنِّسبَةِ إلى الحديدِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ لصلاحِ أمرِ النَّاسِ.

واعتَبِرْ ذلكَ بأَنَّهُ إذا ظَهَرَ الشيءُ الظَّريفُ المُستحسَنُ ممَّا يُحدِثُهُ النَّاسُ من الأمتعَةِ كانَ نَفيساً عزيزاً ما دامَ فيهِ قِلَّةٌ، وهو مرغوبٌ فيهِ، فإذا فَشا وكَثُرَ في أيدي النَّاسِ وقَدَرَ عليهِ الخاصُّ والعامُّ سَقَطَ عندهم وقلَّت رغباتُهم فيهِ، ومِن هذا قولُ القائلِ: نفاسَةُ الشيءِ من عِزَّتهِ، ولهذا كانَ أزهدَ النَّاسِ في العالِم أهلُهُ وجيرانُهُ، وأرغبَهم فيهِ البُعَداءُ عنهُ.





الباب الرابع

النظر في عالم الحيوان

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾

[قرآن كريم]

الفصل الأول

أمم أمثالكم[1]

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٨، ٣٩].

وقد قال النبي ﷺ: (لولا أنّ الكلاب أمة من الأمم، لأمرت بقتلها)[2].

قال ابن عباس: في رواية عطاء ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ يريد يعرفونني ويوحدونني ويسبحونني ويحمدونني.

مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

---

(١) هذا الفصل من كتاب «شفاء العليل» ص٢٥٧ ـ ٢٦١.

(٢) أخرجه أحمد وأصحاب السنن.

قال ابن القيم: وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون إخباراً عن أمر غير ممكن فعله، وهو أن الكلاب أمة لا يمكن إفناؤها لكثرتها في الأرض، فلو أمكن إعدامها من الأرض لأمرت بقتلها.

والثاني: أن يكون مثل قوله: (أمن أجل أن قرصتك نملة، أحرقت أمة من الأمم تسبح) فهي أمة مخلوقة بحكمة ومصلحة، فإعدامها وإفناؤها يناقض ما خلقت له، والله أعلم بما أراد رسوله.

ومثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١].

فعلى هذا جعلت أمماً أمثالنا في التوحيد والمعرفة بربها وتسبيحه.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٤٩].

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

ويدل عليه قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨].

وقول سليمان عليه السلام: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

وقال مجاهد: «أمم أمثالكم»، أصناف مصنفة تعرف بأسمائها.

وقال الزجاج: أمم أمثالكم في أنها تبعث.

وقال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في طلب الغذاء، وابتغاء الرزق، وتوقي المهالك.

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام الطيب عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه،

فكذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل تروّاه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية، واستنبط منها هذه الحكمة، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعاً لظاهره، وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله تعالى عن وجود المماثلة بيننا وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة، وعدم من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون ممتنع من جهة الخلقة والصورة، وعدم من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون منصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق، وإذا كان الأمر كذلك فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم على حسب ذلك، انتهى كلامه.

والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوباً محتالاً، وبعضها متوكلاً غير محتال، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقاً مضموناً، وأمراً مقطوعاً، وبعضها يدخر، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكورة يعول ولده، وبعضها لا يعرف ولده البتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه.

وجعل بعض الحيوانات يتمها من قبل أمهاتها، وبعضها يتمها من قبل آبائها، وبعضها لا يلتمس الولد، وبعضها يستفرغ الهم في طلبه، وبعضها يعرف الإحسان ويشكره، وبعضها لا يؤثر ذلك عنده شيئاً، وبعضها يؤثر على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحداً يدنو منه.

وبعضها يحب السفاد ويكثر منه، وبعضها لا يفعله في

السنة إلا مَرَّة، وبعضها يقتصر على أنثاه، وبعضها لا يعفّ عن أنثى، ولو كانت أمه أو أخته! وبعضها لا تمكن غير زوجها من نفسها، وبعضها لا تردّ يد لامس.

وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم وينفر غاية النفار.

وبعضها لا يأكل إلا الطيب، وبعضها لا يأكل إلا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين.

وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها، وبعضها تؤذي من لا يؤذيها، وبعضها حقود لا ينسى الإساءة، وبعضها لا يذكرها البتَّة.

وبعضها لا يغضب، وبعضها يشتد غضبه فلا يزال يسترضى حتى يرضى.

وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس، وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك البتة، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه، وبعضها الحسن والقبيح عنده سواء.

وبعضها يقبل التعليم بسرعة، وبعضها مع الطول، وبعضها لا يقبل ذلك بحال.

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه، وعلى إتقان صنعه، وعجيب تدبيره، ولطيف حكمته، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف، وغوامض الحيل وحسن التدبير والتأني لما تريده، ما يستنطق الأفواه بالتسبيح ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثاً ولا يترك سُدى، وأن لله سبحانه في كل مخلوق حكماً باهرة، وآيات ظاهرة، وبرهاناً قاطعاً، يدل على أنه ربّ كلّ شيء ومليكه، وأنه المنفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني

تذليل الحيوان للإنسان

ثمَّ تأمَّلِ الحِكمَةَ البالغَةَ في إعطائِهِ سبحانهُ بهيمَةَ الأنعامِ الأسماعَ والأبصارَ ليتمَّ تناولُها لمصالحها ويكمُلَ انتفاعُ الإنسانِ بها، إذ لو كانَت عمياءَ وصمَّاء لم يتمكَّن منَ الانتفاعِ بها، ثمَّ سَلَبها العُقولَ التي للإنسانِ ـ على كِبَرِ خَلقها ـ ليتمَّ تَسخيرُهُ إيَّاها فيقودَها ويُصَرِّفَها حيثُ شاءَ.

ولو أُعطِيت العقولَ على كِبَرِ خَلقها لامتنَعَت من طاعتهِ واستَعصَت عليهِ ولم تكُن مُسخَّرَةً لهُ، فأُعطيَت من التَّمييزِ والإدراكِ ما تَتمُّ به مصلحتُها ومصلحةُ منَ ذُلِّلَتْ لهُ، وسُلِبَت من الذِّهنِ والعَقلِ ما مَيَّزَ به عليها الإنسانَ وليظهَرَ أيضاً فضيلَةُ التَّمييزِ والاختصاصِ.

ثمَّ تأمَّلْ كيفَ قادَها وذلَّلها على كبرِ أجسامها ولم يكُن يطيقها لولا تَسخيرُ اللَّهِ لها.

قال اللَّهُ تعالى: ﴿... وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣]، أي: مطيقين ضابطين.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١، ٧٢].

فترى البَعيرَ على عِظَمِ خلقَتهِ يقودهُ الصَّبيُّ الصَّغيرُ ذليلاً مُنقاداً، ولو أُرسلَ عليهِ لسوَّاهُ بالأرضِ ولَفَصَلهُ عضواً عضواً. . .

فمن الذي ذلَّلهُ وسخَّرهُ وقادَهُ على قوَّتهِ لبشرٍ ضَعيفٍ من أضعَفِ المخلوقاتِ، وفرَّغَ بذلكَ التَّسخيرِ النَّوعَ الإنسانيَّ لمصالحِ معاشهِ ومعادهِ؟ فإنَّهُ لو كانَ يُزاولُ من الأعمالِ والأحمالِ ما يُزاولُ الحيوانُ لَشُغلَ بذلكَ عن كثيرٍ من الأعمالِ؛ لأنَّهُ كانَ يحتاجُ مكانَ الجمَلِ الواحدِ إلى عدَّةِ أَناسِيَّ يحملونَ أثقالَهُ وحملَهُ ويعجزونَ عن ذلكَ، وكانَ ذلكَ يستفرغُ أوقاتَهم ويصدُّهُم عن مصالحهم، فأُعينوا بهذه الحيواناتِ مع ما لهم فيها من المنافعِ التي لا يُحصيها إلَّا اللَّهُ من الغذاءِ والشرابِ والدَّواءِ واللباسِ والأمتعَةِ والآلاتِ والأواني والرُّكوبِ والحَرْثِ والمنافعِ الكثيرَةِ والجَمالِ.



الفصل الثالث

النظر في تكوين الحيوانات

[طريقة تربية الحيوانات صغارها]

ثمَّ تأمَّلْ أُولي ذواتِ الأربعِ منَ الحيوانِ، كيفَ تراها تَتْبَعُ أُمَّهاتِها مُستقلَّةً بأنفسِها، فلا تَحتاجُ إلى الحَمْلِ والتَّربيةِ كما يحتاجُ إليهِ أولادُ الإنسِ، فمِن أجلِ أنَّهُ ليسَ عندَ أُمَّهاتها ما عندَ أُمَّهاتِ البَشرِ من التَّربيَةِ والمُلاطَفةِ والرِّفقِ والآلاتِ المُتَّصلَةِ والمُنفَصلَةِ أعطاها اللطيفُ الخبيرُ النُّهوضَ والاستقلالَ بأنفسِها على قربِ العَهدِ بالولادَةِ.

ولذلكَ تَرى أفراخَ كثيرٍ من الطَّيرِ ـ كالدَّجاجِ والدُّرَّاجِ والقَبَجِ[1] ـ يَدرُجُ ويلقطُ حينَ يخرجُ من البَيضَةِ، وما كانَ منها ضَعيفَ النُّهوضِ كفراخِ الحمامِ واليَمامِ أعطى سبحانهُ أُمَّهاتِها من فَضلهِ العَطْفَ والشَفَقَةَ والحنانَ ما تَمُجُّ به الطعمَ في أفواهِ الفراخِ من حواصلها فتخبِّئُهُ في أعزِّ مكانٍ فيها، ثمَّ تسوقهُ من فيها إلى أفواهِ الفراخِ، ولا تزالُ كذلكَ حتى ينهَضَ الفَرخُ ويستقلَّ بنفسهِ.

وذلكَ كلُّهُ من حظِّها وقَسْمِها الذي وَصَلَ إليها من الرَّحمَةِ الواحدَةِ من المائة[2].

---

(١) الدراج: نوع من الطيور يدرج في مشيه، والقبج: الحجل.

(٢) إشارة إلى الحديث المتفق عليه (خ٦٠٠٠، م٢٧٥٢): قال ﷺ: =

فإذا استقلَّ بنفسهِ وأمْكَنَهُ الطَّيرانُ لم يَزَل به الأبَوانِ يُعالجانهِ أتمَّ معالجةٍ وألطفَها حتى يَطيرَ من وكرهِ ويسترزقَ لنفسهِ ويأكلَ من حيثُ يأكلانِ، وكأنَّهما لم يَعرفاهُ ولا عَرَفهما قطُّ، بل يَطْرُدانهِ عن الوَكْرِ ولا يَدَعانهِ وأقواتَهما وبَيْتَهما، بل يقولانِ له بلسانٍ يَفهمُهُ: اتَّخِذ لكَ وَكْراً وقُوتاً، فلا وكرَ لكَ عندَنا ولا قوتَ!

[فهل] هذا كلُّهُ عن إهمالٍ! ومن الذي ألْهَمَهَا ذلكَ؟ ومَن الذي عَطَّفَهُما على الفراخِ وهي صغارٌ أحوَجَ ما كانَت إليهما ثمَّ سلبَ ذلكَ عَنْهُما إذا استغنَت الفراخُ؛ رحمَةً بالأُمَّهاتِ تَسعى في مصالحها إذ لو دامَ لها ذلكَ لأضرَّ بها وشَغَلَها عن معاشها لا سيِّما مع كثرَةِ ما يحتاجُ إليهِ أولادُها من الغذاءِ، فوضعَ فيها الرَّحمَةَ والإيثارَ والحنانَ رحمَةً بالفراخِ، وسَلَبَها إيَّاها عندَ استغنائها رحمَةً بالأُمَّهاتِ، أفيجوزُ أنْ يكونَ هذا كلُّهُ بلا تَدبيرِ حكيمٍ ولا عنايَةٍ ولا لُطفٍ منه سبحانه وتعالى؟!

لَقَد قامَت أدلَّةُ ربوبيَّتهِ وبراهينُ أُلوهيَّتهِ وشواهدُ حكمتهِ وآياتُ قُدْرتهِ فلا يَستطيعُ العقلُ لها جُحوداً، إنْ هيَ إلّا مُكابَرَةٌ باللسانِ من كلِّ جَحُودٍ كَفورٍ؛ ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وإنَّما يكونُ الشكُّ فيما تَخفى أدلَّتهُ وتُشْكِلُ براهينهُ، فأمَّا مَن لهُ في كلِّ شيءٍ محسوسٍ أو معقولٍ آيَةٌ - بل آياتٌ مُؤدِّيَةٌ عنهُ شاهدَةٌ لهُ بأنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو ربُّ العالَمينِ - فكيفَ يكونُ فيهِ شكٌّ؟!!

= (جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزأً، وأنزل في الأرض جزأً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه).

[وجه الدابة]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمَةَ الباهرَةَ في وجهِ الدَّابَّةِ كيفَ هو؛ فإنَّكَ تَرى العَينينِ فيه شاخِصَتَيْنِ أمامَها لِتُبصِرَ ما بينَ يَديها أتمَّ مِن بَصرِ غيرها، لأنَّها تحرُسُ نَفسها وراكبها فَتَتَّقي أن تَصدِمَ حائطاً أو تَتَردَّى في حُفرَةٍ، فجُعِلَت عيناها كعَيني المُنتَصِبِ القامَةِ لأنَّها طَليعَتُه.

وجُعلَ فوها مشقوقاً في أسفَلِ الخَطْمِ لتَتمكَّن من العَضِّ والقَبضِ على العَلَفِ، إذ لو كانَ فوها في مُقدَّم الخَطم كما أنَّهُ من الإنسانِ في مُقدَّم الذَّقْنِ لَمَا استطاعَت أن تَتناوَلَ بهِ شيئاً من الأرضِ، ألَا تَرى الإنسانَ لا يتناوَلُ الطَّعامَ بفيهِ لكنْ بيَدهِ، فلمّا لم تكُن الدَّابَّةُ تَتناوَلُ طعامَها بيَدها جُعِلَ خَطْمُها مَشقوقاً من أسفلهِ لِتضعَهُ على العَلَفِ ثمَّ تَقضَمَهُ، وأُعينَت بالجَحْفَلَةِ ـ وهي لها كالشفَةِ للإنسانِ ـ لتلتقمَ بها ما قَرُبَ منها وما بَعُدَ.

[أسنان الحيوان]

ثمَّ تأمَّل الحِكمَةَ في خَلْق الحيوانِ الذي يأكلُ اللحمَ من البهائم؛ كيفَ جُعِلَت له أسنانٌ حِدادٌ وبراثنُ شِدادٌ وأشداقٌ مَهروتَةٌ[1] وأفواهٌ واسعَةٌ، وأُعينَت بأسلحَةٍ وأدواتٍ تَصْلُحُ للصَّيدِ والأكلِ، ولذلكَ تَجدُ سباعَ الطَّيرِ ذواتَ مناقيرَ حِدادٍ ومخالبَ كالكلاليبِ.

ولهذا حرَّمَ النَّبيُّ ﷺ كلَّ ذي نابٍ من السِّباعِ ومِخلبٍ من الطَّيرِ[2] لضرَرهِ وعُدوانهِ وشرِّهِ، والمُغتَذي شبيهٌ بالغاذي، فلو

---

(١) الهريت: الواسع.

(٢) رواه مسلم (١٩٣٤).

اغتَذى بها الإنسانُ لصارَ فيه من أخلاقها وعُدوانها وشرِّها ما يُشابهُها به، فحرَّمَ على الأمَّةِ أكلَها، ولم يُحرِّم عليهم الضَّبُعَ وإنْ كانَ ذا نابٍ؛ فإنَّهُ ليسَ منَ السِّباعِ عندَ أحدٍ من الأمَم، والتَّحريمُ إنَّما كانَ لِمَا تَضمَّنَ الوصفَينِ؛ أن يكونَ ذا نابٍ وأن يكونَ من السِّباعِ

ولا يُقالُ: هذا يُنتقضُ بالسَّبُعِ إذا لم يكُن لهُ نابٌ؛ لأنَّ هذا لم يُوجَد أبداً؛ فصلواتُ اللَّهِ وسلامُه على مَن أُوتيَ جوامعَ الكلمِ فأوضَحَ الأحكامَ وبيَّنَ الحلالَ والحرام.

[قوائم الحيوان]

ثمَّ تأمَّلِ الحِكمَةَ البالغَةَ في قوائم الحيوانِ؛ كيفَ اقتَضَتْ أنْ يكونَ زوجاً لا فَرداً؛ إمَّا اثنتينِ وإمَّا أربعاً ليتهيَّأَ لهُ المشيُ والسَّعيُ وتتمَّ بذلكَ مصلحتُهُ؛ إذ لو كانَت فَرداً لم يَصلُح لذلكَ؛ لأنَّ الماشي ينتقلُ ببَعضِ قوائمِهِ ويعتمدُ على بَعضٍ، فذو القائمتينِ ينقلُ واحدَةً ويَعتمدُ على الأُخرى، وذو الأربَعِ ينقلُ الثنتين ويعتَمدُ على اثنتين ـ وذلكَ من خلافٍ ـ لأنَّهُ لو كانَ ينقلُ قائمتينِ من جانبٍ ويَعتمدُ على قائمتين من الجانبِ الآخَرِ لم يثبُت على الأرضِ حالَ نقلهِ قوائمَهُ ولكانَ مشيهُ نَقراً كنقرِ الطَّائرِ، وذلكَ ممَّا يُؤذيهِ ويُتعبهُ لنقلِ بَدَنهِ بخلافِ الطَّائرِ، ولهذا إذا مَشى كذلكَ قليلاً أجهَدَهُ وشقَّ عليهِ بخلافِ مَشيهِ الطَّبيعي الذي هو لهُ، فاقتَضت الحكمَةُ تَقديمَ نَقلِ اليُمنى من يَديهِ مع اليُسرى من رجليهِ، وإقرارَ يُسرى اليدين ويُمنى الرِّجلَينِ، ثمَّ نَقْلَ الأُخرَيَيْنِ كذلكَ، وهذا أسهَلُ ما يكونُ منَ المَشيِ وأخفُّهُ على الحيوانِ.

[ظهور الدواب]

ثَمَّ تأمَّلِ الحِكمَةَ البالغَةَ في أنْ جَعَلَ ظهورَ الدَّوابِّ مَبسوطَةً كأنَّها سَقفٌ على عُمُدِ القوائم؛ ليتهيَّأَ ركوبها وتَستقرَّ الحُمولَةُ عليها، ثمَّ خُولِفَ هذا في الإبِلِ فجعَلَ ظهورَها مُسنَّمَةً معقودَةً كالقَبو لِمَا خُصَّت به من فَضلِ القوَّةِ وعِظَمِ ما تحملُهُ، والأَقْباءُ تحملُ أكثَرَ ممَّا تحملُ السُّقوفُ حتى قيلَ: إنَّ عقدَ الأقباءِ إنَّما أُخذَ من ظهورِ الإبلِ.

وتأمَّلْ كيفَ لمّا طوَّلَ قوائمَ البعيرِ طوَّلَ عُنُقَهُ ليتناوَلَ المَرعى من قيام، فلو قَصُرَت عُنُقُهُ لم يُمْكِنهُ ذلكَ مع طُولِ قوائمِهِ، وليكونَ أيضاً طولُ عنقِهِ موازناً للحملِ على ظَهرِهِ إذا استقلَّ به كما تَرى طولَ قَصَبَةِ القبَّانِ، حتى قيلَ: إنَّ القبَّانَ إنَّما عُملَ على خِلْقَةِ الجَمَلِ من طولِ عنقِهِ وثِقَلِ ما يحملهُ، ولهذا تَراهُ يَمُدُّ عُنُقَهُ إذا استَقلَّ بالحَمْلِ كأنَّهُ يُوازِنُهُ موازنَةً.

[كساء أجسام الحيوان]

ثمَّ تأمَّلْ كيفَ كُسِيَت أجسامُ الحيوانِ البَهيميّ هذه الكسوَةَ من الشعرِ والوَبَرِ والصُّوفِ، وكُسيَت الطُّيورُ الرِّيشَ، وكُسيَ بَعضُ الدَّوابِّ منَ الجلدِ ما هو في غايَةِ الصَّلابَةِ والقوَّةِ كالسُّلحفاةِ، وبعضُها منَ الرِّيشِ ما هو كالأسِنَّةِ، كلُّ ذلكَ بحسبِ حاجاتها إلى الوقايَةِ منَ الحرِّ والبَردِ والعدوِّ الذي يُريدُ أذاها.

فإنَّها لَمَّا لم يكُن لها سبيلٌ إلى اتِّخاذِ الملابسِ واصطناعِ الكسوَةِ وآلاتِ الحربِ أُعينَت بملابسَ وكسوَةٍ لا تُفارقها، وآلاتِ وأسلحَةٍ تَدفَعُ بها عن نفسها، وأُعينَت بأظلافٍ وأخفافٍ وحوافرَ لَمّا عَدِمَت الأحذيَةَ والنِّعالَ، فمعها حذاؤها وسقاؤها.

وخُصَّ الفَرَسُ والبَغلُ والحمارُ بالحوافرِ لَمّا خُلقَ للرَّكضِ والشدِّ والجريِ، وجَعَلَ ذلكَ لها أيضاً سلاحاً عندَ انتصافها من خصمها عِوَضاً عن الصَّياصي[1] والمخالبِ والأنيابِ والبراثنِ.

فتأمَّلْ هذا اللُّطفَ والحِكمَةَ فإنَّها لمّا كانَت بهائمَ خُرْساً لا عقولَ لها ولا أكُفَّ، ولا أصابعَ مُهيَّأةً للانتفاعِ والدِّفاعِ، ولا حظَّ لها فيما يَتصرَّفُ فيه الآدميُّون من النَّسْجِ والغَزْلِ ولطفِ الحيلَةِ جُعلَت كسوتُها من خلقتها باقيَةً عليها ما بقيَت لا تَحتاجُ إلى الاستبدالِ بها، وأُعطِيَت آلاتٍ وأسلحَةً تحفَظُ بها أنفسَها، كلُّ ذلكَ لتَتِمَّ الحكمَةُ التي أُريدَت بها ومنها[2].

---

(١) هي قَرْن البقر والظباء.

(٢) قال ابن القيم ﷺ:
وأمَّا الإنسانُ فإنَّهُ ذو حيلَةٍ وكفٍّ مُهيَّأَةٍ للعملِ؛ فهي تَغزلُ وتَنسجُ، ويتَّخذُ لنفسهِ الكسوَةَ ويستبدِلُ بها حالاً بَعدَ حالٍ، ولهُ في ذلكَ صلاحٌ من جهاتٍ عَديدَةٍ:
منها: أن يَستريحَ إذا خَلَعَ كسوَتَهُ إذا شاءَ ويلبسها إذا شاءَ ليسَ كالمُضطرِّ إلى حَملِ كسَوةٍ.
ومنها: أنَّهُ يتَّخذُ لنفسهِ ضروباً من الكسوةِ للصَّيفِ وضروباً للشتاءِ؛ فإنَّ كسوَةَ الصَّيفِ لا تَليقُ بالشتاءِ وكسوَةَ الشتاءِ لا تَليقُ بالصَّيفِ فيتَّخذُ لنفسهِ في كلِّ فَصلٍ كسوَةً مُوافِقَةً.
ومنها: أنَّهُ يجعلُها تابعَةً لشهوتهِ وإرادتهِ.
ومنها أنَّهُ يتلذَّذُ بأنواعِ الملابسِ كما يتلذَّذُ بأنواعِ المطاعمِ، فجُعلَت كسوتهُ متنوِّعةً تابعَةً لاختيارهِ كما جُعِلَت مطاعمُهُ كذلكَ، فهو يَكتسي ما يشاءُ من أنواعِ الملابسِ المتَّخذَةِ من النَّباتِ تارَةً كالقُطنِ والكَتَّانِ، ومن الحيوانِ تارَةً كالوَبَرِ والصُّوفِ والشعرِ، ومن الدُّودِ تارَةً كالحَريرِ والإبْرَيْسَم، ومن المعادن تارَةً كالذَّهَبِ والفضَّةِ، فجُعِلَت كسوتُهُ متنوِّعَةً لِتَتِمَّ لذَّتُهُ وسرورُهُ وابتهاجُهُ وزينتُهُ بها، ولذلكَ كانَت كسوَةُ=

[آلات البطش]

ثمَّ تأمَّل الحِكمَةَ في خَلْقِ آلاتِ البَطْشِ في الحيواناتِ من الإنسانِ وغيرِهِ، فالإنسانُ لمّا خُلِقَ مُهيّأً لمثلِ هذه الصِّناعاتِ منَ البناءِ والخياطَةِ والكتابَةِ والنِّجارة وغيرها خُلقَ لهُ كفٌّ مُستَديرٌ مُنبَسِطٌ وأصابعُ يتَمكَّنُ بها منَ القَبضِ والبَسطِ والطيِّ والنَّشرِ والجمعِ والتَّفريقِ وَضمِّ الشيءِ إلى مثلهِ، والحيوانُ البهيمُ لمّا لم يتهيَّأ لتلكَ الصَّنائعِ لم يُخلق له تلكَ الأكفُّ والأصابعُ، بل لمّا قُدِّرَ أن يكونَ غذاءُ بعَضها مِن صَيدهِ ـ كالسِّباعِ ـ خُلقَ لها أكفٌّ لِطافٌ مُدْمَجَةٌ ذواتُ براثنَ ومخالبَ تصلحُ لاقتناصِ الصَّيدِ ولا تَصلحُ للصِّناعاتِ.

هذا كلُّهُ في أَكَلَةِ اللَّحم منَ الحيوانِ، وأمَّا أكَلَةُ النَّباتِ فلمّا قدَّرَ أنَّها لا تَصطادُ ولا صَنْعَةَ لها خَلَقَ لبعضها أظْلافاً تقيها خُشونَةَ الأرضِ إذا جالَت في طَلَبِ المَرعى ولبَعضها حوافرَ مُلملمةً مُقعَّرَةً كأخمَصِ القَدمِ لتنطَبِقَ على الأرضِ وتُهَيَّأ للرُّكوبِ

= أهلِ الجنَّةِ منفصِلَةً عنهُم كما هي في الدُّنيا ليسَت مخلوقَةً من أجسامهم كالحيوان، فدلَّ على أنَّ ذلكَ أكمَلُ وأجلُّ وأبلغُ في النِّعمَةِ.

ومنها: إرادَةُ تَمييزهِ عنِ الحيوانِ في ملبسهِ كما ميَّزهُ عنهُ في مطعمهِ ومسكنهِ وبيانهِ وعقلهِ وفَهمهِ.

ومنها: اختلافُ الكسوَةِ واللباسِ وتبايُنُهُ بحسَبِ تبايُنِ أحوالهِ وصنائعهِ، وحربهِ وسلمهِ، وظَعْنهِ وإقامَتهِ، وصحَّتهِ ومرضِهِ، ونومهِ ويَقظَتهِ، ورفاهيَّتهِ، فلكلِّ حالٍ من هذه الأحوالِ لباسٌ وكسوَةٌ تخصُّها لا تَليقُ إلّا بها فلم يجعَل كسوَتَهُ في هذه الأحوالِ كلِّها واحدَةً لا سبيلَ إلى الاستبدالِ بها، فهذا من تَكريمهِ وتَفضيلهِ على سائرِ الحيوانِ.

والحمولَةِ، ولم يخلُق لها براثنَ ولا أنياباً لأنَّ غذاءَها لا يحتاجُ إلى ذلكَ.

[خرطوم الفيل]

ثمَّ تأمَّل مِشْفَرَ الفيلِ وما فيهِ من الحِكَمِ الباهرَةِ، فإنَّهُ يقومُ مقامَ اليَدِ في تناوُلِ العَلَفِ والماءِ وإيرادهما إلى جَوفهِ، ولولا ذلكَ ما استطاعَ أن يتناوَلَ شيئاً من الأشياءِ منَ الأرضِ؛ لأنَّهُ ليسَت له عُنُقٌ يمدُّها كسائرِ الأنعامِ، فلمَّا عُدمَ العنقَ أُخْلفَ عليهِ مكانَهُ الخُرطومُ الطَّويلُ ليسدَّ مسدَّهُ، وجُعلَ قادراً على سَدْلهِ ورَفعهِ وثَنْيهِ والتَّصرُّفِ به كيفَ شاءَ، وجُعلَ وعاءً أجوَفَ ليِّنَ المَلْمَسِ، فهو يتناوَلُ به حاجتَهُ ويُحمِّلُهُ ما أرادَ إلى جوفهِ، ويحبسُ منه ما يريدُ، ويكيدُ به إذا شاءَ، ويُعطي ويتناوَلُ إذا أرادَ.

فَسَلِ المُعطِّلَ: مَن الذي عوَّضهُ وأخلَفَ عليهِ مكانَ العُضوِ الذي منعهُ ما يقومُ له مقامَهُ وينوبُ منابَهُ غيرُ الرَّؤوفِ الرَّحيم بخلقهِ المُتكفِّلِ بمصالحهم اللطيفِ بهم؟ وكيفَ يتأتَّى ذلكَ معَ الإهْمالِ وخُلُوِّ العالَمِ عن قيِّمهِ وبارئهِ ومُبدعهِ وفاطرِه! لا إلهَ إلّا هو العَزيزُ الحكيمُ.

فإنْ قلتَ: فما بالُهُ لم يُخلق ذا عُنُقٍ كسائرِ الأنعامِ؟ وما الحكمَةُ في ذلكَ؟

قيلَ: ـ واللَّهُ أعلمُ في مصنوعاتِهِ ـ: لأنَّ رأسَهُ وأُذنيهِ أمرٌ هائلٌ عَظيمٌ، وحِمْلٌ ثَقيلٌ، فلو كانَ ذا عُنقٍ كسائرِ الأعناقِ لانْهَدَّتْ رقبتُهُ بثقلهِ ووَهَنت بحملهِ فجعَلَ رأسَهُ مُلْصَقاً بجسمهِ لئلَّا ينالَهُ منهُ شيءٌ من الثِّقَلِ والمؤنَةِ، وخَلَقَ لهُ مكانَ العُنقِ هذا المِشْفَرَ الطَّويلَ يتناوَلُ به غذاءَهُ.

ولمّا طالَت عُنُقُ البَعيرِ للحكمَةِ في ذلكَ صَغُرَ رأسُهُ إلى عِظَمِ جُثَّتِهِ لئلّا يُؤذيه ثِقَلُهُ ويوهنَ عُنُقَهُ.

فَسُبحانَ مَن فاتَت حِكَمُهُ عدَّ العادِّينَ وحَصرَ الحاصرين.

[عجز الدابة]

وقَد أشكلَت منفعَةُ الذَّنَبِ على بَعضِ النَّاسِ ولم يَهْتَدِ إليها! وفيها منافعُ عَديدةٌ:

فمنها أنَّهُ بمنزلَةِ الطَّبَقِ على الدُّبُرِ والغطاءِ على حياها[1]، يُواريهما ويَستُرُهما.

ومنها أنَّ بينَ الدُّبرِ ومراقِّ البَطنِ[2] من الدَّابَّةِ له وَضَرٌ[3] يجتمعُ عليهِ الذُّبابُ والبعوضُ فيؤذي الدَّابَّةَ، فجُعِلَ أذنابُها كالمَذَابِّ لها والمراوحِ تَطردُ به ذلكَ.

ومنها أنَّ الدَّابَّةَ تَستريحُ إلى تَحريكهِ وتَصريفهِ يَمْنَةً ويَسْرَةً؛ فإنَّهُ لمّا كانَ قيامُها على الأربعِ بكلِّ جسمها وشُغِلَت قدماها بحملِ البَدنِ عن التَّصرُّفِ والتَّقلُّبِ كانَ لها في تَحريكِ الذَّنَبِ راحَةٌ.

وعسى أن يكونَ فيه حِكَمٌ أُخَرُ تَقْصُرُ عنها أفهامُ الخَلْقِ أو يَزْدريها السَّامعُ إذا عُرِضَت عليهِ؛ فإنَّهُ لا يَعرفُ مَوقعَها إلّا في وَقتِ الحاجَةِ، فمن ذلكَ أنَّ الدَّابَّةَ تَربِضُ في الوَحَلِ فلا يكونُ شيءٌ أعْوَنَ على رَفعها من الأخذِ بذنبها!

ثمَّ تأمَّل الحِكمَةَ في كونِ فَرْجِ الدَّابَّةِ جُعلَ بارزاً من ورائها

---

(١) هو الفَرْجُ مِن ذوات الخُفّ والظِّلْفِ والسِّباع.

(٢) هو ما رَقّ مِن البطن ولَانَ في أسافِله ونحوها.

(٣) هو وَسَخُ الدَّسَم، جمعُها أوْضار.

ليتمكَّنَ الفَحْلُ مِن ضِرابها ولو جُعلَ في أسفَلِ بَطنها كما جُعلَ للمرأةِ لم يتمكَّن الفَحلُ من ضِرابها إلّا على الوجهِ الذي تُجامَعُ بهِ المرأةُ.

وقَد ذُكرَ في كُتُبِ الحيوانِ أنَّ فُروجَ الفيلَةِ في أسفَلِ بَطنها، فإذا كانَ وقتُ الضِّرابِ ارتفَعَ ونَشَزَ وبَرَزَ للفَحلِ فيتمكَّنَ من ضِرابها، فلمَّا جُعِلَ في الفيلَةِ على خلافِ ما هو في سائرِ البهائمِ خُصَّت بهذه الخاصيَّةِ عنها ليتهيَّأ الأمرُ الذي بهِ دوامُ النَّسلِ.

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع

النظر في تكوين الطيور

[جسم الطائر]

ثمَّ تأمَّلْ جسمَ الطَّائرِ؛ فإنَّهُ حينَ قُدِّرَ بأن يكونَ طائراً في الجوِّ خَفَّفَ جسمَهُ وأدمجَ خِلقتهُ واقتَصَرَ به من القوائم الأربعِ على اثنتين، ومنَ الأصابعِ الخمسِ على أربعٍ، ومن مخرج البوَلِ والزِّبلِ على واحدٍ يجمعُهما جميعاً، ثمَّ خُلِقَ ذا جُؤْجُؤٍ[1] محدودٍ ليسهُلَ عليهِ اختراقُ الهواءِ كيفَ توجَّهَ فيهِ، كما يُجعَلُ صَدرُ السَّفينَةِ بهذه الهَيئَةِ ليشقَّ الماءَ بسرعَةٍ وتَنفُذَ فيهِ، وجُعلَ في جناحيهِ وذنبهِ ريشاتٌ طِوالٌ مِتانٌ لينهَضَ بها للطَّيرانِ، وكسا جسمَهُ كلَّهُ الرِّيشَ، ليتداخَلَهُ الهواءُ فيحملَهُ.

ولمّا قُدِّرَ أن يكونَ طعامُهُ اللحمَ والحَبَّ يبلعُهُ بلا مَضغ نُقِصَ من خلقِ الأسْنانِ وخُلِقَ لهُ مِنقارٌ صَلبٌ يتناوَلُ به طعامَهُ فلاَ يَتَسَحَّجُ[2] من لَقطِ الحبِّ، ولا ينقصفُ من نَهشِ اللحمِ.

ولمّا عُدمَ الأسنانَ وصارَ يَزدردُ الحَبَّ صحيحاً واللحمَ غَريضاً[3] أُعينَ بفَضلِ حرارَةٍ في الجوفِ تَطحنُ الحَبَّ وتَطبخُ اللحمَ، فاستَغنى عن المضغِ.

---

(١) هو مُجتمع رؤوس عظام الصَّدْر.

(٢) يَتقشَّرُ.

(٣) طريًّا.

والذي يدلُّكَ على قوَّةِ الحرارَةِ التي أُعينَ بها أنَّكَ تَرى عَجَمَ الزَّبيبِ وأمثالِهِ يخرجُ من بَطنِ الإنسانِ صحيحاً وينطبخُ في جوفِ الطَّائرِ حتى لا يُرى لهُ أثرٌ.

ثمَّ اقتَضَتِ الحكمَةُ أنْ جُعِلَ يَبيضُ بيضاً ولا يَلِدُ ولادَةً لئلَّا يثقُلَ عن الطَّيرانِ؛ فإنَّهُ لو كانَ ممَّا يحملُ ويمكُثُ حملُهُ في جوفِهِ حتى يستحكِمَ ويثْقلَ لأثْقَلَهُ وعاقَهُ عن النُّهوضِ والطَّيرانِ.

وتأمَّلِ الحِكمَةَ في كونِ الطَّائرِ المُرسَلِ السَّابحِ في الجوِّ يُلْهَمُ صَبرَ نَفسهِ أُسبوعاً أو أُسبوعَين باختيارهِ قاعداً على بيضهِ، حاضناً له، ويحتملُ مشقَّةَ الحبسِ، ثمَّ إذا خَرَجَ فراخُهُ تحمَّلَ مشقَّةَ الكَسبِ وجَمْعِ الحبِّ في حَوْصلتهِ ثمَّ يَزُقُّهُ فراخَهُ، وليسَ بذي رويَّةٍ ولا فكرَةٍ في عاقبَةِ أمرهِ ولا يُؤمِّلُ في فراخهِ ما يؤمِّلُ الإنسانُ في ولدهِ من العَونِ والرِّفدِ وبقاءِ الذِّكْرِ.

فهذا من فعلهِ يَشهَدُ بأنَّهُ معطوفٌ على فراخهِ لعلَّةٍ لا يعلمُها هو ولا يفكِّرُ فيها من دوامِ النَّسلِ وبقائِهِ.

[البيضة]

ثمَّ تأمَّلْ خِلْقَةَ البَيضَةِ وما فيها من المُحِّ الأصفَرِ الخاثرِ والماءِ الأبيَضِ الرَّقيقِ - فبعضُهُ ينشأُ منهُ الفرْخ، وبعضهُ يغتذي منهُ إلى أن يخرجَ من البَيضَةِ - وما في ذلكَ من الحكمَةِ؛ فإنَّهُ لما كانَ نشوءُ الفرخِ في تلكَ البَشرَةِ المنخفِضَةِ التي لا نفاذَ فيها للواصلِ من خارجٍ جَعَلَ معهُ في جوفِ البيضَةِ منَ الغذاءِ ما يكتفي بهِ إلى خُروجِهِ.

[حوصلة الطائر]

وتأمَّلِ الحِكمَةَ في حَوصَلةِ الطَّائر وما قُدِّرَت لهُ؛ فإنَّ

مسلكَ الطَّعام إلى القابضَةِ ضيّقٌ لا ينفُذُ فيهِ الطَّعامُ إلَّا قليلاً، فلو كانَ الطَّائرُ لَا يَلتقطُ حبَّةً ثانيَةً حتى تَصِلَ الأُولى إلى جوفهِ لطالَ ذلكَ عليهِ، فمتى كانَ يَستَوفي طعامَهُ؟ وإنَّما يختلسُهُ اختلاساً لشدَّةِ الحَذَرِ، فجُعِلَت لهُ الحوصَلَةُ كالمِخْلاةِ المُعلَّقَةِ أمامَهُ ليوعي فيها ما ازْدَرَدَ من الطُّعمِ بسُرعَةٍ، ثمَّ ينفُذُ إلى القابضَةِ على مَهَلٍ.

وفي الحَوْصَلَةِ أيضاً خَصْلَةٌ أخرى؛ فإنَّ منَ الطَّيرِ ما يحتاجُ إلى أن يزقَّ فراخَهُ فيكونَ ردُّهُ الطُّعمَ من قربٍ ليسهُلَ عليهِ.

[ألوان الطيور]

ثمَّ تأمَّلْ هذه الألوانَ والأصباغَ والوَشْيَ التي تَراها في كثيرٍ من الطَّيرِ كالطَّاووسِ والدَّرَّاجِ وغيرِهما التي لو خُطَّت بدَقيقِ الأقلامِ ووُشِيَت بالأيدي لم يكُن هذا! فَمِن أينَ في الطَّبيعَةِ المُجرَّدَةِ هذا التَّكشيلُ والتَّخطيطُ والتَّلوينُ والصَّبغُ العجيبُ البَسيطُ والمُركَّبُ الذي لو اجتمَعَت الخليقَةُ على أن يُحاكوهُ لَتعذَّرَ عليهم؟

فتأمَّلْ ريشَ الطَّاووسِ كيفَ هو؟ فإنَّكَ تراهُ كنَسْجِ الثَّوبِ الرَّفيعِ من خُيوطٍ رِفاعٍ جدًّا قد أُلِّفَ بعضُها إلى بَعضٍ كتأليفِ الخَيطِ إلى الخيط بلِ الشَّعرَةِ إلى الشعرَةِ، ثمَّ ترى النَّسْجَ إذا مدَدْتَهُ ينفتحُ قليلاً قليلاً ولا ينشقُّ ليتداخَلهُ الهواءُ فينتقلَ الطَّائرُ إذا طارَ، فتَرى في وَسَطِ الرِّيشةِ عموداً غَليظاً مَتيناً قد نُسجَ عليهِ ذلكَ الثَّوبُ كهَيئةِ الشعرِ لِيُمْسِكَهُ بصلابتهِ؛ وهو القَصَبَةُ التي تكونُ في وسَطِ الرِّيشَةِ وهو معَ ذلكَ أجوَفُ ليشتملَ على الهواءِ فيحملَ الطَّائرَ، فأيُّ طبيعَةٍ فيها هذه الحِكمَةُ والخبرَةُ واللُّطفُ؟

ثمَّ لو كانَ ذلكَ في الطَّبيعَةِ ـ كما يقولونَ ـ لكانَت من أدلِّ

الدَّلائلِ وأعظَم البراهين على قُدرَةِ مُبدعِها ومُنشئها وعلمهِ وحكمتهِ، فإنَّهُ لَم يكُن لها ذلكَ من نَفسها، بل إنَّما هو لها ممَّن خَلَقَها وأبدعَها.

فما كذَّبهُ المعطِّلُ هو أحدُ البراهين والآياتِ التي على مثلها يَزدادُ إيمانُ المؤمنين.

وهكذا آياتُ اللَّهِ يُضِلُّ بها مَنْ يشاءُ ويَهدي من يشاءُ.

[تأملات في حياة الطيور]

تأمَّلْ هذا الطَّائرَ الطَّويلَ السَّاقينِ، واعرِفِ المنفعَةَ في طولِ ساقَيهِ؛ فإنَّهُ يَرعى أكثرَ مرعاهُ في ضَحْضَاحٍ من الماءِ، فتَراهُ يَرْكُزُ على ساقيهِ كأنَّهُ ربيئةٌ[1] فوقَ مَرْقَبٍ؛ ويتأمَّلُ ما دبَّ في الماءِ، فإذا رأى شيئاً من حاجتهِ خَطَا خَطْواً رفيقاً حتى يتناولَهُ، ولو كانَ قَصيرَ القائمتين كان يخطو نَحوَ الصَّيدِ ليأخذَهُ لَصَقَ بطنُهُ بالماءِ فَيُثَوِّرُه ويَذعرُ الصَّيدُ منه فينفِرُ، فخُلِقَ لهُ ذلكَ العمودانِ ليُدرِكَ بهما حاجتَهُ ولا يَفْسُدَ عليهِ مطلبُهُ.

وكلُّ طائرٍ فلهُ نَصيبٌ من طولِ السَّاقينِ والعُنقِ ليُمْكِنَهُ تناوُلُ الطُّعْمِ منَ الأرضِ، ولو طالَ ساقاهُ وقَصُرَت عنقُهُ لم يُمْكِنْهُ أن يتناولَ شيئاً من الأرضِ، وربَّما أُعينَ معَ عنقهِ بطولِ المِنقارِ ليَزدادَ مطلبُهُ سهولَةً عليهِ وإمكاناً.

ثمَّ تأمَّل هذه العصافيرَ كيفَ تَطْلُبُ أكلَها بالنَّهارِ كلِّهِ، فلا هي تفقدهُ ولا هيَ تَجدهُ مجموعاً مُعدًّا، بل تنالُهُ بالحرَكَةِ والطَّلبِ في الجهاتِ والنَّواحي، فسبحانَ الذي قدَّرَهُ ويسَّرهُ كيفَ لم يجعلْهُ

---

(١) أي طليعة، والمرقب: موضع الإشراف والعلو.

ممَّا يَتعذَّرُ عليها إذا التمسَتْهُ ولا مِمّا يفوتها إذا قَعَدَت عنهُ، وجعلها قادرَةً عليهِ في كلِّ حينٍ وأوانٍ وبكلِّ أرضٍ ومكانٍ، حتى منَ الجُدرانِ والأسطحَةِ والسُّقوفِ تنالُهُ بالهُوينا منَ السَّعيِ فلا يشاركها فيهِ غيرُ بني جنسها منَ الطَّيرِ.

ولو كانَ ما تَقتاتُ به يُوجَدُ مُعَدًّا مجموعاً كلُّهُ كانَت الطَّيرُ تَشْرَكُها فيهِ وتغلبُها عليهِ، ولحِكمَةٍ أُخرى بديعةٍ؛ وذلك أنّها لو وَجَدْتهُ مُعَدًّا مجموعاً لأكبَّت عليهِ بحرصِ الرَّغبةِ فلا تُقلعُ عنه، وإنْ شبعَت حتى تَبْشَم وتَهلِكَ.

وكذلكَ النَّاسُ لو جُعلَ طعامُهم مُعَدًّا لهم بغَيرِ سَعيٍ ولا تَعبٍ أدّى ذلكَ إلى الشَّرَهِ والبَطْنَةِ ولكَثُرَ الفسادُ وعمَّت الفواحشُ، وَلَبَغَوْا في الأرضِ، فسبحانَ اللطيفِ الخبيرِ الذي لم يخلُق شيئاً سُدىً ولا عَبَثاً.

وانظُرْ في هذه الطَّيرِ التي لا تَخرجُ إلاّ بالليلِ - كالبُومِ والْهَامِ والخُفَّاشِ - فإنَّ أقواتَها هُيِّئت لها في الجوِّ، لا منَ الحَبِّ ولا منَ اللحمِ، بل من البعوضِ والْفَراشِ وأشباهِهما ممَّا تلتقطُهُ منَ الجوِّ فتأخذُ منهُ بقَدْرِ حاجتِها ثمَّ تأوي إلى بيوتها فلا تَخرج إلى مثلِ ذلكَ الوَقتِ بالليلِ، وذلكَ أنَّ هذه الضُّروبَ منَ البعوضِ والفراشِ وأشباهِهما مبثوثَةٌ في الجوِّ لا يكادُ يخلو منها موضعٌ منهُ.

واعتبرْ ذلكَ بأن تَضَعَ سراجاً بالليلِ في سطحٍ أو عَرَصَةِ الدَّارِ فيجتمعُ عليهِ من هذا الضَّرْبِ شيءٌ كثيرٌ، وهذا الضَّرْبُ منَ الفراشِ ونحوها ناقصُ الفِطنَةِ ضعيفُ الحيلَةِ، ليسَ في الطَّيرِ أضعَفُ منهُ ولا أجهَلُ، وفيما يُرى من تهافتهِ على النَّارِ وأنتَ تَطردهُ عنها حتى يُحرِقَ نفسهُ دليلٌ على ذلكَ، فجعَلَ معاشَ هذه

الطُّيورِ التي تخرجَ بالليلِ من هذا الضَّرْبِ فتقتاتُ منهُ، فإذا أتى بالنَّهارِ انقَطَعت إلى أوكارها، فالليلُ لها بمنزلَةِ النَّهارِ لغيرها منَ الطَّيرِ، ونهارُها بمنزلَةِ ليلِ غيرها، ومع ذلكَ فساقَ لها ـ الذي تكفَّلَ بأرزاقِ الخَلقِ ـ رزقَها وخَلَقهُ لها في الجوِّ، ولم يَدَعْها بلا رزقٍ مع ضعفِها وعجزِها.

وهذه إحدى الحِكَم والفوائدِ في خَلقِ هذه الفراشِ والجنادبِ والبَعوضِ.

فكم فيها من رزقٍ لأُمَّةٍ تُسبِّحُ بحمدِ ربِّها! ولولا ذلكَ لانتَشرَتْ وكثُرتْ حتى أَضَرَّت بالنَّاسِ ومنعَتْهم القرارَ.

فانظُر إلى عجيبِ تَقديرِ اللّهِ وتدبيرهِ كيفَ اضطرَّ العقولَ إلى أن شهِدَتْ بربوبيَّتهِ وقُدرتهِ وعلمهِ وحكمتهِ، وأنَّ ذلكَ الذي تُشاهِدُهُ ليسَ باتِّفاقٍ ولا بإهْمالٍ من سائرِ وجوهِ الأدلَّةِ التي لا تتمكَّنُ الفِطَرُ من جَحدها أصلاً.

وإذْ قَد جَرى الكلامُ إلى الخُفَّاشِ؛ فهو من الحيواناتِ العَجيبَةِ الخِلقَةِ بين خِلقَةِ الطُّيورِ وذواتِ الأربعِ، وهو إلى ذواتِ الأربعِ أقربُ، فإنَّه ذو أُذنين ناشرتين وأسنانٍ ووَبَرٍ، وهو يَلدُ وِلاداً، ويُرضعُ، ويمشي على أربعٍ، وكلُّ هذا صفَةُ ذواتِ الأربعِ، وله جناحانِ يَطيرُ بهما مع الطُّيورِ.

ولمّا كانَ بَصَرُهُ يَضعُفُ عن نورِ الشمسِ كانَ نهارُهُ كليلِ غيرِهِ، فإذا غابَت الشمسُ انتَشَرَ، ومن ذلكَ سُمِّيَ ضَعيفُ البَصَر أخفَشَ، والخَفَش ضَعفُ البَصر، ولمّا كانَ كذلكَ جُعِلَت قوَّتُهُ من هذه الطُّيورِ الضِّعافِ التي لا تَطيرُ إلّا بالليل.

وَقَد زَعَمَ بَعضُ مَن تكلَّمَ في الحيوانِ أَنَّهُ ليسَ يَطْعَمُ شيئاً، وإنَّما غِذاؤهُ منَ النَّسيمِ البارِدِ فقط! وهذا كذبٌ عليهِ وعلى

الخلقَةِ لأنَّهُ يبولُ[1].

والمقصودُ أنَّهُ لو كانَ لا يأكلُ شيئاً لم يكُن لهُ أسنانٌ، إذ لا معنى للأسنانِ في حقِّ مَن لا يأكلِ شيئاً، ولهذا لمَّا عَدِمَ الطِّفلُ الرَّضيعُ الأكلَ لم يُعْطَ الأسنانَ، فلمَّا كَبِرَ واحتاجَ إلى الغذاءِ أُعينَ عليهِ بالأسنانِ التي تقطعهُ والأضراسِ التي تطحنهُ.

وليسَ في الخليقَةِ شيءٌ مُهمَلٌ ولا عن الحكمةِ بمُعطَّلٍ ولا شيءٌ لا معنى له.

وأمَّا الحِكَمُ والمنافعُ في خلقِ الخُفَّاشِ فَقَد ذكرَ منها الأطبَّاءُ في كتبهم ما انتَهت إليهِ معرفتُهم، حتى إنَّ بولهُ يدخُلُ في بَعضِ الأكحالِ، فإذا كانَ هذا بولَهُ الذي لا يخطر بالبالِ أَنَّ فيهِ منفعَةً البتَّة، فما الظَّنُّ بجُملتهِ؟

❀ ❀ ❀

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله:

وقد تكلم الفُقهاءُ في بولِهِ: هل هو نجسٌ ـ لأنَّهُ بولُ غير مأكولٍ ـ؟ أو نجسٌ مَعْفُوٌّ عن يَسيرهِ لمشقَّةِ التَّحرُّزِ منه؟

على قولين، هما روايتانِ عن أحمد، وبعضُ الفقهاء لا يُنَجِّسُ بولَهُ بحالٍ، وهذا أقيسُ الأقوالِ إذ لا نَصَّ فيهِ، ولا يصحُّ قياسُهُ على الأبوالِ النَّجسَةِ لعَدمِ الجامعِ المُؤثِّرِ ووضوحِ الفَرقِ، وليسَ هذا موضعَ استيفاءِ الحُجَجِ في هذه المسألَةِ من الجانبينِ.

الفصل الخامس

آيات الله تعالى في النحل

[بناء البيوت]

ثمَّ تأمَّلْ في أحوالِ النَّحْلِ وما فيها من العِبَرِ والآياتِ، فانظُرْ إليها وإلى اجتهادها في صَنْعَةِ العَسَلِ وبنائها البُيوتَ المُسدَّسَةَ وتلكَ من أثَرِ صُنعِ اللَّهِ وإلهامِهِ إيَّاها وإيحائِهِ إليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

فتأمَّلْ كمالَ طاعَتها وحُسْنَ ائتمارِها لأمرِ ربِّها تعالى، كيف اتَّخذَت بيوتَها في هذه الأمكنَةِ الثَّلاثَةِ في الجبالِ والشقفاناتِ[(١)] وفي الشجرِ وفي بيوتِ النَّاسِ حيثُ يعرشونَ، أي: يبنونَ العروشَ وهي البيوتُ، فلا يُرى للنَّحلِ بيتٌ غيرَ هذه الثَّلاثَةِ البتَّة.

وتأمَّل كيفَ أكثرُ بيوتها في الجبالِ والشقفانِ ـ وهو البيتُ المقدَّمُ في الآيَةِ ـ ثمَّ في الأشجارِ ـ وهي من أكثَرِ بيوتها ـ وممَّا يَعرشُ النَّاسُ، وأقلُّ بيوتها بينهم حيثُ يعرشونَ، وأمَّا في الجبالِ فبيوتٌ عظيمةٌ يُؤخَذُ منها من العَسلِ الكثيرُ جدًّا.

---

(١) مفردها شقفان، وهو بيت النحل.

وتأمَّلْ كيفَ أدَّاها حُسْنُ الامتثالِ إلى أنِ اتَّخذَت البيوتَ قَبل المرعىٰ، فهي تتّخذ أوَّلاً، ثمَّ إذا استَقرَّ لها بيتٌ خَرَجَت منهُ فَرَعَت وأكلَت منَ الثِّمارِ، ثمَّ آوَت إلى بيوتها، لأنَّ ربَّها سبحانُه أمَرها باتّخاذِ البيوتِ أوَّلاً، ثمَّ بالأكلِ بَعدَ ذلكَ، ثمَّ إذا أكلَت سلَكَت سُبلَ ربِّها مُذلَّلةً لا يَستوعرُ عليها شيءٌ، تَرعى ثمَّ تعودُ.

ومن عجيبِ شأنها أنَّ لها أميراً يُسمَّى اليَعْسُوبَ لا يتمُّ لها رَوَاحٌ ولا إيابٌ ولا عملٌ ولا مَرعىً إلّا بهِ، فهيَ مُؤتمرَةٌ لأمرِه سامعَةٌ لهُ مطيعَةٌ، ولهُ عليها تكليفٌ وأمرٌ ونَهيٌ، وهي رعيَّةٌ لهُ، مُنقادَةٌ لأمرِهِ، متَّبعَةٌ لرأيِهِ، يُدبِّرُها كما يدبِّرُ المَلِكُ أمرَ رعيَّتِهِ، حتى إنَّها إذا آوَت إلى بيوتها وقَفَ على بابِ البَيتِ فلا يَدَعُ واحدَةً تُزاحِمُ الأُخرى ولا تَتَقدَّمَ عليها في العبورِ، بل تعبُرُ بيوتَها واحدَةً بعدَ واحدةٍ بغَيرِ تَزاحُمٍ ولا تَصادُمٍ ولا تراكُمٍ كما يَفعلُ الأميرُ إذا انتهى بعسكرهِ إلى معبرٍ ضيِّقٍ لا يجوزُهُ إلّا واحدٌ واحدٌ.

وَمَنْ تَدَبَّرَ أحوالَها وسياساتِها وهدايتَها واجتماعَ شملِها وانتظامَ أمرها وتَدبيرَ مُلكِها وتفويضَ كلِّ عملٍ إلى واحدٍ منها؛ يتعجَّبُ منها كلَّ العجَبِ ويعلمُ أنَّ هذا ليسَ في مقدورها ولا هو من ذاتها، فإنَّ هذه أعْمالٌ مُحْكَمَةٌ مُتْقَنةٌ في غايَةِ الإحْكامِ والإتقانِ، فإذا نَظَرْتَ إلى العاملِ رأيتَهُ من أضعَفِ خَلقِ اللَّهِ وأجهَلِهِ بنفسهِ وبحالهِ، وأعجزِهِ عن القيامِ بمصلحتهِ فضلاً عمَّا يَصدُرُ منهُ من الأمورِ العجيبَةِ.

ومن عجيبِ أمرها أنَّ فيها أميرين لا يجتمعانِ في بيتٍ واحدٍ ولا يتآمرانِ على جمعٍ واحدٍ، بل إذا اجتمَعَ منها جُندانِ وأميران قَتَلُوا أحَدَ الأميرين وقطَّعوهُ، واتَّفقوا على الأميرِ الواحدِ

من غيرِ معاداةٍ بينهم ولا أذىً من بعضهم لبَعضٍ، بل يصيرونَ يداً واحدةً وجُنداً واحداً.

[النظام الاجتماعي في عالم النحل][1]

وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب، وذلك أن لها أميراً ومدبراً وهو اليعسوب، وهو أكبر جسماً من جميع النحل وأحسن لوناً وشكلاً، وإناث النحل تلد في إقبال الربيع، وأكثر أولادها يكنّ إناثاً، وإذا وقع فيها ذكرٌ لم تدعه يدخل بينها، بل إمّا أن تطرده، وإما أن تقتله إلا طائفة يسيرة منها تكون حول الملك، وذلك أنّ الذكر منها لا يعمل شيئاً ولا يكتسب، ثم تجتمع الأمهات وفراخها عند الملك، فيخرج بها إلى المراعي، من المروج والرياض والبساتين والمرابع في أقصد الطرق وأقربها، فتجتني منها كفايتها، فيرجع بها الملك، فإذا انتهوا إلى الخلايا وقف على بابها، ولم يدع ذكراً ولا نحلة غريبة تدخلها.

فإذا تكامل دخولها دخل بعدها، وقد أخذت النحل مقاعدها وأماكنها، فيبتدئ الملك بالعمل كأنه يعلمها إيّاه، فيأخذ النحل في العمل ويتسارع إليه.

ويترك الملك العمل ويجلس ناحية بحيث يشاهد النحل، فيأخذ النحل في إيجاد الشمع من لزوجات الأوراق والأنوار.

ثم تقتسم النحل فرقاً فمنها فرقة تلزم الملك ولا تفارقه ولا تعمل ولا تكسب، وهم حاشية الملك من الذكورة.

ومنها فرقة تهيئ الشمع وتصفيه، والشمع هو ثفل العسل

---

(١) هذه الفقرة ـ على طولها ـ من «شفاء العليل» ص٢٣٢ ـ ٢٣٦.

وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللنحل به عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل ويصفيه ويخلّصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها.

وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الماء، وتحمله على متونها، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها حتى لا تفسد عليهن بقية العمال، وتعديهن ببطالتها ومهانتها.

وأول ما تبني في الخلية مقعد الملك وبيته، فتبني له بيتاً مربعاً يشبه السرير والتخت، فيجلس عليه ويستدير حوله طائفة من النحل تشبه الأمراء والخدم والخواص لا يفارقنه، ويجعل النحل بين يديه شيئاً يشبه الحوض، يصب فيه من العسل أصفى ما يقدر عليه، ويملأ منه الحوض يكون ذلك طعاماً للملك وخواصه.

ثم يأخذن في بناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحال، وتبني بيوتها مسدسة الأشكال متساوية الأضلاع، كأنها قرأت كتاب إقليدس، حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها، لأنّ المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسَّعة.

والشكل المسدس ـ دون سائر الأشكال ـ إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صارت شكلاً مستديراً كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشدّ بعضه بعضاً، حتي يصير طبقاً واحداً محكماً، لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر.

فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم، الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين:

إحداهما: أن لا تكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً.

الثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض امتلأت العَرْصَة[1] منها، ولا يبقى شيء منها ضائعاً.

ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط، فإن المثلثات والمربعات وإن أمكن امتلاء العرصة منها، إلّا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلئ العرصة منها، بل يبقى فيما بينها فروج خالية ضائعة، وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين.

فهداها سبحانه على بناء بيوتها على هذا الشكل، من غير تسطير ولا آلة ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكثيرة، فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قربها، وتأتيها ذللاً لا تستعصي عليها ولا تضل عنها، وأن تجتني أطيب ما في المرعى وألطفه، وأن تعود إلى بيوتها الخالية فتصب فيها شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

فإذا فرغت من بناء البيوت، خرجت خماصاً تسيح سهلاً وجبلاً، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار، وورق الأشجار، فترجع بطاناً، وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جَنَتْه، فتعيده حلاوة ونضجاً، ثم تمجّه في البيوت، حتى إذا امتلأت ختمتها وسدت رؤوسها بالشمع المصفى، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته فاتخذت فيه بيوتاً، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى.

---

(١) العرصة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء.

فإذا برد الهواء، وأخلف المرعى وحيل بينها وبين الكسب، لزمت بيوتها واغتذت بما ادخرته من العسل.

وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة، وتسيح في المراتع، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصّها من العمل، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها، وإذا كان وقت رجوعها، وقف على باب الخلية بوّاب منها ومعه أعوان، فكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب ويتفقدها فإن وجد منها رائحة منكرةً، أو رأى بها لطخة من قذر، منعها من الدخول، وعزلها ناحية إلى أن يدخل الجميع، فيرجع إلى المعزولات الممنوعات من الدخول فيتفقدهن، ويكشف أحوالهن مرة ثانية، فمن وجده قد وقع على شيء منتن أو نجس قدّه نصفين، ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية، هذا دأب البوّاب كل عشية.

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلّا نادراً، إذا اشتهى التنزّه فيخرج ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوف في المروج والرياض والبساتين ساعةً من النهار ثم يعود إلى مكانه.

ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل، وتبقى الخلية خالية، فإذا رأى صاحبها ذلك، وخاف أن يأخذ النحل، ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه، وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل، فيعرفه باجتماع النحل إليه فإنها لا تفارقه، وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقوداً، وهو إذا خرج غضباً جلس على مكان مرتفع من الشجرة، وطافت به النحل وانضمت إليه، حتى تصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحاً أو قصبة طويلة،

ويشدّ على رأسها حزمةً من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف، ويدنيه إلى محل الملك ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات الطرب، فيحركه وقد أدنى إليه ذلك الحشيش فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك، فإذا رضي وزال غضبه، طفر[1] ووقع على الضغث، وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية، فينزل ويدخلها هو وجنوده.

ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة، ولا تدين بطاعتها، والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتله خارج الخلية، صيانة للخلية عن جيفته، ومنها صنف قليلة النفع كبيرة الجسم، وبينها وبين العسَّالة حرب، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها وتقصد هلاكها، والعسَّالة شديدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها في بيوتها حاولتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل فلا تقدر على الطيران، ولا يفلت منها إلا كلّ طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال، عادت إلى القتلى، فحملتها وألقتها خارج الخلية.

وقد ذكرنا أن الملك لا يخرج إلّا في الأحايين، وإذا خرج خرج في جموع من الفراخ والشباب، وإذا عزم على الخروج ظَلَّ قبل ذلك بيوم أو يومين، يعلم الفراخ وينزلها منازلها ويرتبها،

---

(١) الطفرة: الوثوب إلى أعلى.

فيخرج ويخرجن معه على ترتيب ونظام قد دبره معهن لا يخرجن عنه، وإذا تولدت عنده ذكران عَرفَ أنهن يطلبن الملك، فيجعل كل واحد منهم على طائفة من الفراخ، ولا يقتل ملك منها ملكاً آخر، لما في ذلك من فساد الرعية وهلاكها وتفرقها.

وإذا رأى صاحب الخلية الملوك قد كثرت في الخلية، وخاف من تفرق النحل بسببهم، احتال عليهم وأخذ الملوك كلها إلا واحداً، ويحبس الباقي عنده في إناء، ويدع عندهم من العسل ما يكفيهم، حتى إذا حدث بالملك المنصوب حدث من مرض أو موت أو كان مفسداً فقتلته النحل، أخذ من هؤلاء المحبوسين واحداً، وجعله مكانه لئلا يبقى النحل بلا ملك فيتشتت أمرها.

ومن عجيب أمرها، أن الملك إذا خرج متنزهاً ومعه الأمراء والجنود ربما لحقه إعياء فتحمله الفراخ.

وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة، فالكرام دائماً تطردها وتنفيها عن الخلية، ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها.

والنحل من أنظف الحيوان وأنقاه، ولذلك لا تلقي زبلها إلا وهي تطير، وتكره النتن والروائح الخبيثة.

وأبكارها وفراخها أحرص وأشد اجتهاداً من الكبار، وأقل لسعاً وأجود عسلاً، ولسعها إذا لسعت أقل ضرراً من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه وقد خُصَّت من وحي الربِّ تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضيء

في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام، كانت أكثر الحيوان أعداء، وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة، وهذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم.

[النحل والعسل]

ومن عجيب أمرها ما لا يَهْتَدي لهُ أكثرُ النَّاسِ ولا يَعرفونَهُ؛ وهو النَّتاجُ الذي يكونُ لها، هل هو على وجهِ الولادَةِ والتَّوالُدِ والاستحالَةِ؟

فقلَّ من يعرفُ ذلكَ أو يَفطنُ له، وليسَ نتَاجُها على واحدٍ من هذين الوَجهين، وإنَّما نَتَاجُها بأمرٍ من أعجَبِ العَجَب فإنَّها إذا ذَهَبَتْ إلى المَرعى أخذَت تلكَ الأجزاءَ الصَّافيَةَ التي على الوَرَقِ من الوَردِ والزَّهرِ والحشيشِ وغيرِهِ ـ وهي الطَّلُّ ـ فتمصُّها، وذلكَ مادَّةُ العَسلِ، ثمَّ إنَّها تكبسُ الأجواءَ المُنعقدَةَ على وجهِ الوَرَقَةِ وتعقدُها على رجلها كالعَدسَةِ فتملأُ بها المُسدَّساتِ الفارغَةَ منَ العَسلِ، ثمَّ يقومُ يَعسوبُها على بيتهِ مُبتدئاً منهُ فينفخُ فيهِ ثمَّ يطوفُ على تلكَ البيوتِ بيتاً بيتاً وينفخُ فيها كلِّها فتدبُّ فيها الحياةُ بإذنِ اللَّهِ ﷻ فتَتَحرَّكُ وتخرجُ طيوراً بإذنِ اللَّهِ.

وتلكَ إحدى الآياتِ والعجائبِ التي قلَّ من يتفطَّنُ إليها، وهذا كلُّهُ من ثمرَةِ ذلكَ الوَحيِ الإلهيِّ، أفادها وأكسبها هذا التَّدبيرَ والسَّفَرَ والمعاشَ والبناءَ والنَّتاجَ.

فمن الذي أوحى إليها أمرَها وجَعَلَ ما جَعَلَ في طِباعها؟ ومَن الذي سهَّلَ لها سُبُلَهُ ذُلُلاً مُنقادَةً لا تَستَعصي عليها ولا تستوعرُها ولا تَضلُّ عنها على بُعْدِها؟

ومن الذي هداها لشأنها؟ ومَن الذي أنزَلَ لها منَ الطَّلِّ ما

إذا جَنَتْهُ ردَّتْهُ عَسلاً صافياً مختلفاً ألوانُهُ في غايَةِ الحلاوَةِ واللذاذَةِ والمنفَعَةِ من بينِ أبيضَ يُرى فيه الوجهُ أعظمَ من رؤيتهِ في المرآةِ ـ وسمّاه لي مَن جاءَ به، وقال: هذا أفخَرُ ما يَعْرِفُ النَّاسُ من العَسَلِ وأصفاهُ وأطيبهُ، فإذا طَعْمُهُ ألذُّ شيءٍ يكونُ من الحلوى ـ ومن بينِ أحمَرَ وأخضَرَ ومُورّدٍ وأسوَدَ وأشقَرَ وغيرِ ذلك من الألوانِ والطُّعومِ المُختلفَةِ فيهِ بحسَبِ مراعيهِ ومادَّتها.

وإذا تأمَّلْتَ ما فيهِ منَ المنافعِ والشفاءِ ودُخولَه في غالبِ الأدويَةِ حتى كانَ المُتقدِّمونَ لا يَعرفونَ السُّكَّرَ ولا هو مذكورٌ في كتبهم أصلاً، وإنَّما كانَ الذي يستعملونهُ في الأدويَةِ هو العَسَل، وهو المذكورُ في كتبِ القومِ.

ولَعَمْرُ اللَّهِ إنَّهُ لأنفعُ من السُّكَّرِ، وأجدى وأجلى للأَخْلاطِ، وأقمعُ لها وأذهَبُ لضررها، وأقوى للمعدةِ، وأشدُّ تَفريحاً للنفسِ، وتَقويَةً للأرواحِ، وتَنفيذاً للدَّواءِ، وإعانَةً لهُ على استخراجِ الدَّاءِ من أعماقِ البَدنِ.

ولهذا لم يجئْ في شيءٍ منَ الحديثِ قَطُّ ذكرُ السكَّرِ، ولا كانوا يعرفونهُ أصلاً، ولو عُدِم منَ العالَمِ لما احتاجُوا إليهِ، ولو عُدمَ العسلُ لاشتدَّت الحاجَةُ إليهِ، وإنَّما غَلَبَ على بَعضِ المُدُنِ استعمالُ السُّكَّرِ حتى هَجَروا العَسَلَ واستطابوهُ عليهِ، ورأَوْهُ أقلَّ حدَّةً وحرارَةً منهُ، ولم يعلموا أنَّ من منافعِ العَسلِ ما فيهِ من الحدَّةِ والحرارَةِ فإذا لم يُوافق مَن يستعملُه كَسَرَها بمقابلها فَيصيرُ أنفعَ لهُ من السكَّر.

ومتى رأيتَ السكَّرَ يجلو بلغماً ويُذيبُ خِلْطاً أو يَشفي من داءٍ؟! وإنَّما غايتَهُ بعضُ التَّنفيذِ للدَّواءِ إلى العُروقِ لِلَطافتهِ وحلاوتهِ، وأمَّا الشفاءُ الحاصلُ منَ العسلِ فَقَد حرَمهُ اللَّهُ لكثيرِ

منَ النَّاسِ، حتى صاروا يَذُمُّونهُ ويخشَوْنَ غائلتَهُ من حرارتهِ وحدَّتهِ.

[الشفاء المذكور في القرآن]

ولا ريبَ أنَّ كونَهُ شفاءً، وكونَ القرآنِ شفاءً، والصَّلاةِ شفاءً، وذِكْرِ اللَّهِ والإقبالِ عليهِ شفاءً، أمرٌ لا يَعُمُّ الطَّبائعَ والأنفسَ، فهذا كتابُ اللَّهِ هو الشفاءُ النَّافعُ، وهو أعظمُ الشفاءِ، وما أقلَّ المُستشفين به! بل لا يَزيدُ الطَّبائعَ الرَّديئةَ إلّا رداءَةً، ولا يَزيدُ الظَّالمينَ إلّا خَساراً، وكذلكَ ذكرُ اللَّهِ والإقبالُ عليهِ والإنابَةُ إليهِ والفزعُ إلى الصَّلاةِ كم قَد شفِيَ بهِ من عليلٍ! وكم قَد عُوفيَ به من مَريضٍ! وكم قام مقامَ كثيرٍ من الأدويَةِ التي لا تبلغُ من مبلغهِ في الشفاءِ! وأنتَ تَرى كثيراً منَ النَّاسِ ـ بل أكثرهم ـ لا نَصيبَ لهم منَ الشفاءِ بذلكَ إليه أصلاً[1].

---

(١) قال ابن القيم:
ولَقَد رأيتُ في بَعضِ كتبِ الأطبَّاءِ المُسلمين في ذكرِ «الأدويَةِ المُفرَدَةِ» ذكرَ الصَّلاةِ؛ ذكرَها في بابِ «الصَّاد» وذكرَ من منافعها في البَدنِ التي تُوجبُ الشفاءَ وجوهاً عديدَةً ومن منافعها في الرُّوحِ والقَلبِ.
وسمعتُ شيخَنا أبا العبَّاس ابنَ تيميَّة رحمهُ الله يقول ـ وقَد عَرَضَ لهُ بَعضُ الألمِ ـ فقال له الطَّبيبُ: أضرُّ ما عليكَ الكلامُ في العلمِ والفِكْرُ فيهِ والتوجُّهُ والذكرُ، فقال: ألستُم تَزعمونَ أنَّ النَّفسَ إذا قويَت وفَرِحَت أوجَبَ فرحُها لها قوَّةً تُعينُ بها الطَّبيعَةَ على دَفعِ العارضِ؛ فإنَّهُ عدوُّها، فإذا قَوِيَتْ عليهِ قَهرتهُ؟ فقال الطَّبيبُ: بلى، فقال: إذا اشتغَلت نَفسي بالتَّوجُّهِ والذِّكرِ والكلام في العلم وظَفِرَتْ بما يُشْكِلُ عليها منهُ فرِحَتْ بهِ وقَوِيَتْ فأوجَبَ ذلكَ دَفْعَ العارضِ. هذا أو نَحوَهُ من الكلامِ.

والمقصودُ أنَّ تركَ كثيرٍ من النَّاسِ الاستشفاءَ بالعَسَلِ لا يُخرِجُهُ عن كونهِ شفاءً، كما أنَّ تَركَ أكثرِهم الاستشفاءَ بالقرآنِ من أمراضِ القلوبِ لا يُخرِجُهُ عن كونهِ شفاءً لها، وهو شفاءٌ لِمَا في الصُّدورِ وإنْ لم يستَشفِ به أكثرُ المَرضى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، فعمَّ بالمَوعظَةِ والشفاءِ، وخصَّ بالهُدى والمعرفَةِ، فهو نفسهُ شفاءٌ استُشفِيَ به أو لم يُستَشْفَ به، ولم يَصِف اللَّهُ في كتابهِ بالشفاءِ إلّا القرآنَ والعَسَلَ فهما شفاآنِ، هذا شفاءُ القلوبِ من أمراضِ غيِّها وضلالها وأدْواءِ شبهاتها وشهواتها، وهذا شفاءٌ للأبدانِ من كثيرٍ من أسقامِها وأخْلاطِها وآفاتها.

وَلَقَد أصابني أيَّامَ مُقامي بمكَّةَ أسقامٌ مُختَلفَةٌ ولا طَبيبٌ هناكَ ولا أدوِيةٌ ـ كما في غيرها من المُدنِ ـ فكنتُ أستَشفي بالعَسلِ وماءِ زَمزَمَ، ورأيتُ فيهما منَ الشفاءِ أمراً عجباً.

وتأمَّلْ إخْبارَهُ ﷺ عن القرآنِ بأنَّهُ نَفسَهُ شفاءٌ، وقال عن العَسَل: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩] وما كانَ نَفسُهُ شفاءً أبلَغُ ممَّا جُعِلَ فيهِ شفاءٌ، وليسَ هذا موضعَ استقصاءِ فوائدِ العَسلِ ومنافعهِ.



الفصل السادس

آيات الله تعالى في النمل[1]

وهذه النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإنّ النملةَ الصغيرةَ تخرجُ من بيتها وتطلب قوتَها، وإن بَعُدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة، ذات صعود وهبوط، في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين، فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد، انتظرت به يوماً ذا شمسٍ، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة على ما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما بَيَّنه من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون

(١) هذا الفصل من كتاب «شفاء العليل» ص٢٣٦ ـ ٢٤١، وهو متضمن لما جاء في كتاب «مفتاح دار السعادة».

من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك.

وهذا من أعجب الهداية! وتأمل كيف عظَّم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: ١٧] ثم قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ [النمل: ١٨] فأخبر بأنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودلَّ على أنَّ ذلك الوادي كان معروفاً بالنمل، كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر عَمَّا دَلّ على شدّة فطنة هذه النملة، ودقَّة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً، لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: لا يحطمنكم سليمان وجنوده، فجمعت بين اسمه وعينه، وعرَّفته بهما، وعرّفت جنوده وقائدها، ثم قالت: وهم لا يشعرون، فكأنها جمعت بين الاعتذار عن معرّة الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم، ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله سليمان ضاحكاً من قولها، وإنّه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: «نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصُّرَد»(١).

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (نزل نبيٌّ من الأنبياء تحت شجرة، فقرصته نملة، فأمر بجهازه فأخرج،

---

(١) رواه أبو داود (٥٢٦٧) وغيره.

وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة، أحرقت أمة من الأمم تسبّح! فهلا نملة واحدة)[1].

وذكر هشام بن حسان أن أهل الأحنف بن قيس لَقوا من النمل شدّة، فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند بيوتهن فجلس عليه، ثم تشهد ثم قال: لتنتهن أو لنحرقنّ عليكن ونفعل ونفعل، قال: فذهبن.

وروى عوف بن أبي جميلة، عن قسامة بن زهير، قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة، حتى إن للنمل سادة.

ومن عجيب هدايتها، أنها تعرف ربّها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد، من حديث أبي هريرة يرفعه، قال: (خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة، رافعة قوائمها إلى السماء تدعو، مستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم).

ولهذا الأثر عدَّة طُرق ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا مسعر، عن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي قال: «خرج سليمان بن داود ليستسقي، فرأى نملة مستلقية على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنّا خلق من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإمّا أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم».

---

(١) متفق عليه (خ٣٣١٩، م٢٢٤١).

ولقد حدثني مَنْ أثق به، أنّ نملة خرجت من بيتها، فصادفت شق جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعتُ ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعتُه، فعادت تحاول حمله فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم، فرفَعتُه، فطافت فلم تجده، فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مراراً، فلما كان في المرة الأخيرة استدار النمل حلقة، ووضعوها في وسطها وقطعوها عضواً عضواً، قال شيخنا ـ وقد حكيت له هذه الحكاية ـ فقال: «هذه النمل فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب» والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل.

ويُذكر أن سليمان بن داود صلوات الله عليه لما رأى حرص النملة، وشدَّة ادخارها للغذاء استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبَّات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة، وسَدَّ فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة، فوجد فيها حبَّة ونصف حبة، فقال: أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات! فقالت: نعم ولقد صدقتك، ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح أبناء جنسك، حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والفطنة.

ومن حرصها أنها تكدّ طول الصيف، وتجمع للشتاء، علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء وتعذر الكسب فيه، وهي على

ضعفها شديدة القوى، فإنها تحمل أضعاف وزنها وتجره إلى بيتها، ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو جرادة يابساً فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة فإذا وضعته على الأرض، أقبلت النملة من مكان بعيد فاحتملته، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصنف من النمل يحملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها حتى أقبلت بسرعة إليه! فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحمله وتذهب به، وإن كان أكبر منها، فإن عجزت عن حمله، ذهبت إلى جحرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها فجاؤوا كخيط أسود يتبع بعضهم بعضاً، حتى يتساعدوا على حمله ونقله، وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزّقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيراً تركتها، فلها أولاً صدق الشم، وبُعْدُ الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائداً يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها، غير مختلسة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها: أنّ الرجل إذا أراد أن يحترز من الذَرِّ لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناء كبيراً ويملؤها ماء ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذرُّ يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف، إلى أن يحاذي ذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه! وجربنا نحن ذلك.

وأحمى صانعٌ مرَّة طوقاً بالنار، ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن أسفل الطوق نمل، فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق وكان فيه! وكان ذلك مركزاً له، وهو أبعد مكان من المحيط.

ومن فطنتها[1] أنَّها لا تَتَّخذُ قريتها إلّا على نَشْزٍ[2] منَ الأرضِ لئلا يَفيضَ عليها السَّيلُ فيُغرقَها، فلا تَرى قَريَةَ نملٍ في بَطنِ وادٍ ولكنْ في أعلاه وما ارتفَعَ عن السَّيل منهُ.

ويكفي مِن فطنتها ما نَصَّ اللَّهُ ﷻ في كتابهِ من قولها لجماعَةِ النَّملِ وقد رأتْ سُليمانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلام وجنودَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فتكلَّمَت بعَشْرَةِ أنواعٍ منَ الخطابِ في هذه النَّصيحَةِ:

النِّداءِ، والتَّنبيهِ، والتسميَةِ، والأمرِ والنّصِّ والتَّحذيرِ، والتَّخصيصِ، والتَّفهيمِ، والتَّعميمِ، والاعتذارِ.

فاشتملَت نَصيحَتُها مع الاختصارِ على هذه الأنواعِ العشرَةِ.

ولذلكَ أعْجَبَ سليمانَ قولُها، وتبسَّمَ ضاحكاً منهُ، وسألَ اللَّهَ أن يُوْزِعَهُ شُكرَ نعمتهِ عليهِ لَمّا سمعَ كلامَها.



---

(١) هذه الفقرة من كتاب «مفتاح دار السعادة».

(٢) هو ما ارتفع وظهر من الأرض.

الفصل السابع
الزرافة

[ليست الزرافة نتاج آباء مختلفة]

ثمَّ تأمَّلْ خَلْقَ الزَّرافَةِ واختلافَ أعضائها وشِبْهَها بأعضاءِ جميعِ الحيوانِ؛ فرأسُها رأسُ فَرَسٍ، وعُنُقها عُنُقُ بعَيرٍ، وأظلافُها أظلافُ بَقَرةٍ، وجلدُها جلدُ نَمِرٍ، حتى زعمَ بعضُ النَّاسِ أنَّ لقاحَها من فُحولٍ شتى! وذكروا أنَّ أصنافَها من حيوانِ البرِّ إذا وَرَدَت الماءَ يَنزو بعَضُها على بَعضٍ فتنزو المُستَوحشَةُ على السَّائمَةِ فَتُنْتَجُ مثلَ هذا الشخصِ الذي هو كالمُلْتَقَطِ من أناسٍ شتى!

وما أرى هذا القائلَ إلّا كاذباً عليها وعلى الخِلْقَةِ، إذ ليسَ في الحيوانِ صِنْفٌ يُلَقِّحُ صنفاً آخرَ، فلا الجمَلُ يُلقِّحُ البَقرَ، ولا الثَّورُ يُلقِّحُ النَّاقَةَ، ولا الفَرَسُ يُلَقِّحُها ولا يُلقِّحانهِ، ولا الوحوشُ يُلقِّحُ بَعضُها بعَضاً، ولا الطُّيورُ، وإنَّما يقعُ هذا نادراً فيما يتقاربُ كالبَقرِ الوَحشيِّ والأهليِّ، والضَّأْنِ والمعزِ، والفَرَسِ والحمارِ، والذِّئبِ والضَّبُعِ فيتولَّدُ من ذلكَ البَغلُ والسِّمْعُ والعِسبارُ[1].

---

(١) السِّمْعُ: هو ولد الذِّئب من الضَّبْعِ، والعِسْبار: هو وَلَد الضَّبُع من الذئب.

=

والمقصودُ إبطالُ زَعمِ أنَّ هذه الحيواناتِ المُختلفَة يُلقِّحُ بعضُها بعَضاً عندَ الموارِدِ، فتتكوّنُ الزّرافَةُ! وأنَّهُ كاذبٌ عليها وعلى الإبداعِ والذي يدُلُّ على كذبهِ أنَّهُ ليسَ الخارجُ من بينِ ما ذكرنا منَ الفَرسِ والحمارِ والذِّئبِ والضَّبُعِ والضَّأنِ والمعزِ عضواً من كلِّ واحدٍ من أبيهِ وأُمِّهِ كما يكونُ للزَّرافَةِ عضوٌ من الفَرسِ وعُضواً من الجَمَلِ، بل يكونُ كالمتوسِّطِ بينهما المُمتزجِ منهما، كما نُشاهدهُ في البَغلِ؛ فإنَّكَ تَرى رأسَهُ وأذنيهِ وَكَفَلَهُ[1] وحوافِرَهُ

= قال ابن القيم كَلَلهُ:

وقولُ الفقهاءِ: هل تجبُ الزَّكاةُ في المتولِّد من الوَحشيِّ والأهليِّ؟ فيه وجهانِ؛ هذا إنَّما يُتصوَّرُ في واحدٍ واثنينِ وثلاثةٍ يَكْمُلُ بها النِّصابُ، فأمَّا نصابُ كلِّ متولِّدٍ من الوَحشيِّ والأهليِّ فلا وجودَ لذلكَ، والأحكامُ المتعلِّقَةُ بهذه المتولِّداتِ تُذْكَرُ في الزَّكاةِ وجزاءِ الصَّيدِ والأضاحي والأحوَطِ، فَيُغَلَّبُ في كلِّ بابِ الأحوطُ؛ ففي الأضاحي يُغَلَّبُ عدمُ الإجزاءِ، وفي الإحْرام والحَرَم يُغَلَّبُ وجوبُ الجزاءِ، وفي الأطعمَةِ يُغَلَّبُ جانبُ التَّحريمِ، وفي الزَّكاةِ اختلافٌ مشهورٌ.

وسُئلَ شيخنا أبو العبَّاسِ ابنُ تيميَّة قدَّسَ اللَّهُ روحَهُ عن حمارٍ نَزا على فَرَسٍ فأحبلَها، فَهَل يكونُ لبنُ الفَرسِ حلالاً أو حراماً؟

فأجابَ بأنَّهُ حلالٌ، ولا حُكمَ للفَحْلِ في اللبَنِ في هذا الموضعِ، بخلافِ الأناسيِّ؛ لأنَّ لبنَ الفَرسِ حادثٌ من العَلَفِ فهو تابعٌ لِلَحْمِها، ولم يَسرِ وَطْءُ الفَحْلِ إلى هذا اللبنِ، فإنَّهُ لا حُرمَةَ هُناكَ تنتشرُ بخلافِ لبنِ الفَحلِ في الأناسيِّ؛ فإنَّهُ تَنتشرُ به حُرمَةُ الرِّضاعِ، ولا حُرمَةَ ها هنا تنتشرُ من جهَةِ الفَحلِ إلّا إلى الوَلَدِ خاصَّةً؛ فإنَّهُ يتكوَّنُ منهُ ومنَ الأمِّ، فغلبَ عليهِ التَّحريمُ، وأمَّا اللبنُ فلم يتكوَّنْ بوطئهِ وإنَّما تكوَّنَ من العَلَفِ، فلم يكُن حراماً.

هذا بَسطُ كلامهِ وتَقريرُهُ.

(١) هو العَجُز للدابَّةِ.

وسطاً بينَ أعضاءِ أبيهِ وأُمِّهِ مُشتقَّةً منهما حتى تجدَ شحيجَهُ[1] كالمُمتَزِجِ من صَهيلِ الفَرسِ ونَهيقِ الحمار.

[الزرافة خلق بديع]

وهذا يدلُّ على أنَّ الزَّرافَةَ ليسَت بِنَتَاجِ آباءٍ مُختلفَةٍ كما زَعَمَ هذا الزَّاعمُ! بل من خَلقٍ عَجيبٍ وَصُنْعٍ بَديعٍ من خَلقِ اللّهِ الذي أبدعهُ آيَةً ودلالَةً على قدرتهِ وحكمتهِ التي لا يُعْجِزُها شيءٌ، ليُري عبادَهُ أنَّهُ خالقُ أصنافِ الحيوانِ كلِّها كما يشاءُ وفي أيِّ لونٍ شاءَ:

فمنها المُتشابهُ الخِلقَةِ المُتناسبُ الأعضاءِ.

ومنها المُختلِفُ التَّركيبِ والشكلِ والصُّورةِ.

[خلق الإنسان على أقسام أربعة]

كما أَرَى عبادَهُ قدرتَهُ التَّامَّةَ في خلقهِ لنوعِ الإنسانِ على الأقسامِ الأربَعَةِ الدَّالَّةِ على أنَّهُ مخلوقٌ بقدرتهِ ومشيئتهِ تابعٌ لها:

فمنهُ ما خُلقَ من غيرِ أبٍ ولا أمٍّ؛ وهو أبو النَّوعِ الإنساني[2].

ومنهُ ما خُلِقَ من ذكَرٍ بلا أُنثى؛ وهي أُمُّهُم التي خُلِقَت من ضِلَعِ آدَمَ[3].

ومنهُ ما خُلِقَ من أُنثى بلا ذكرٍ؛ وهو المسيحُ ابنُ مَريم.

---

(١) هو اسمُ صوتِه.

(٢) أي: آدم عليه الصلاةُ والسلام.

(٣) أي: حوّاء.

ومنهُ ما خُلِقَ من ذكرٍ وأُنثى؛ وهو سائرُ النَّوعِ الإنسانيِّ، لِيُريَ عبادَهُ آياتهِ ويتعرَّفَ إِليهم بآلائهِ وقدرتهِ وأنَّهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ لهُ: كُن؛ فيكون.

[طول عنق الزرافة]

وأمَّا طولُ عُنُقِ الزَّرافَةِ وما لها فيهِ من المصلَحَةِ؛ فلأنَّ منشأَها ومرعاها ـ كما ذكرَ المُعتنونَ بمحالِّها ومساكنها ـ وفي عَيَاطِلَ[1] ذواتِ أشجارٍ شاهقَةٍ ذاهبةٍ طولاً؛ فأُعينَت بطولِ العُنقِ لتتناوَلَ أطرافَ الشجرِ الذي هناكَ وثمارَها.

وهذا ما وَصَلَتْ إليهِ معرفتُهم، وحكمَةُ اللطيفِ الخبيرِ فوقَ ذلكَ وأجلُّ منهُ.



(١) مفردُها (عَيْطَل)، وهي الهَضَبةُ الطويلةُ.

الفصل الثامن

السمك والجراد

[السمك]

ثمَّ تأمَّلِ العِبرَةَ في السَّمكِ وكيفيَّةِ خِلْقَتهِ وأنَّهُ خُلِقَ غيرَ ذي قوائمَ؛ لأنَّهُ لا يَحتاجُ إلى المشي إذ كانَ مسكنُهُ الماءَ ولم يُخلَق له رئةٌ لأنَّ منفعَةَ الرِّئةِ التَّنفُّسُ والسَّمكُ لم يَحتَج إليهِ لأنَّهُ ينغمسُ في الماءِ، وخُلقَت له عِوَضَ القوائمِ أجنحةٌ شِدادٌ يَقذفُ بها من جانبيهِ كما يَقذفُ صاحبُ المركبِ بالمقاذيفِ[1] من جانبي السَّفينَةِ، وكسي جِلدَهُ قُشوراً مُتداخلَةً كتداخُلِ الجَوْشَنِ[2] ليَقيَه من الآفاتِ، وأُعينَ بقوَّةِ الشمِّ لأنَّ بَصَرهُ ضَعيفٌ والماءُ يحجبُهُ فصارَ يشمُّ الطَّعامَ من بُعْدٍ فيَقصدُهُ.

وقد ذُكِرَ في بَعضِ كتُبِ الحيوانِ، أنَّ مِن فيهِ إلى صِمَاخهِ[3] منافذَ، فهو يصبُّ الماءَ فيها بفيهِ ويُرسلهُ من صِماخَيهِ فيتروَّحُ بذلكَ كما يأخذُ الحيوانُ النَّسيمَ الباردَ بأنفهِ ثمَّ يُرسلهُ ليتروَّحَ به، فإنَّ الماءَ للحيوانِ البَحريِّ كالهواءِ للحيوانِ البريِّ، فهما بَحْرانِ أحدُهما ألطَفُ من الآخَرِ؛ بحرُ هواءٍ يسبحُ فيهِ

---

(١) المقذاف: المجداف.

(٢) هو الدرع.

(٣) هو قناة الأذن.

حيوانُ البرِّ، وبحرُ ماءٍ يسبحُ فيهِ حيوانُ البَحرِ، فلو فارَقَ كلٌّ من الصِّنفَينِ بَحْرَهُ إلى البَحرِ الآخَرِ ماتَ، فكما يَختنقُ الحيوانُ البرِّيُّ في الماءِ يختنقُ الحيوانُ البحريُّ في الهواءِ.

فسُبحانَ من لا يُحصي العادُّونَ آياتِهِ، ولا يُحيطونَ بتَفصيلِ آيَةٍ منها على الانفرادِ، بل إنْ علموا منها وجهاً جَهلوا منها أوجُهاً.

فتأمَّلِ الحِكمَةَ البالغَةَ في كونِ السَّمَكِ أكثَرَ الحيوانِ نَسلاً، ولهذا تَرى في جوفِ السَّمكَةِ الواحدَةِ منَ البَيضِ ما لا يُحصى كثرَةً.

وحِكمَة ذلكَ أن يتَّسعَ لِمَا يَغتَذي به من أصنافِ الحيوانِ؛ فإنَّ أكثرَها يأكلُ السَّمَك حتى السِّباعَ، لأنَّها في حافَّاتِ الآجام[1] جاثمَةٌ تعكفُ على الماءِ الصَّافي، فإذا تَعذَّرَ عليها صَيدُ البَرِّ رَصَدَتِ السَّمكَ فاختَطفتْهُ.

فلمَّا كانَت السِّباعُ تأكلُ السَّمَكَ، والطَّيرُ تأكلُهُ، والنَّاسُ تأكلهُ، والسَّمَكُ الكبارُ تأكلهُ، ودوابُّ البَرِّ تأكلهُ، وقَد جعلهُ اللَّهُ سبحانهُ غذاءً لهذه الأصنافِ اقتَضَت حكمتُهُ أن يكونَ بهذه الكثرَةِ.

ولو رأى العبدُ ما في البَحرِ من ضُروبِ الحيواناتِ والجواهرِ والأصنافِ ـ التي لا يُحصيها إلّا اللَّهُ، ولا يَعرفُ النَّاسُ منها إلّا الشيءَ القليلَ الذي لا نِسْبَةَ لهُ أصلاً إلى ما غابَ عنهم ـ لرأى العَجَبَ، ولعَلِم سَعَةَ مُلْكِ اللَّهِ وكثرَةَ جنودِهِ التي لا يعلمُها إلّا هوَ.

---

(١) الآجام: مفردها أجمة، وهي الشجر الكثير.

[الجراد]

وهذا الجراد، جند.

من جنود اللَّهِ، ضَعيفُ الخِلْقَةِ، عجيبُ التَّركيبِ، فيهِ خَلقُ سبع حيواناتٍ؛ فإذا رأيتَ عساكرَهُ قَد أقبَلَت أبْصَرتَ جُنْداً لا مردَّ له ولا يُحصى منهُ عَددٌ، ولا عُدَّةٌ، فلو جَمَعَ المَلِكُ خَيلَهُ ورَجِلَهُ ودوابَّهُ وسلاحَهُ ليصدَّهُ عن بلدهِ لَمَا أمْكَنهُ ذلكَ، فانظُر كيفَ ينسابُ على الأرضِ كالسَّيلِ فيَغشى السَّهلَ والجبَلَ والبَدْوَ والحضَرَ حتى يَسترَ نورَ الشمسِ بكثرتهِ، ويَسُدَّ وجه السَّماءِ بأجنحتهِ، ويبلغَ منَ الجوِّ إلى حيثُ لا يبلغُ طائرٌ أكبرُ جناحين منه.

فَسَل المُعطِّلَ: مَن الذي بَعَثَ هذا الجُندَ الضَّعيفَ الذي لا يَستطيعُ أن يَرُدَّ عن نفسهِ حيواناً رامَ أَخْذَهُ؟ بَعَثَهُ على العسكرِ أهلِ القوَّةِ والكثرَةِ والعَدَدِ والحيلَةِ فلا يَقدرونَ بأجمعهم على دفعهِ، بل ينظرونَ إليهِ يستبدُّ بأقواتهم دونَهُم ويُمزقها كلَّ مُمزَّقٍ ويَذَرُ الأرضَ قَفْراً منها وهم لا يَستطيعونَ أن يَردُّوهُ ولا يحولُوا بينهُ وبينها.

وهذا من حِكمتهِ سبحانهُ أن يُسلِّطَ الضَّعيفَ من خلقهِ الذي لا مُؤنَةَ لهُ على القويِّ فينتقمَ به منهُ ويُنْزلَ به ما كانَ يَحذَرُهُ منهُ حتى لا يَستطيعَ لذلكَ مرداً ولا صرفاً.



الفصل التاسع

الهدهد[1]

وهذا الهدهد، من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض حيث لا يراه غيره، ومن هدايته: ما حكاه الله سبحانه عنه في كتابه أنه قال لنبي الله سليمان عليه السلام وقد فَقَدَهُ وتواعده، فلمَّا جاءه بَدَرَه بالعُذر، قبل أن يبدره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيّجه به على الإصغاء إليه، والقبول منه، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢] وفي ضمن هذا أنّي أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ، استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر وقبوله، وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأداة التأكيد فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣] ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجلّ الملوك، بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها

---

(١) هذا الفصل من كتاب «شفاء العليل» ص٢٤٢.

التي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤].

وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها، إيذاناً بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المغوي لهم، الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصدّ حال بينهم وبين الهداية للسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السّماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه، إشعار بما خَصَّه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب الكشاف: «وفي إخراج الخبء أمارة على أنّه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السّماوات والأرض، جلَّت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله، مخائل كل مختص بصناعة، أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله».



الفصل العاشر

طائر الحمام[1]

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية، حتى قال الشافعي: «أعقل الطير الحمام».

وبُرُد الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب، فربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد، فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره، لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها، وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول، والقيِّمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناءً عظيماً، فيفرّقون بين ذكورها وإناثها وقت السّفاد، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها، والإناث عن ذكورها، ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها، ويتعرفون صحة طرقها ومحلها لأنهم لا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكراً من عرض الحمام فتعتريها الهجنة.

والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها!

والقيمون بأمرها لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حماماً ساقطاً لم يَخْفَ عليهم حسبُها

(١) هذا الفصل من كتاب «شفاء العليل» ص٢٤٣.

ونسبُها وبلدُها، ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له، ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها، يقولون هو أحنُّ إلى بيته لمكان أنثاه، وهو أشدّ منها وأقوى بدناً وأحسن اهتداءً.

وطائفة منهم يختار لذلك الإناث، ويقولون: الذكر إذا سافر وبعد عهده حَنَّ إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها فترك المسير ومال إلى قضاء وطره منها، وهداية الحمام على قدر التعليم والتوطين.

والحمام موصوف باليمن والإلف والتأنس، ويحب الناس ويحبونه، ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه وإن أساء إليه، ويعود إليه من مسافات شاسعة، وربما صد واختزل عن وطنه عشر حجج، وهو ثابت على الوفاء، حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه.

والحمام إذا أراد السفاد تلطف للأنثى غاية التلطف، فيبدأ بنشر ذنبه وإرخاء جناحيه، ثم يدنو من الأنثى، فيهدر لها ويقبلها ويزقها وينتفش ويرفع صدره، ثم يعتريه ضرب من الحكة والتفلي، والأنثى في ذلك مرسلة جناحها وكتفها على الأرض، فإذا قضى حاجته منها، ركبته الأنثى! وليس ذلك في شيء من الحيوان سواه، وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد، يقوم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان، فيعملان منه أفحوصة، وينسجانها نسجاً متداخلاً في الوضع الذي يكون بقدر جثمان الحمامة، ويجعلان حروفها شاخصةً مرتفعة، لئلا يتدحرج عنها البيض، ويكون حصناً للحاضن، ثم يتعاودان ذلك المكان، ويتعاقبان الأفحوص

يسخّنانه ويطيبانه، وينفيان طباعه الأول ويحدثان فيه طبعاً آخر، مشتقاً ومستخرجاً من طباع أبدانهما ورائحتهما، لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة، ثم إذا ضربها المخاض، بادرت إلى ذلك المكان ووضعت فيه البيض، فإن أفزعها رعد قاصف، رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته، كالمرأة التي تسقط من الفزع.

فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحَضْن، حتى إذا بلغ الحضن مداه وانتهت أيّامه، انصدع عن الفرخ فأعاناه على خروجه، فيبدآن أولاً بنفخ الريح في حلقه، حتى تتسع حوصلته، علماً منهما بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء، فتتسع الحوصلة بعد التحامها وتنفتق بعد ارتتاقها، ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئاً فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء، فيزقانه بلعابهما المختلط بالغذاء وفيه قوى الطعم، ثم يعلمان أن طبع الحوصلة تضعف عن استمرار الغذاء، وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية لتكون لها بعض المتانة، فيلقطان من الحيطان الحب اللين الرخو ويزقانه الفرخ، ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشدّ، ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ، وهو يطلب ذلك منهما، حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع ليحتاج إلى اللقط ويعتاده، وإذا علما أن أدواته قد قويت ونمت، وأنهما إن فطماه فطماً تاماً قوي على اللقط وتبلّغ لنفسه، ضرباه إذا سألهما الزقّ ومنعاه، ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما، وينسيان ذلك التعطف المتمكن، حين يعلمان أنه قد أطاق القيام بنفسه والتكسب، ثم يبتدئان العمل ابتداء على ذلك النظام.

والحمام مشاكل للناس في أكثر طباعه ومذاهبه، فإن في إناثه أنثى لا تريد إلا زوجها، وفيه أخرى لا تردّ يَدَ لامس، وأخرى لا تُنَال إلّا بعد الطلب الحثيث، وأخرى تُركَب من أول وهلة وأول طلب، وأخرى لها ذكر معروف بها، وهي تمكن ذكراً آخر منها عند غيبة ذكرها لا تعدوه قد اتخذته خدناً، وأخرى مسافحة إذا غاب زوجها لم تمتنع ممن ركبها، وأخرى تمكن من نفسها غير زوجها وهو يراهما ويشاهدهما ولا تبالي بحضوره، وأخرى تعمط الذكر وتدعوه إلى نفسها، وأنثى تركب أنثى وتساحقها، وذكر يركب ذكراً ويعشقه.

وكل حالة توجد في الناس ذكورهم وإناثهم توجد في الحمام.

وفيها من لا تبيض، وإن باضت أفسدت البيضة، كالمرأة التي لا تريد الولد، كيلا يشغلها عن شأنها، وفي إناث الحمام من إذا عرض لها ذكر ـ أي ذكر كان ـ أسرعت هاربة ولا تواتي غير زوجها البتّة، بمنزلة المرأة الحرة، ومنها ما يأخذ أنثى يتمتع بها مدّة ثم ينتقل عنها إلى غيرها، وكذلك الأنثى توافق ذكراً آخر غير زوجها وتنتقل عنه، وإن كانوا جميعاً في بُرج واحد، ومنها ما يتصالح على الأنثى منها ذكران أو أكثر فتعاشرهم كلهم، حتى إذا غلب واحد منهم لرفيقه وقهره مالت إليه وأعرضت عن المغلوب.

وفي الحديث أن النبي ﷺ رأى رجلاً يتبع حمامة فقال: (شيطان يتبع شيطانة)[1].

---

(١) رواه أبو داود برقم (٤٩٤٠) وغيره.

ومنها ما يزق فراخه خاصّة، ومنها ما فيه شفقة ورحمة بالغة يزق فراخه وغيرها.

ومن عجيب هدايتها، أنها إذا حملت الرسائل، سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس، لئلا يعرض لها من يصدها، ولا ترد مياههم، بل ترد المياه التي لا يردها الناس.

ومن هدايتها أيضاً أنه إذا رأى البازي في الهواء فتعرف أي البزاة هو، وأي نوع من الأنواع ضده فيخالف فعله ليسلم منه، ومن كيسه أنه في أول نهوضه يعقل ويميز بين النسر والعقاب، وبين الرخم والبازي، وبين الغراب والصقر، فيعرف من يقصده ومن لا يقصده، وإن رأى الشاهين فكأنه يرى السم الناقع، ويأخذه تحير كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب، والحمارَ عند مشاهدة الأسد.

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ، فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، وجلب القوت والزق على الذكر، فإن الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم، والأمّ هي التي تحبل وتلد وترضع.

ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ: أنّ رجلاً كان له زوج حمام مقصوص، وزوج حمام طيّار، وللطيار فرخان، قال: ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوّة للدخول والخروج وزق فراخهما، قال: فحبسني السلطان فجأة، فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام، ولم أشك في موتهما لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة، وليس عندهما ما يأكلان ويشربان، قال: فلما خُلّي سبيلي لم يكن لي هَمّ غيرهما، ففتحت البيت فوجدت الفرخين قد كبرا، ووجدت المقصوصين

على أحسن حال، فتعجبت! فلم ألبث أن جاء الزوج الطيار، فدنا الزوج المقصوصين إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقاهما.

فانظر إلى هذه الهداية، فإن المقصوصين لما شاهدا تلطف الفراخ للأبوين وكيف يستطعمانهما، واشتد بهما الجوع والعطش، فعلا كفعل الفرخين فأدركتهما رحمة الطيارين، فزقاهما كما يزقان فرخيهما.

ونظير ذلك ما ذكره الجاحظ وغيره، قال الجاحظ: ـ وهو أمر مشهور عندنا بالبصرة ـ أنه لما وقع الطاعون الجارف، أتى على أهل دار، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق منهم أحد، فعمدوا إلى باب الدار فسدوه، وكان قد بقي صبي صغير يرضع ولم يفطنوا له، فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم ففتح الباب، فلما أفضى إلى عرصة الدار، إذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار، فراعه ذلك! فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبي حبا إليها فأمكنته من أطبائها فمصّها، وذلك أنّ الصبي لما اشتدّ جوعه، ورأى جراء الكلبة يرتضعن من أطبائها حبا إليها، فعطفت عليه، فلما سقته مرّة أدامت له ذلك، وأدام هو الطلب، ولا يستبعد هذا، وما هو أعجب منه.

فإن الذي هدى المولود إلى مَصّ إبهامه ساعة يولد، ثم هداه إلى التقام حلمة ثدي لم يتقدم له به عادة، كأنه قد قيل له: هذه خزانة طعامك وشرابك التي كأنك لم تزل بها عارفاً، وفي هدايته للحيوان إلى مصالحه ما هو أعجب من ذلك.

❁ ❁ ❁

الفصل الحادي عشر

تأملات في حياة الحيوان

[﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾]

ثمَّ تأمَّلِ العِبَرةَ التي ذكرَها اللَّهُ ﷻ في الأَنْعامِ وما أَسْقانا من بطونها منَ اللبنِ الخالصِ السَّائغِ الهنيءِ المريءِ الخارجِ من بينِ الفَرْثِ والدَّمِ، فتأمَّلْ كيفَ ينزلُ الغذاءُ من أفواهِها إلى المَعِدَةِ فينقلبُ بعضُهُ دماً بإذنِ اللَّهِ، وما يَسري في عُروقها وأعضائها وشعورِها ولحومِها، فإذا أرسلَتْهُ العُروقُ في مجاريها إلى جملَةِ الأجزاءِ قَلَبَهُ كلُّ عضوٍ أو عَصَبٍ وغُضْروفٍ وشَعرٍ وظُفُرٍ وحافرٍ إلى طبيعتهِ، ثمَّ يبقى الدَّمُ في تلكَ الخزائنِ التي لهُ، إذ بهِ قوامُ الحيوانِ، ثمَّ يَنصِبُ ثِقَلَهُ إلى الكَرْشِ فيَصيرُ زِبْلاً ثمَّ ينقلبُ باقيه لبناً صافياً أبيضَ سائغاً للشاربينَ، فَيَخرجُ من بينِ الفَرْثِ والدَّم حتى إذا أُنهِكَت الشاةُ أو غيرُها حَلْباً خَرَجَ الدَّمُ مُشْرَباً بحُمرَةٍ، فصفَّى اللَّهُ سبحانُه الألطَفَ من الثِّقَلِ بالطَّبخِ الأوَّلِ وانْفَصَلَ إلى الكبدِ وصارَ دماً وكانَ مخلوطاً بالأخلاطِ الأربعَةِ[1]، فأذهَبَ اللَّهُ ﷻ كلَّ خِلْطٍ منها إلى مقرِّهِ وخزانتهِ المُهيَّأةِ له منَ المرَارَةِ والطُّحالِ والكُلْيَةِ، وباقي الدَّمِ الخالصِ يدخُلُ في أوردَةِ الكبدِ فينصبُّ من تلك العروقِ إلى الضَّرعِ

---

(١) وهي الصفراء والبلغم والدم والسوداء.

فيقلبُهُ اللَّهُ تبارَكَ وتعالى من صورَةِ الدَّمِ وطبعِهِ وطعمِهِ إلى صورَةِ اللَّبَنِ وطبعِهِ وطعمِهِ فاسْتُخْرِجَ مِنَ الفَرثِ والدَّمِ.

فمن الذي دبَّرَ هذا التَّدبيرَ وقدَّرَ هذا التَّقديرَ وأتقَنَ هذا الصُّنعَ ولَطَفَ هذا اللُّطْفَ سوى اللطيفِ الخبيرِ؟!

[اختفاء جيف الحيوانات]

ثُمَّ تأمَّلْ خَلَّةً عجيبَةً جُعِلَت للبهائم والوُحوشِ والسِّباعِ والدَّوابِّ على كثرتها لا يُرى منها شيءٌ وليسَت شيئاً قليلاً فتَخفى لقلَّتها ـ بل قَد قيل: إنَّها أكثَرُ من النَّاسِ ـ، واعْتَبِرْ ذلكَ بما تَراهُ في هذه الصَّحاري من أسرابِ الظِّباءِ والبَقَرِ والوُعولِ والذِّئابِ والنُّمورِ وضُروبِ الهوامِّ على اختلافها وسائرِ دوابِّ الأرضِ وأنواعِ الطُّيورِ التي هيَ أضعافُ أضعافِ بني آدمَ لا تكادُ تَرى منها شيئاً ميِّتاً لا في كِناسهِ[1] ولا في أوكارهِ ولا في مساقطهِ ومراعيهِ وطُرُقهِ ومواردهِ ومناهِلِهِ ومعاقلهِ ومعاصمهِ؛ إلّا ما عَدا عليهِ عادٍ؛ إمَّا افترَسهُ سبع أو رماهُ صائدٌ أو عَدا عليهِ عادٍ أشغَلَهُ وأشغَلَ بني جنسهِ عن إحرازِ جسمهِ وإخفاءِ جيفتهِ.

فدلَّ ذلكَ على أنَّها إذا أحسَّتْ بالمَوتِ ولم تُغلَب عن نَفسها كَمَنتْ حيثِ لا يُوصَلُ إلى أقسامِها، وقَبَرت جيفَها قبلَ نُزولِ البين بها، ولولا ذلكَ لامتلأت الصَّحارى بجيفها وأفسَدَت الهواءَ بروائحها، فعادَ ضرَرُ ذلكَ بالنَّاسِ، وكانَ سبيلاً إلى وقوعِ الوباءِ.

وقد دلَّ على هذا قولُهُ تعالى في قصَّةِ ابنَي آدمَ: ﴿فَبَعَثَ

---

(١) هو مدخل في الشجر يأوي إليه الظبي ليستتر.

﴿اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

وأمَّا ما جُعِلَ عَيشُهُ بينَ النَّاسِ ـ كالأنعامِ والدَّوابِّ ـ فلقُدرَةِ الإنسانِ على نَقلِهِ، واحتيالِهِ في دَفعِ أذيَّتِهِ مُنِعَ ممَّا جُعِلَ في الوحوشِ كالسِّباعِ.

فتأمَّلْ هذا الذي حارَ بنو آدَمَ فيهِ وفيما يَفعلونَ به؛ كيفَ جُعلَ طَبْعاً في البهائمِ، وكيفَ تعلَّموهُ منَ الطَّيرِ.

وتأمَّلِ الحكمَةَ في إرسالِ اللَّهِ تعالى لابنِ آدمَ الغرابَ المُؤذِنَ اسمُهُ بغُربَةِ القاتلِ من أخيهِ وغُربتِهِ هو من رحمَةِ اللَّهِ تعالى وغربتِهِ من أبيهِ وأهلِهِ واستيحاشِهِ منهم واستيحاشِهم منهُ وهو من الطُّيورِ التي تَنْفِرُ منها الإنسُ ومن نعيقها وتَستَوحشُ بها، فأرسَلَ إليهِ مثلَ هذا الطَّائرِ حتى صارَ كالمُعلِّم لهُ والأُستاذِ، وصارَ بمنزلَةِ المتعلِّم والمُستدِلِّ[1].

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله:
ولا تُنكَرُ حكمَةُ هذا البابِ وارتباطُ المُسمَّياتِ فيه بأسمائها، فَقَد قال النَّبيُّ ﷺ: (إذا بَعثتُم إليَّ بَريداً فابعَثوهُ حسن الاسم حَسَنَ الوجهِ)، وكانَ يسألُ عن اسمِ الأرضِ إذا نَزَلها، واسم الرَّسولِ إذا جاءَ إليهِ، ولمّا جاءَهُم سُهَيلُ بنُ عَمرو يومَ الحُديبيَة قال: (قَد سَهُلَ لكم من أمركم)، ولمّا أرادَ تَغييرَ اسمِ حَزْنٍ بسَهلٍ قال: (لم يَزَل معنى اسمهِ فيهِ وفي ذُرِّيَّتِهِ).
ولمّا سألَ عمرُ بنُ الخطَّابِ الرَّجلَ عن اسمهِ واسم أبيهِ ودارهِ ومنزلهِ؟ فأخبَرَهُ أنَّهُ جَمرَةُ بن شهابٍ، وأنَّ دارَهُ بالحُرَقَةِ، وأنَّ مسكنهُ منها ذاتُ لظى، قال لهُ: أدرِك بيتَكَ فَقَد احتَرَقَ! فكانَ كما قال.
وشواهدُ هذا البابِ أكثرُ من أن نَذكُرَها هُنا. =

ولا تظنَّ أنَّ إرسالَ الغُرابِ وَقَعَ اتِّفاقاً خالياً من الحكمَةِ، فإنَّكَ إذا خَفيَ عليكَ وجهُ الحكمَةِ فلا تُنكِرْها، واعْلَمْ أنَّ خفاءَها من لُطفها وشرفها، وللَّهِ تعالى فيما يُخفي وجهَ الحكمَةِ فيهِ على البَشرِ الحِكَمُ الباهرَةُ المتضمِّنَةُ للغاياتِ المحمودَةِ.

[من فطنة الحيوانات]

ومن عَجيبِ الفِطنَةِ في الحيوانِ أنَّ الثعلَب إذا أعْوَزَهُ الطَّعامُ ولم يَجد صَيداً تماوَتَ ونَفَخَ بَطْنَهُ حتى يحسِبَهُ الطَّيرُ مَيْتاً فيقعَ عليهِ ليأكلَ منهُ فَيَثِبَ عليهِ الثَّعلبُ فيأخُذَهُ.

ومن عَجيبِ الفِطنَةِ في هذه الذُّبابَةِ الكبيرَةِ التي تُسمَّى أَسَدَ الذُّبابِ؛ فإنَّكَ تراه حينَ يُحِسُّ بالذُّبابِ قَد وَقَعَ قريباً منهُ يسكنُ مليًّا حتى كأنَّهُ مواتٌ لا حراكَ به، فإذا رأى الذُّبابَ قَد اطمأنَّ وغفلَ عنهُ دبَّ دبيباً رفيقاً حتى يكونَ منهُ بحيثُ ينالُهُ ثمَّ يَثِبُ عليهِ فيأخذه.

ومن عَجيبِ حِيَلِ العنكبوتِ أنَّهُ يَنْسِجُ تلكَ الشبكَةَ شَرَكاً للصَّيدِ ثمَّ يَكْمُنُ في جوفها، فإذا نَشبَ فيها البَرْغشُ والذُّبابُ وثَبَ عليهِ وامتصَّ دمَه، فهذا يَحكي صَيدَ الأَشراكِ والشِّباكِ، والأوَّل يَحكي صيدَ الكلابِ والفهود.

= وهذا بابٌ لَطيفُ المنزعِ شديدُ المناسَبَةِ بينَ الأسماءِ والمسمَّياتِ، وكثيراً ما أُولَع النَّاسُ قَديماً وحَديثاً بنعيقِ الغُرابِ واستدلالهم به على البَيْنِ والاغترابِ، وينسِبونَهُ إلى الشُّؤمِ ويَنفُرونَ منهُ وينفُرُ منهم، فكانَ جَديراً أن يُرْسَلَ هذا الطَّائرُ إلى القاتلِ من ابنَيْ آدمَ دونَ غيرهِ منَ الطُّيورِ، فكأنَّهُ صورَةُ طائرهِ الذي أُلزِمَهُ في عُنُقهِ وطارَ عنهُ من عملهِ.

ومن ذلك[1] أن الديك الشاب إذا ألقي له حَبٌّ لم يأكله حتى يفرقه، فإذا هرم وشاخ أكله من غير تفريق، كما قال المدائني: إن إياس بن معاوية مَرَّ بديك ينقر حبًّا ولا يفرقه، فقال: ينبغي أن يكون هرماً، فإن الديك الشاب يفرق الحبَّ لتجتمع الدجاج حوله فيصبن منه، والهرم قد فنيت رغبته فيهن، فليس له همة إلا نفسه، قال إياس: والديك الشاب يأخذ الحبة فيؤثرها الدجاجة، حتى يلقيها من فيه، والهرم يبتلعها ولا يلقيها للدجاجة.

وذكر ابن الأعرابي قال: أكلت حيةٌ بيضَ مُكَّاء[2]، فجعل المُكَّاء يصوت ويطير على رأسها ويدنو منها، حتى إذا فتحت فاها وهمّت به، ألقى فيه حسكة، فأخذت بحلقها حتى ماتت، وأنشد أبو عمرو الشيباني في ذلك قول الأسدي:

إن كنت أبصرتني عَيلاً ومصطلماً ... فربما قتل المكَّاءُ ثعباناً

وهداية الحيوانات إلى مصالح معاشها كالبحر، حدِّثْ عنه ولا حرج.

ومن عجيب هدايتها، أن الثعلب إذا امتلأ من البراغيث، أخذ صوفة بفمه، ثم عمد إلى ماء رقيق، فنزل فيه قليلاً قليلاً، حتى ترتفع البراغيث إلى الصوفة، فيلقيها في الماء ويخرج.

ومن عجيب أمره: أن ذئباً أكل أولاده، وكان للذئب أولاد، وهناك زُبية[3] فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها، وحفر فيها سرداباً

(١) من هنا وحتى آخر هذه الفقرة من كتاب «شفاء العليل» ص٢٤٨ ـ ٢٥٢.

(٢) المكاء: طائر صغير.

(٣) الزبية: حفرة يعملها الناس في رابية مرتفعة، ويغطون فوهتها كي يطأها الأسد ويسقط فيها.

يخرج منه، ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم وجلس ناحية ينتظر الذئب، فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب قدّامه وهو يتبعه، فألقى نفسه في الزُبية ثم خرج من السرداب، فألقى الذئب نفسه وراءه فلم يجده، ولم يطق الخروج، فقتله أهل الناحية.

ومن عجيب أمره أن رجلاً كان معه دجاجتان، فاختفى له وخطف إحداهما وفَرَّ، ثم أعمل فكره في أخذ الأخرى، فتراءى لصاحبها من بعيد، وفي فمه شيء شبيه بالطائر، وأطمعه في استنقاذها بأن تركه وفَرَّ، فَظَنَّ الرجل أنها الدجاجة فأسرع نحوها، وخالفه الثعلب إلى أختها فأخذها وذهب.

ومن عجيب أمره أنه أتى إلى جزيرة فيها طير، فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئاً، فلم يطق، فذهب وجاء بضغث من حشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطير، ففزع الطير منه، فلما عرفت أنه حشيش رجعت إلى أماكنها، فعاد لذلك مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، حتى توطنت الطير على ذلك وألفته، فعمد إلى جرزة أكبر من ذلك فدخل فيها وعبر إلى الطير، فلم يشك الطير أنه من جنس ما قبله فلم تنفر منه، فوثب على طير منها وعَدَا به.

ومن عجيب أمر الذئب أنه عرض لإنسان يريد قتله، فرأى معه قوساً وسهاماً، فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه، وأقبل نحو الرجل، فجعل الرجل كلّما رماه بسهم اتقاه بذلك العظم، حتى أعجزه وعاين نفاذ سهامه، فصادف من استعان به على طرد الذئب.

ومن عجيب أمر القرد، ما ذكره البخاري في صحيحه، عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «رأيت في الجاهلية قرداً وقردة

زنيا، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا»[1] فهؤلاء القرود أقاموا حَدَّ الله حين عَطَّله بنو آدم.

وهذه البقر يضرب ببلادتها المثل، وقد أخبر النبي ﷺ (أن رجلاً بَيْنَا هو يسوق بقرة إذ ركبها، فقالت: إنّا لم نخلق لهذا، فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم!فقال: فإني أومن بهذا، أنا وأبو بكر وعمر. وما هُما ثَمَّ، قال: وبَيْنَا رجل يرعى غنماً له، إذ عدا الذئب على شاة منها فاستنقذها منه، فقال الذئب: يا هذا استنقذتها مني؟ فمن لها يوم السَّبُعِ، يوم لا راعي لها غيري؟ فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم! فقال رسول الله ﷺ: إنّي أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هما ثَمَّ)[2].

ومن هداية الحمار الذي هو من أبلد الحيوان، أنّ الرجل يسير به، ويأتي به إلى منزله من البعد في ليلة مظلمة، فيعرف المنزل، فإذا خُلي جاء إليه، ويفرق بين الصوت الذي يستوقف به، والصوت الذي يحث به على السير.

ومن عجيب أمر الفأر أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة فنقص، وعَزَّ عليها الوصول إليه، ذهبت وحملت في أفواهها ماء، وصبته في الجرة حتى يرتفع الزيت فتشربه.

والأطباء تزعم أن الحقنة أخذت من طائر طويل المنقار، إذا تعسر عليه الذرق جاء إلى البحر المالح وأخذ بمنقاره منه واحتقن به، فيخرج الذرق بسرعة.

ومن عجيب أمر الثعلب أنّه إذا أصاب القنفذ، قَلَبَه لظهره

---

(١) رواه البخاري برقم (٣٨٤٩).

(٢) رواه البخاري (٣٦٦٣) ومسلم (٢٣٨٨).

لأجل شوكه، فيجتمع القنفذ حتى يصير كبّة شوك، فيبول الثعلب على بطنه، ما بين مغرز عجبه إلى فكيه، فإذا أصابه بوله اعتراه الأسر فانبسط، فيسلخه الثعلب من بطنه، ويأكل مسلوخه.

[عدم ازدراء العبرة بالشيء الصغير]

ولا تَزدرينَّ العبرَةَ بالشيءِ الحقيرِ من الذَّرَّةِ والنملةِ والبَعوضِ والعنكبوت؛ فإنَّ المعنى النَّفيسَ يُقتبسُ من الشيءِ الحقيرِ، والازدراءُ بذلك ميراثٌ من الذين استنكرَتْ عقولُهم ضربَ اللَّه تعالى في كتابهِ المثلَ بالذُّبابِ والعنكبوتِ والكلبِ والحمارِ، فأنزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦]، فما أغزَرَ الحِكَمَ وأكثرَها في هذه الحيواناتِ التي تَزدريها وتَحتقرها! وكم من دلالَةٍ فيها على الخالقِ وحكمتهِ ولطفهِ ورحمتهِ.

فَسَل المعطِّلَ: مَن ألهمها هذه الحِيَلَ والتَّلطُّفَ في اقتناصِ صَيدها الذي جُعِلَ قِوَامَها!؟ ومَن جَعَلَ هذه الحيلَ فيها بَدَلَ ما سَلَبَها من القوَّةِ والقدرَةِ، فأغْناها ما أعطاها منَ الحيلَةِ عمَّا سلَبها منَ القُوَّةِ والقُدرَةِ سوى اللطيفِ الخبيرِ؟!

[اشتراك وتفاوت[1]]

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

فتأمل كيف نَبَّهَ سبحانه باختلاف الحيوانات في آلة المشي مع اشتراكها في المادة، على الاختلاف فيما وراء ذلك من

(١) هذه الفقرة من كتاب «شفاء العليل» ص٦٣٦ ـ ٦٣٧، ٦٣٩.

أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها، فنبّه على الاشتراك والاختلاف، فنشير إلى يسير منه.

فالطير كلها تشترك في الريش والجناح، وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت.

واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل، وتفاوتها في ما وراء ذلك.

واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف، وتفاوتها في غيره.

واشتراك ذوات القرون فيها، وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال.

واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيه وتكون فيه وتفاوتها أعظم تفاوت، عجز البشر إلى الآن عن حصره.

واشتراك الوحوش في البعد عن الناس، والنفار عنهم وعن مساكنهم، وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت، يعجز البشر عن حصره.

واشتراك الماشي منها على بطنه في ذلك وتفاوت نوعه.

واشتراك الماشي على رجلين في ذلك وتفاوت نوعه أعظم تفاوت.

وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره، يعجز عن كثير منها نوع الإنسان.

فدَلَّ انتظامها في الوجود، ووقوعها مع تباينها، واختلافها على أكمل الوجوه وأحسنها، على انتهائها إلى غاية واحدة ومطلوب واحد هو إلهها الحق، ومعبودها الأعلى، الذي لا إله لها غيره ولا معبود لها سواه.

فتأمل كيف دَلَّ اختلاف الموجودات وتباينها، واجتماعها فيما اجتمعت فيه، وافتراقها فيما افترقت فيه، على إله واحد، وربّ واحد، ودلت على صفات كماله ونعوت جلاله.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني عشر

الإنسان يتعلم من الحيوان[1]

وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوان البهيم أموراً تنفعه في معاشه وأخلاقه، وصناعته، وحربه، وحزمه، وصبره.

وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، قال أبو جعفر الباقر: والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام، حتى جعلهم أضلَّ سبيلاً منها.

وقال ابن الأعرابي: قيل لشيخ من قريش: من علمك هذا كله، وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب؟ قال: علمني الله، ما علم الحمامة تقليب بيضها حتى تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من حضانتها، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد.

وقيل لآخر: ما علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها، وإن استعصت حتى تظفر بها؟ قال: من علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط، ثم تصعد ثم تسقط مراراً عديدة، حتى تستمر صاعدة.

وقيل لآخر: من علمك البكور في حوائجك أول النهار لا

---

(١) هذا الفصل من كتاب «شفاء العليل» ص٢٥٢ ـ ٢٥٧.

تُخلّ به؟ قال: مَنْ علم الطير تغدو كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها، لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر: مَن علمك السكون والتحفظ والتماوت، حتى تظفر بأربك، فإذا ظفرت به، وثبت وثوب الأسد على فريسته؟ فقال: الذي علم السنور أن ترصد جحر الفأرة، فلا تتحرك ولا تمور ولا تختلج، كأنها ميتة، حتى إذا برزت لها الفأرة، وثبت عليها كالأسد.

وقيل لآخر: مَنْ علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم الشكوى؟ قال: مَنْ عَلَّم أبا أيوب صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة، والمشي بها على ظهره من بلد إلى بلد، ماداً عنقه مستسلماً صابراً على الجوع والعطش والتعب، وغلظة الجَمَّال وضربه، فالثقل والكل على ظهره، ومرارة الجوع والعطش في كبده، وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه، ولا معول له غير الصبر.

وقيل لآخر: مَنْ عَلَّمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل؟ قال: مَنْ عَلَّم الديك يصادف الحبّة في الأرض وهو محتاج إليها، فلا يأكلها بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلباً حثيثاً، حتى تجيء الواحدة منهن فتلتقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وضع له الحبّ الكثير فَرَّقه ههنا وههنا، وإن لم يكن هناك دجاج، لأن طبعه قد ألف البذل والجود، فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام.

وقيل لآخر: مَنْ علمك هذا التحيل في طلب الرزق، ووجوه تحصيله؟ قال: مَنْ عَلّم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها، وهي أكثر من أن تذكر.

ومن علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتصَّ أثره ويطلب، عفا على أثر مشيته بذنبه، ومَنْ علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه، فينفخ في منخريه فيتحرك لأن اللبوة تضعه خَوراً كالميت، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك، ومَنْ أَلْهَم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها، ولو جهده الجوع.

ومن عَلّم الدب إذا أصابه كَلْم أن يأتي إلى نبت قد عرفه، وجهله صاحب الحشائش، فيتداوى به، فيبرأ؟

ومن عَلَّم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادها، أن تأتي إلى الماء فتلده فيه لأنها ـ دون سائر الحيوانات ـ لا تلد إلا قائمة، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية، فتخاف أن تسقطه على الأرض فيتصدع أو ينشق، فتأتي إلى ماء وسط، فتضعه فيه، يكون كالفراش اللين والوطاء الناعم.

ومن عَلَّم الذباب إذا سقط في مائع، أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر؟

ومن عَلَّم الكلب إذا عاين الظباء، أن يعرف المعتل من غيره، والذكر من الأنثى؟ فيقصد الذكر مع علمه بأن عدوه أشدّ وأبعد وثبة، ويدع الأنثى على نقصان عدوها، لأنه قد علم أنّ الذكر إذا عدا شوطاً أو شوطين حقب ببوله، وكل حيوان إذا اشتدّ فزعه فإنه يدركه الحقب، وإذا حقب الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عَدْوه فيدركه الكلب، وأما الأنثى فإنها تحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج، فيدوم عَدْوها.

ومَنْ علّمه أنه إذا كسا الثلجُ الأرض، أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف فيعلم أن تحته جحر الأرنب فينبشه ويصطادها، علماً منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق.

ومن عَلَّم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوباً بين عينيه، فينام بأحداهما حتى إذا تعبت الأخرى نام بها، وفتح النائمة حتى قال فيه بعض العرب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي   بأخرى المنايا فهو يقظان هاجعُ

ومن علم العصفورة، إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء، فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويحدثون له قوة وهمَّة وحركة حتى يطير معهم.

قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط فأومئ بيدي كأنني أرميه فلا يطير، وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً فلا يتحرك، فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي.

ومَنْ عَلَّم الحمامة إذا حملت أن تأخذ هي والأب في بناء العش، وأن يقيما له حروفاً تشبه الحائط، ثم يسخناه ويحدثا فيه طبيعة أخرى، ثم يقلبان البيض في الأيام، ومن قسم بينهما الحضانة والكد، فأكثر ساعات الحضانة على الأنثى، وأكثر ساعات جلب القوت على الأب، وإذا خرج الفرخ عَلمَا ضيق حوصلته عن الطعام فنفخا في فيه نفخاً متداركاً حتى تتسع حوصلته، ثم يزقانه اللعاب أو شيئاً قبل الطعام، وهو كاللبأ للطفل، ثم يعلمان احتياج الحوصلة إلى دباغ فيزقانه من أصل الحيطان من شيء بين الملح والتراب، تُدبغ به الحوصلة، فإذا اندبغت زقَّاه الحبَّ، فإذا علما أنه أطاق اللقط منعاه الزقّ على التدريج، فإذا تكاملت قوته وسألهما الكفالة ضرباه.

ومن علمهما إذا أرادا السفاد أن يبتدئ الذكر بالدعاء، فتتطارد له الأنثى قليلاً لتذيقه حلاوة المواصلة، ثم تطمعه في

نفسها، ثم تمتنع بعض التمنع ليشتد طلبه وحبه، ثم تتهادى وتتكسل، وتريه معاطفها، وتعرض محاسنها، ثم يحدث بينهما من التغزل والعشق والتقبيل والترشف ما هو مشاهد بالعيان.

ومن علَّم المرسلة منها إذا سافرت ليلاً أن تستدل ببطون الأودية، ومجاري المياه والجبال ومهاب الرياح ومطلع الشمس ومغربها، فتستدل بذلك وبغيره إذا ضلّت، فإذا عرفت الطريق مرت مَرَّ الريح.

ومن علم السنور إذا رأت فأرة في السقف أن ترفع يديها كالمشيرة إليها بالعود، ثم تشير إليها بالرجوع، وإنما تريد أن ترهبها فتزلق فتسقط.

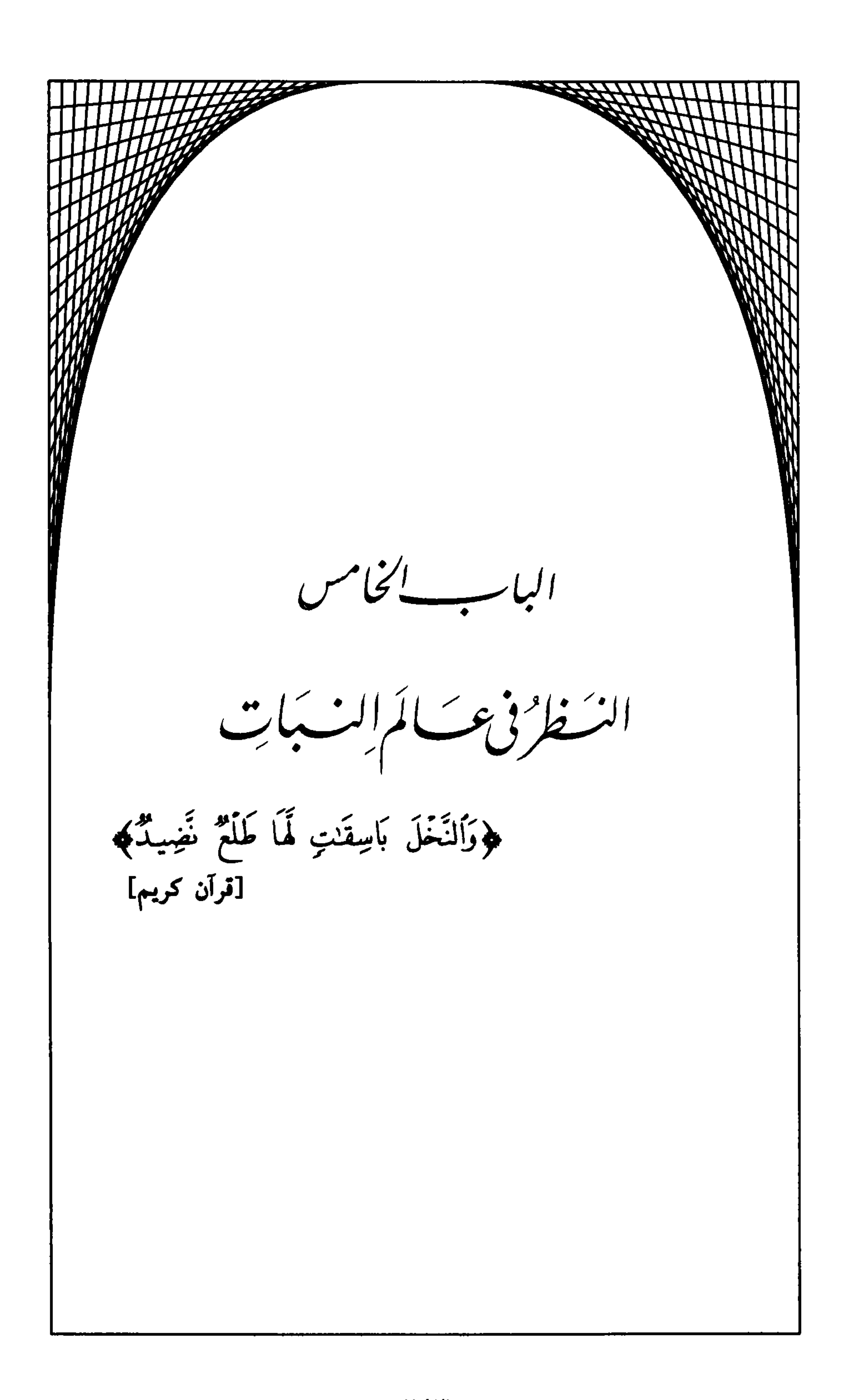
ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي، حيث يرتفع عن مجرى السيل، ليسلم من مدق الحافر، ومجرى الماء، ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً، فإذا أحسَّ بالشرِّ، فَتَح بعضها بأيسر شيء وخرج منه، ولما كان كثير النسيان، لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة أو شجرة، علامة له على البيت إذا ضلَّ عنه.

ومَنْ علَّم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه، حتي يذهب ذلك السمن ثم يظهر.

ومن علَّم الأيّل إذا سقط قرنه أن يتوارى، لأن سلاحه قد ذهب فيسمن لذلك، فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح، وأكثر الحركة ليشتد لحمه ويزول السمن المانع له من العدو.

وهذا باب واسع جداً، ويكفي فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

❁ ❁ ❁



الباب الخامس

النظر في عالم النبات

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾
[قرآن كريم]

آيات كريمة في النظر إلى النبات[1]

قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٩، ١٠].

---

(١) من اختيار جامع الكتاب.

الفصل الأول

تأملات في عالم النبات

[لكل فصل ثماره الخاصة به]

ثُمَّ تأمَّل الحكمَةَ الإلهيَّةَ في إخراجِ الأقواتِ والثِّمارِ والحبوبِ والفواكهِ مُتلاحقَةً شيئاً بَعدَ شيءٍ مُتتابعَةً، ولم يخلُقْها كُلَّها جملَةً واحدَةً؛ فإنَّها لو خُلِقَت كذلكَ على وجهِ الأرضِ ولم تكُن تَنْبُتُ على هذه السُّوقِ والأغصانِ لدخَلَ الخَلَلُ وفاتَت المصالحُ التي رُتِّبَتْ على تلاحُقِها، وتتابُعِها؛ فإنَّ كلَّ فَصلٍ وأَوَانٍ يَقتَضي منَ الفواكهِ والنَّباتِ غيرَ ما يَقتَضيهِ الفَصلُ الآخَرُ، فهذا حارٌّ وهذا باردٌ وهذا مُعْتَدِلٌ، وكُلٌّ في فصلهِ مُوافقٌ للمصلَحَةِ لا يَليقُ به غيرُ ما خُلِقَ فيهِ.

ثمَّ تأمَّلْ كيفَ اقتَضَت الحكمَةُ الإلهيَّةُ مُوافقاتِ أصنافِ الفواكهِ والثِّمارِ للنَّاسِ بحسبِ الوقتِ المُشاكِلِ لها المُقتَضي لها، فَتُوافيهم كمُوافاةِ الماءِ للظَّمْآنِ فتتلقَّاها الطَّبيعَةُ بانشراحٍ واشتياقٍ مُنتظِرَةً لقدومها كانتظارِ الغائبِ للغائبِ، فلو كانَ الصيفُ ونباتُه إنَّما يُوافى في الشتاءِ لصادَفَ منَ النَّاسِ كراهيَّةً واستثقالاً بورودهِ مع ما كانَ فيهِ من المَضَرَّةِ للأبدانِ والأذى لها، وكذلكَ لو وافى ربيعُها في الخريفِ أو خريفُها في الرَّبيعِ لم يقع منَ النُّفوسِ ذلكَ الموقعَ ولا استطابَتْهُ واستلذَّتْهُ ذلكَ الالتذاذ.

ولهذا تجدُ المُتأخِّرَ منها عن وقتهِ فائتاً مَمْلولاً مخلولَ

الطَّعم، ولا يُظَنُّ أنَّ هذا لجريانِ العادَةِ المجرَّدَةِ بذلك؛ فإنَّ العادَةَ إنَّما جرَت به لأنَّهُ وافَقَ الحكمَةَ والمَصلَحَةَ التي لا يُخِلُّ بها الحكيمُ الخَبيرُ.

[منافع أخرى غير الثمار]

ثُمَّ إنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ تلكَ الأقواتَ مُقارِنةً لمنافعَ أُخَرَ من العَصْفِ والخَشبِ والوَرقِ والنَّوْرِ[1] والسَّعَف والكَرَبِ[2]، وغيرِها من منافعِ النَّباتِ والشجرِ، غيرِ الأقواتِ كعَلَفِ البهائم وآلاتِ الأبنيَةِ والسُّفُنِ والرِّحالِ والأواني وغيرها، ومنافعِ النَّورِ منَ الأدويَةِ والمنظرِ البَهيجِ الذي يَسُرُّ النَّاظرين وحُسن مرائي الشجرِ وخِلْقتها البَديعَةِ الشاهِدَةِ لفاطرها ومبدِعها بغايَةِ الحِكمَةِ واللُّطفِ.

[الزهر والورق يخرجان من الحطب]

ثمَّ إذا تأمَّلْتَ ذلكَ النَّورِ البَهيِّ من نَفسِ ذلكَ الحَطَبِ، ثمَّ إخراجَ الوَرَقِ الأخضرِ، ثمَّ إخراجَ تلكَ الثِّمارِ على اختلافِ أنواعها وأشكالها، ومقاديرها وألوانها وطُعومِها ومنافعها وما يُرادُ منها.

ثمَّ تأمَّلْ أينَ كانت مُستودَعَةً في تلكَ الخشبَةِ وهاتيكَ العيدانِ وجُعلَت الشجرَةُ لها كالأُمِّ، فَهَل كان في قُدرَةِ الأبِّ العاجزِ الضَّعيفِ إبرازُ هذا التَّصوير العجيبِ، وهذا التَّقديرِ المُحْكَمِ، وهذه الأصباغِ الفائقَةِ، وهذه الطُّعومِ اللذيذَةِ والرَّوائحِ الطيِّبَةِ، وهذه المناظرِ المُستحسَنةِ.

---

(١) هو الزَّهْر.
(٢) هو إثارةُ الأرْض للزَّرْعِ.

فَسَلِ الجاحدَ: مَن تولَّى تَقديرَ ذلكَ وتَصويرَهُ وإبرازَهُ وتَربيتَهُ شيئاً فشيئاً وسَوْقَ الغذاءِ إليهِ في تلكَ العُروقِ اللِّطافِ التي يكادُ البَصَرُ يعجزُ عن إدراكها وتلكَ المجاري الدِّقاقِ؟!

فَمَن الذي تولَّى ذلكَ كلَّهُ؟! ومَن الذي أطْلَعَ لها الشمسَ وسخَّرَ لها الرِّياحَ وأنْزَلَ عليها المطَرَ ودفعَ عنها الآفاتِ؟!

[آليّة تغذية النبات]

وتأمَّلْ تَقديرَ اللطيفِ الخبيرِ، فإنَّ الأشجارَ لمَّا كانَت تَحتاجُ إلى الغِذاءِ الدَّائمِ كحاجَةِ النَّاسِ وسائرِ الحيوانِ ولم يكُن لها أفواهٌ كأفواهِ الحيوانِ ولا حَرَكَةٌ تَنبعثُ بها لتناوُلِ الغذاء جُعِلَت أُصولُها مركوزَةً في الأرضِ ليسرِعَ لها الغذاءُ وتمتصَّهُ من أسفَلِ الثَّرى فتؤدِّيَهُ إلى أغصانها، فتُؤدِّيَهُ الأغصانُ إلى الوَرَقِ والثَّمَرِ كلٌّ لهُ شِرْبٌ معلومٌ لا يتَعدَّاهُ، يَصِلُ إليهِ في مَجارٍ وطُرُقٍ قد أُحْكِمَت غايَةَ الإحكام، فتأخذَ الغذاءَ مِن أسفَلَ فَتَلْقَمَهُ بعروقها كما يلتقمُ الحيوانُ غذاءَهُ بفمهِ ثمَّ تُقَسِّمَهُ على حَمْلِها بحسبِ ما يحتملُهُ، فتُعطي كلَّ جُزءٍ منه بحسبِ ما يحتاجُ إليهِ لا تَظلمُهُ ولا تزيدُهُ على قَدْرِ حاجتهِ.

فَسَلِ الجاحدَ: مَن أعطاها هذا؟ ومَن هداها إليه ووَضَعَهُ فيها؟

فلو اجتَمَعَ الأوَّلونَ والآخِرونَ هل كانَت قُدرتُهم وإرادتُهم تَصِلُ إلى تَربيَةِ ثمرةٍ واحدَةٍ منها هكذا بإشارَةٍ أو صناعَةٍ أو حيلَةٍ أو مُزاوَلَةٍ؟

وهل ذلكَ إلّا مِن صُنعِ مَن شَهِدَت له مَصنوعاتُهُ ودلَّت عليهِ آياتُهُ كما قيلَ:

فَواعَجباً كيفَ يُعْصى الإلهُ أم كيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ
ولـلَّـهِ فـي كُـلِّ تَـحـريـكَـةٍ وَتَـسـكـيـنَـةٍ أبـداً شـاهِـدُ
وفـي كُـلِّ شـيءٍ لـهُ آيَـةٌ تَـدُلُّ عـلـى أنَّـهُ واحِـدُ

[الأشجار بين حمل ووضع]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمَةَ الباهرَةَ في هذه الأشجار؛ كيفَ تراها في كلِّ عامٍ لها حَمْلٌ ووضعٌ! فهي دائماً في حملٍ وولادَةٍ، فإذا أَذِنَ لها ربُّها في الحملِ احتبَست الحرارَةَ الطَّبيعيَّةَ في داخلها واختبأَتْ فيها ليكونَ فيها حملُها في الوقتِ المقدَّرِ لها، فيكونَ ذلكَ الوقتُ بمنزلَةِ وقتِ العُلُوقِ ومبدأ تكوينَ النُّطَفِ، فتعملُ المادَّةُ في أجوافها عملَها وتُهَيِّئُها للعُلُوقِ، حتى إذا آنَ وقتُ الحملِ دبَّ فيها الماءُ فلانَت أعطافُها، وتحرَّكَت للحملِ، وسَرى الماءُ في أفنانِها، وانتَشرَت فيها الحرارةُ والرُّطوبَةُ.

حتى إذا آنَ وقتُ الولادَةِ كُسِيَتْ من سائرِ الملابسِ الفاخرَةِ منَ النَّوْرِ والوَرَقِ ما تَتَبَختَرُ فيه وتَمِيسُ به وتفخَرُ على العقيمِ، فإذا ظَهَرَت أولادُها وبانَ للنَّاظرِ حملُها عُلِمَ حينئذٍ كَرَمُها وطِيبُها من لُؤمها وبُخلها فتولَّى تغذيَةَ ذلكَ الحملِ مَن تَولَّى غذاءَ الأجِنَّةِ في بطونِ أُمَّهاتها وكساها الأوراقَ وصانها من الحرِّ والبَردِ.

فإذا تكامَلَ الحملُ وآنَ وقتُ الفطام تَدلَّت إِليكَ أفنانُها كأنَّما تُناوِلُكَ ثمرَةَ دَرِّها، فإذا قابَلْتَها رأيتَ الأفنانَ كأنَّها تلقاكَ بأولادها تُحيِّيكَ وتُكرمُكَ بهم وتُقدِّمُهم إليكَ حتى كأنَّ مُناوِلاً يناوِلُكَ إيَّاهُم بيدهِ ـ ولا سيِّما قُطوفُ جنَّاتِ النَّعيمِ الدَّانيَةُ التي يتناولها المؤمنُ قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

[تذكير بالمنعم ﷻ]

وكذلكَ ترى الرَّياحينَ كأنَّها تُحيِّيكَ بأنفاسها وتُقابِلُك بطِيبِ رائحتها، وكلُّ هذا إكراماً لكَ، وعنايَةً بأمركَ، وتَخصيصاً لكَ، وتَفضيلاً على غيركَ منَ الحيواناتِ، أفَيَجْمُلُ بكَ الاشتغالُ بهذه النِّعَم عن المُنعِم بها؟ فكيفَ إذا استَعَنتَ بها على معاصيهِ وصَرَفْتَها في مساخطهِ؟ فكيفَ إذا جَحَدْتَهُ وأضفتَها إلى غيرهِ كما قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]؟

فجديرٌ بمَن لهُ مُسكةٌ من عَقلٍ أن يُسافرَ بفكرهِ في هذه النِّعَم والآلاءِ ويُكرِّرَ ذِكرَها لعلَّهُ يُوقِفهُ على المرادِ منها: ما هو؟ ولأيِّ شيءٍ خُلِقَ؟ ولماذا هُيِّئَ؟ وأيُّ أمرٍ طُلبَ منهُ على هذه النِّعَم؛ كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]؟

فَذِكْرُ آلائهِ تباركَ وتعالى ونعمهِ على عبدهِ سببُ الفلاحِ والسَّعادَةِ؛ لأنَّ ذلكَ لا يزيدُهُ إلّا مَحبَّةً للَّهِ وحمداً وشكراً وطاعَةً وشهودَ تَقصيرهِ ـ بل تَفريطهِ ـ في القليلِ ممَّا يجبُ للَّهِ عليهِ.

وللَّهِ دَرُّ القائلِ:

قَد هَيَّؤوكَ لأمرٍ لَو فَطِنتَ لهُ ... فَاربأْ بِنَفسِكَ أنْ تَرعى معَ الهَمَلِ

* * *

الفصل الثاني

النظر في تكوين النبات

[الجذور والعروق]

ثمَّ تأمَّلْ إذا نَصَبْتَ خَيمَةً أو فُسطاطاً كيفَ تُمِدُّهُ من كلِّ جانبٍ بالأطنابِ[1] ليثبتَ فلا يَسقُطَ ولا يتعوَّجَ.

فهَكذا تجدُ النَّباتَ والشجَرَ له عُروقٌ ممتدَّةٌ في الأرضِ مُنتشرَةٌ إلى كلِّ جانبٍ لِتُمْسِكَهُ وتُقيمَهُ، وكلَّما انتَشرَتْ أعاليه امتدَّت عروقُهُ وأطنابُهُ من أسفَلَ في الجهاتِ.

ولولا ذلكَ كيفَ كانَت تَثْبُتُ هذه النَّخيلُ الطِّوالُ الباسقاتُ والدَّوْحُ[2] العظامُ على الرِّياحِ العواصفِ!!

وتأمَّلْ سبْقَ الخَلْقِ الإلَهيِّ للصِّناعَةِ البَشريَّةِ؛ حتى يُعَلِّمَ النَّاسَ نَصْبَ الخِيَمِ والفساطيطِ من خَلْقِهِ للشجرِ والنَّباتِ؛ لأنَّ عُروقَها أَطْنابٌ لها كأَطْنابِ الخيمَةِ، وأغصانُ الشجرِ يُتَّخذُ منها الفساطيطُ، ثمَّ يُحاكى بها الشجَرَةُ.

[العَجَم والنوى]

ثمَّ تأمَّلْ حِكمَتَهُ سبحانهُ في إيداعِ الْعَجَمِ والنَّوى في جوفِ

(١) هي الأَوْتاد.

(٢) مفردها (دَوْحة) وهي الشجرة العظيمة

الثَّمرَةِ، وما في ذلكَ من الحِكَمِ والفوائدِ التي منها أنَّهُ كالعَظْمِ لبدنِ الحيوانِ، فهو يُمسِك بصلابَتِهِ رخاوَةَ الثَّمرَةِ ولطافتَها، ولولاَ ذلكَ لَشُدِخَت وتفسَّخَت، ولأسرَعَ إليها الفسادُ، فهو بمنزلَةِ العَظْمِ، والثَّمرَةُ بمنزلَةِ اللحمِ الذي يكسوهُ اللَّهُ ﷻ العِظامَ.

ومنها أنَّ في ذلكَ بقاءَ المادَّةِ وحفظَها؛ إذ ربَّما تعطَّلَت الشجرَةُ أو نوعُها، فخَلَقَ فيها ما يقومُ مقامَها عند تعطُّلِها، وهو النَّوى الذي يُغرَسُ فيعودُ مثلَها.

ومنها ما في تلكَ الحُبوبِ من أقواتِ الحيواناتِ وما فيها من المنافعِ والأدهانِ والأدويَةِ والأصباغِ وضُروبٍ أخَرَ من المصالحِ التي يتعلَّمها النَّاسُ، وما خفيَ عليهم منها أكثرُ.

فتأمَّل الحِكمَةَ في إخراجِه ـ سبحانهُ ـ هذه الحبوبَ لمنافعَ فيها، وكسوتَها لحماً لذيذاً شهيًّا يتفكَّهُ به ابنُ آدَمَ.

[غلاف الثمرة]

ثمَّ تأمَّلْ هذه الحكمَةَ البَديعَةَ في أنْ جَعَلَ للثَّمَرَةِ الرَّقيقَةِ اللطيفَةِ التي يُفسِدها الهواءُ والشمسُ غلافاً يحفظها وغشاءً يُواريها كالرُّمَّانِ والجَوْزِ واللَّوزِ ونحوهِ.

وأمَّا ما لا يَفسُدُ ـ إذا كانَ بارزاً ـ فجعَلَ لهُ في أوَّلِ خروجهِ غشاءً يُواريهِ لضعفهِ ولقلَّةِ صبرهِ على الحرِّ، فإذا اشتدَّ وقويَ تفتَّقَ عنه ذلكَ الغشاءُ وضحى للشمسِ والهواءِ كطَلْعِ النَّخلِ وغيرِهِ.

[الأوراق]

ثمَّ تأمَّلِ الحكمَةَ في خَلْقِ الوَرَقِ، فإنَّكَ ترى في الوَرَقَةِ

الواحدَةِ من جُملَةِ العُروقِ المُمتَدَّةِ فيها المبثوثَةِ فيها ما يَبهَرُ النَّاظرَ.

فمنها غِلاظٌ ممتدَّةٌ في الطُّولِ والعَرْضِ، ومنها دِقاقٌ تتخلَّلُ تلكَ الغِلاظَ منسوجَةً نسجاً دقيقاً مُعْجِباً لو كانَ ممَّا يتولَّى البشرُ صُنعَ مثلهِ بأيديهم لَمَا فَرَغوا من ورقَةٍ في عامٍ كاملٍ، وَلَاحْتاجُوا فيه إلى آلاتٍ وحركاتٍ وعلاجٍ تعجزُ قُدْرَتُهم عن تحصيلِهِ، فبثَّ الخلَّاقُ العليمُ في أيَّامٍ قلائلَ مِن ذٰلكَ ما يملأُ الأرضَ سهلَها وجبالَها بلا آلاتٍ ولا مُعينٍ ولا فكرةٍ ولا معالجَةٍ، إنْ هيَ إلّا إرادتُهُ النَّافِذَةُ في كلِّ شيءٍ، وقُدرتُهُ التي لا يمتنعُ منها شيءٌ؛ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فتأمَّلِ الحكمَةَ في تلكَ العروقِ المُتخلِّلَةِ الوَرَقَةَ بأسرها لتسقيَها وتُوصلَ إليها المادَّةَ فتحفَظَ عليها حياتَها ونضارتَها بمنزلَةِ العروقِ المبَثوثَةِ في الأبدانِ التي تُوصلُ الغذاءَ إلى كلِّ جزءٍ منهُ.

وتأمَّلْ ما في العُروقِ الغِلاظِ من إمساكِها الورقَ بصلابتها ومتانتها لئلّا تَتمزَّق وتضمحلَّ، فهي بمنزلَةِ الأعصابِ لبدنِ الحيوانِ، فتراها قد أُحكِمَت صَنْعَتُها، ومُدَّت العروقُ في طولها وعرضِها لتتماسَكَ، فلا يَعْرِضُ لها التَّمزُّق.

[الأوراق زينة ووقاية]

ثمَّ تأمَّلْ حِكمَةَ اللطيفِ الخبيرِ في كونها جُعِلَت زينةً للشجرِ وسِتراً ولباساً للثَّمَرَةِ ووقايَةً لها منَ الآفاتِ التي تمنعُ كمالَها، ولهذا إذا جُرِّدَت الشجرَةُ مِنْ ورقها فَسَدَت الثَّمَرَةُ ولم يُنتفع بها.

وانظر كيفَ جُعِلَت وقايَةً لِمَنْبَتِ الثَّمَرَةِ الضَّعيفَةِ من اليَبَسِ،

فإذا ذَهَبَت الثَّمَرةُ بقي الورقُ وقايَةً لتلكَ الأفنانِ الضَّعيفَةِ من الحرِّ، حتى إذا طُفئت تلكَ الجمرَةُ ولم يضرَّ الأفنانَ عُراها من ورقها وسَلَبَها إيَّاهُ لتكتَسي لباساً جديداً أحسَنَ منه، فتبارَكَ اللَّهُ ربُّ العالَمين الذي يعلمُ مَساقطَ تلكَ الأوراقِ ومنابتَها، فلا تخرجُ منها ورقةٌ إلّا بإذنِهِ، ولا تسقطُ إلّا بعلمِهِ.

[تسبح بحمد ربها]

ومع هذا فلو شاهدها العِبَادُ على كثرتها وتنوُّعِها وهي تُسبِّحُ بحمدِ ربِّها مع الثِّمارِ والأفنانِ والأشجارِ لَشاهدوا من جمالها أمراً آخَرَ، ولرأوا خِلْقَتَها بعَينٍ أخرى، ولعلموا أنَّها لِشأنٍ عظيمٍ خُلِقَتْ، وأنَّها لم تُخلَق سدًى.

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، فالنَّجمُ ما ليسَ له ساقٌ منَ النَّباتِ، والشجرُ ما لهُ ساقٌ، وكلُّها ساجدَةٌ للَّهِ مُسبِّحَةٌ بحمدِهِ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

ولعلَّكَ أن تكونَ مِمَّن غَلُظَ حِجابهُ فَذَهَبَ إلى أنَّ التَّسبيحَ دلالتُها على صانعِها فقَط! فاعلَم أنَّ هذا القولَ يظهَرُ بطلانُهُ من أكثَرِ من ثلاثينَ وجهاً قَد ذكرنا أكثرَها في موضعٍ آخَرَ.

وفي أيِّ لغةٍ تُسمَّى الدلالَةُ على الصَّانعِ تَسبيحاً وسجوداً وصلاةً وتَأويباً وهُبوطاً من خشيتِهِ كما ذكر تعالى في كتابِهِ؟! فتارَةً يُخبرُ عنها بالتَّسبيحِ، وتارَةً بالسُّجودِ، وتارَةً بالصَّلاةِ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾ [النور: ٤١].

أفترى يقبلُ عقلُك أن يكونَ معنى الآيَةِ: قَد عَلِمَ اللَّهُ دلالَتَهُ

عليهِ، وسمَّى تلكَ الدَّلالَةَ صلاةً وتَسبيحاً، وفرَّقَ بينهما وعَطَفَ أحدَهما على الآخَرِ؟!

وتارَةً يُخبرُ عنها بالتَّأويبِ كقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠].

وتارَةً يُخبرُ عنها بالتَّسبيحِ الخاصِّ بوقتٍ دونَ وقتٍ - كالعشيِّ والإشراقِ - أفترَى دلالَتها على صانعها إنَّما يكونُ في هذين الوَقتين؟

وبالجُملَةِ؛ فبطلانُ هذا القولِ أظهرُ لذوي البصائرِ من أن يَطلبوا دليلاً على بُطلانهِ، والحمدُ للَّهِ.



الفصل الثالث

النباتات مصدر الأدوية

ثمَّ تأمَّلْ أحوالَ هذه العقاقيرِ والأدويَةِ التي يُخرجُها اللَّهُ من الأرضِ وما خَصَّ به كلَّ واحدٍ منها وجَعَلَ عليهِ من العَملِ والنَّفعِ.

فهذا يغورُ في المفاصلِ فيستَخرجُ الفُضولَ الغليظَةَ القاتلَةَ لو احْتُبِسَتْ.

وهذا يَستخرجُ المِرَّةَ السَّوداءَ، وهذا يستخرجُ المِرَّةَ الصَّفراءَ.

وهذا يُحَلِّلُ الأورامَ.

وهذا يُسكِّنُ الهيجانَ والقَلَقَ.

وهذا يجلبُ النَّومَ ويُعيدهُ إذا أعوَزَهُ الإنسانُ.

وهذا يُخفِّفُ البَدنَ إذا وجَدَ الثِّقَلَ.

وهذا يُفرِّحُ القَلبَ إذا تراكمَت عليهِ الغمومُ.

وهذا يجلو البَلغَم ويكشطهُ.

وهذا يُحِدُّ من البَصَرِ.

وهذا يطيِّبُ النَّكهَةَ.

وهذا يُسكِّنُ هيجانَ الباءَةِ، وهذا يِهيِّجُها.

وهذا يُبرِّدُ الحرارَةَ ويُطفئها، وهذا يقتلُ البرودَةَ ويُهيِّجُ الحرارَةَ.

وهذا يَدفعُ ضَرَرَ غيرهِ من الأدويَةِ والأغذيَةِ.

وهذا يقاومُ كيفيَّةَ غيرهِ فيعتدلان، فيعتدلُ المزاجُ بتناولهما.

وهذا يُسكِّنُ العَطَشَ، وهذا يَصْرِفُ الرِّياحَ الغليظَةَ ويطردها.

وهذا يعطي اللونَ إشراقاً ونضارَةً.

وهذا يزيدُ في أجزاءِ البَدنِ بالسِّمَنِ، وهذا ينقصُ منها.

وهذا يدبغُ المعدَةَ، وهذا يجلوها ويغسلها...

إلى أضعافِ ذلكَ ممَّا لا يُحصيهِ العبادُ...

فسَلِ المُعطِّلَ: مَن جَعَلَ هذه المنافعَ والقوى في هذه النَّباتاتِ والحشائشِ والحبوبِ والعروقِ؟ ومَن أعطى كُلًّا منها خاصيَّتهُ؟! ومَن هَدى العبادَ - بل الحيوانَ - إلى تناوُلِ ما ينفعُ منهُ وتَركِ ما يضرُّ؟ ومَن فَطَّنَ لها النَّاسَ والحيوانَ البهيمَ؟! وبأيِّ عقلٍ وتجربَةٍ كانَ يُوقَفُ على ذلكَ ويعرفُ ما خُلقَ لهُ - كما زَعَمَ مَن قلَّ نصيبهُ منَ التَّوفيقِ - لولا إنعامُ الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هدى؟!

وهَبْ أنَّ الإنسانَ فَطَنَ لهذه الأشياءِ بذهنهِ وتجارِبهِ وفكرهِ وقياسهِ، فمَن الذي فَطَّنَ لها البهائمَ في أشياءَ كثيرَةٍ، منها ما لا يَهتَدي إليها الإنسانُ، حتى صارَ بعضُ السِّباعِ يَتداوى من جراحهِ بَبعضِ تلكَ العقاقير منَ النَّباتاتِ فيبرَأُ، فَمَنَ الذي جَعَلَهُ يقصدُ ذلكَ النَّباتَ دونَ غيرهِ؟!

وقَد ذكرَ الأطبَّاءُ في مبادئِ الطِّبِّ في كتبهم من هذا عجائبَ...

فَسَل المعطِّلَ: مَن ألهمها ذلكَ؟ ومَن أرشدها إليهِ؟ ومَن دلَّها عليهِ؟ أفيجوزُ أن يكونَ هذا من غيرِ مُدبِّرٍ عزيزٍ حكيمٍ وتقديرِ عزيزٍ عليمٍ، وتَقدير لطيفٍ خَبيرٍ بَهَرَت حِكمتُهُ العقولَ، وشهدَت لهُ الفِطَرُ بما استَودعها من تَعريفهِ بأنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو الخالقُ البارئُ المصوِّرُ الذي لا تَنْبَغي العبادَةُ إلّا لهُ؟ وأنَّهُ لو كانَ معهُ في سمواتهِ وأرضهِ إلهٌ سواهُ لَفَسَدَت السَّماواتُ والأرضُ واختلَّ نظامُ المُلكِ.

فسبحانَهُ وتعالى عمَّا يقولُ الظَّالمون والجاحدونَ عُلُوًّا كبيراً.

ولعلَّكَ أن تقولَ: ما حكمَةُ هذا النَّباتِ المبثوثِ في الصَّحاري والقِفارِ والجبالِ التي لا أَنيسَ بها ولا ساكنَ؟ وتظنُّ أنَّهُ فَضْلَةٌ لا حاجَةَ إليهِ ولا فائدَة في خلقهِ! وهذا مقدارُ عقلِكَ ونهايَةُ علمِكَ! فكَم لباريهِ وخالقهِ فيه من حكمَةٍ وآيَةٍ من طُعْمِ وَحْشٍ وطَيْرٍ ودوابَّ، مساكنُها حيثُ لا تَراها تحتَ الأرضِ وفوقها، فذلكَ بمنزلَةِ مائدَةٍ نَصَبها اللَّهُ لهذه الوحوش والطُّيورِ والدَّوابِّ تتناوَلُ منها كفايَتها ويَبقى الباقي كما يَبقى الرِّزقُ الواسعُ الفاضلُ عن الضَّيفِ لسعةِ ربِّ الطَّعامِ وغِنَاهُ التَّامِّ وكثرَةِ إنعامهِ.

❀ ❀ ❀

الفصل الرابع

النخلة

[شبه النخلة بالإنسان]

ثمَّ تأمَّل هذه النَّخْلَةَ التي هي إحدى آياتِ اللَّهِ تجدْ فيها منَ الآياتِ والعجائبِ ما يَبْهَرُكَ؛ فإنَّهُ لما قُدِّرَ أن يكونَ فيهِ إناثٌ تحتاجُ إلى اللِّقاحِ جُعِلَت فيها ذكورٌ تُلقِّحُها بمنزلَةِ ذُكورِ الحيوانِ وإناثِهِ، ولذلكَ اشتدَّ شبهُها من بينِ سائرِ الأشجارِ بالإنسانِ خصوصاً بالمؤمنِ ـ كما مثَّلهُ النَّبيُّ ﷺ[1] ـ وذلكَ من وجوهٍ كثيرةٍ:

[وجوه شبه النخلة بالمؤمن]

أحدها: ثباتُ أصلها في الأرضِ واستقرارُهُ فيها، وليست بمنزلَةِ الشجرَةِ التي ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

الثَّاني: طِيبُ ثمرتها وحلاوتُها وعمومُ المنفعَةِ بها، كذلكَ المؤمنُ طيِّبُ الكلامِ طيِّبُ العَمَلِ، وفيهِ المنفَعَةُ لنفسهِ ولغيرِهِ.

الثَّالث: دوامُ لباسها وزينتها فلا يَسقطُ عنها صَيفاً ولا شتاءً، كذلكَ المؤمنُ لا يزولُ عنهُ لباسُ التَّقوى وزينتها حتى يوافي ربَّهُ تعالى.

---

(١) رواه البخاري برقم (٦١) ومسلم (٢٨١١).

الرابع: سهولَةُ تناوُلِ ثمرتها وتيسُّرُهُ، أمَّا قَصيرُها فلا يَحتاجُ المتناوِلُ أن يَرقاها، وأمَّا باسِقُها فصعودهُ سَهلٌ بالنِّسبَةِ إلى صعودِ الشجرِ الطِّوالِ وغيرها، فتراها كأنَّها قَد هُيِّئت منها المراقي والدَّرَجُ إلى أعلاها، وكذلكَ المؤمنُ خيرُهُ سهلٌ قَريبٌ لمَن رامَ تناوُلَهُ لا بالغِرِّ ولا باللئيمِ.

الخامس: أنَّ ثمرتَها من أنفعِ ثمارِ العالَم؛ فإنَّهُ يُؤكلُ رُطَبُهُ فاكهةً وحلاوَةً، ويابسُهُ يكونُ قوتاً وأُدْماً وفاكِهَةً ويُتَّخذَ منهُ الخَلُّ والنَّاطفُ[1] والحلوى، ويدخلُ في الأدويَةِ والأشربَةِ، وعمومُ المنفعَةِ بهِ وبالعِنَبِ فوقَ كلِّ الثِّمارِ.

الوجه السَّادس من وجوه التَّشبيه: أنَّ النَّخلَةَ أصبَرُ الشجَرِ على الرِّياحِ والجَهدِ، وغيرُها من الدَّوْحِ العِظامِ تُميلها الرِّيحُ تارَةً وتقلعُها تارَةً وتَقصفُ أفنانَها، ولا صَبْرَ لكثيرٍ منها على العَطشِ كصَبرِ النَّخلَةِ، فكذلكَ المؤمنُ صَبورٌ على البلاءِ لا تُزعزعهُ الرِّياحُ.

السَّابع: أنَّ النَّخلَةَ كلَّها منفعَةٌ لا يَسقطُ منها شيءٌ بغيرِ منفعَةٍ، فتمرُها منفعةٌ، وجذعُها فيه من المنافعِ ما لا يُجهَلُ للأبنيَةِ والسُّقوفِ وغير ذلكَ، وسَعَفُها تُسقفُ به البيوتُ مكانَ القَصَبِ، ويُسترُ بهِ الفُرَجُ والخَلَلُ، وخُوصُها يُتَّخَذُ منه المكاتلُ والزَّنابيلُ، وأنواعُ الآنيَةِ، والحُصُرُ وغيرُها، ولِيفُها وَكَرَبُها[2] فيه منَ المنافعِ ما هو معلومٌ عندَ النَّاسِ.

وقَد طابَقَ بعضُ النَّاسِ هذه المنافعَ وصفاتِ المُسلمِ،

---

(١) نوع من الحلوى.

(٢) هو الأصل العريض للسعف إذا يبس.

وجَعَلَ لكلِّ منفعَةٍ منها صفَةً في المُسلم تقابلها، فلمّا جاءَ إلى الشوكِ الذي في النَّخلَةِ جَعَلَ بإزائهِ من المسلم صِفَةَ الحِدَّةِ على أعداءِ اللَّهِ وأهلِ الفُجورِ، فيكونُ عليهم في الشَدَّةِ والغِلظَةِ بمنزلَةِ الشوكِ، وللمؤمنينَ والمتَّقينَ بمنزلَةِ الرُّطَبِ حلاوَةً ولِيناً ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

الثَّامن: أنَّها كُلَّما طالَ عمرُها ازدادَ خيرُها وجادَ ثمرُها، وكذلكَ المؤمنُ إذا طالَ عمرهُ ازدادَ خَيرُهُ وحَسُنَ عملُهُ.

التَّاسع: أَنَّ قَلْبَها من أطيَبِ القلوبِ وأحلاه، وهذا أمرٌ خُصَّت به دونَ سائرِ الشجرِ، وكذلكَ قلبُ المؤمنِ من أطيَبِ القلوب.

العاشر: أنَّها لا يتعطَّلُ نفعُها بالكليَّةِ أبداً، بل إنْ تَعطلَّت منها منفَعَةٌ ففيها منافعُ أُخَرُ حتى لو تَعَطَّلَت ثمارُها سنةً لكانَ للنَّاسِ في سَعَفها وخُوصها وليفها وكَرَبها منافعُ وآرابٌ، وهكذا المؤمنُ لا يَخلو عن شيءٍ من خصالِ الخَيرِ قَط، بل إنْ أجدَبَ منهُ جانبٌ منَ الخيرِ أخصَبَ منهُ جانبٌ، فلا يزالُ خَيرُهُ مأمولاً وشرُّهُ مأموناً.

في «التِّرمذي»[١] مرفوعاً إلى النَّبيِّ ﷺ: (خَيرُكُم مَن يُرجى خَيرُهُ ويُؤمَنُ شرُّهُ، وشرُّكُم مَن لا يُرجى خَيرُهُ ولا يُؤمَنُ شرَّهُ).

[أيهما أنفع النخل أم العنب؟]

وقد اختلفَ النَّاسُ في أيهما أنفعُ وأفضلُ؟ وصنَّفَ الجاحظُ في المحاكمَةِ بينهما مُجلَّداً، فأطالَ فيه الحِجاجَ والتَّفضيلَ من الجانبين.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٢٦٣).

وفَصْلُ النِّزاعِ في ذلكَ أنَّ النَّخلَ في معدنِهِ ومحلِّ سلطانِهِ أفضلُ من العِنَبِ وأعمُّ نفعاً وأجدى على أهلِهِ كالمدينَةِ والحجازِ والعراقِ، والعِنَبُ في مَعْدِنِهِ ومحلِّ سلطانِهِ أفضلُ وأعمُّ نفعاً وأجدى على أهلِهِ كالشامِ والجبالِ والمواضعِ البارِدَةِ التي لا تقبلُ النَّخيلَ.

وحَضَرْتُ مرَّةً في مجلسٍ بمكَّةَ فيهِ من أكابرِ البَلدِ، فجرَت هذه المسألَةُ وأخذَ بعضُ الجماعَةِ الحاضرينَ يُطنِبُ في تفضيلِ النَّخلِ وفوائدِهِ، وقال في أثناءِ كلامِهِ: ويكفي في تفضيلِهِ أنَّا نَشتَري بنواه العِنَبَ فكيفَ يُفضَّلُ عليهِ ثمرٌ يكونُ نواهُ ثمناً لهُ؟! وقالَ آخرُ منَ الجماعَةِ: قَد فَصَلَ النَّبيُّ ﷺ النِّزاعَ في هذه المسألَةَ وشفى فيها بنَهيِهِ عن تسميَةِ شجرِ العنبِ كَرْماً وقال: (الكَرْمُ قلبُ المؤمنِ)[1]، فأيُّ دليلٍ أبينُ من هذا؟ وأخذوا يُبالغونَ في تقريرِ ذلك.

فقلتُ للأوَّلِ: ما ذكرتَهُ من كونِ نوى التَّمر ثمناً للعنبِ فليسَ بدليلٍ؛ فإنَّ هذا لهُ أسبابٌ:

أحدها: حاجتكُم إلى النّوى لِلْعَلَفِ، فيرغبُ صاحبُ العنبِ فيهِ لِعَلَفِ ناضحِهِ وحمولتِهِ.

الثَّاني: أنَّ نوى العنبِ لا فائدَةَ فيهِ ولا يجتمعُ.

الثَّالثُ: أنَّ الأعنابَ عندكُم قليلَةٌ جدًّا، والتَّمْرَ أكثرُ شيءٍ عندكُم فيكثُرُ نواهُ فيُشترى به الشيءُ اليَسيرُ من العنبِ، وأمَّا في بلادٍ فيها سلطانُ العنبِ فلا يُشترى بالنَّوى منه شيءٌ ولا قيمَةَ لنوى التَّمرِ فيها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٨٣) ومسلم (٢٢٤٧).

وقلتُ لمَن احتجَّ بالحديثِ: هذا الحديثُ من حُجَجِ فضلِ العنبِ؛ لأنَّهُم كانوا يُسمُّونَهُ شجرَةَ الكرْمِ؛ لكثرَةِ منافعهِ وخَيرهِ، فإنَّهُ يُؤكل رطباً ويابساً وحُلواً وحامضاً، وتُجْنىٰ منهُ أنواعُ الأشربَةِ والحلوى والدِّبْس وغير ذلكَ، فسمَّوهُ كَرْماً لكثرَةِ خيرهِ، فأخبرهم النَّبيُّ ﷺ أنَّ قلبَ المؤمنِ أحقُّ منهُ بهذه التَّسميَةِ؛ لكثرَةِ ما أودعَ اللَّهُ فيهِ من الخَيرِ والبِرِّ والرَّحمَةِ واللِّينِ والعَدلِ والإحسانِ والنُّصحِ وسائرِ أنواعِ البرِّ والخيرِ التي وَضعها اللَّهُ في قلبِ المؤمنِ، فهو أحقُّ بأنَ يُسمَّى كَرْماً من شجرِ العنبِ.

ولم يُردِ النَّبيُّ ﷺ إبطالَ ما في شجرِ العنبِ منَ المنافعِ والفوائدِ، وأنَّ تسميتَهُ كَرْماً كذبٌ وأنَّها لفظَةٌ لا مَعنى تحتهاَ كتسميَةِ الجاهلِ عالِماً والفاجرِ بَرًّا والبخيلِ سخيًّا، أَلَا ترى أَنَّهُ لم يَنْفِ فوائدَ شجرِ العنَبِ، وإنَّما أخبَرَ أنَّ قلبَ المؤمنِ أغزَرُ فوائدَ وأعظَمُ منافعَ منها.

هذا الكلامُ أو قريبٌ منه جَرى في ذلكَ المجلسِ.

وأنتَ إذا تدبَّرْتَ قولَ النَّبيِّ ﷺ: (الكَرْمُ قلبُ المؤمن) وجَدتَهُ مطابقاً لقولهِ في النَّخْلَةِ: (مَثَلُها مثلُ المُسلم)؛ فشبَّهَ النَّخلَةَ بالمُسلم في حَديثِ ابن عُمَر، وشبَّهَ المُسلمَ بالكَرْمِ في الحديثِ الآخَرِ، ونهاهُم أن يخُصُّوا شجَرَ العنبِ باسمِ الكَرْمِ دونَ قلبِ المؤمنِ.

وقد قالَ بعضُ النَّاسِ في هذا مَعنىً آخرَ؛ وهو أنَّهُ نهاهُم عن تسميَةِ شجرِ العنبِ كَرْماً لأنَّهُ يُقتنى منهُ أُمُّ الخبائث[1] فَيُكرهُ أن يُسمَّى باسمٍ يُرغِّبُ فيها ويحُضُّهُم عليها؛ من بابِ سدِّ الذَّرائعِ

(١) أي الخمر.

في الألفاظِ، وهذا لا بأسَ به لولا أن قولَهُ: (فإنَّ الكَرْمَ قلبُ المؤمن) كالتَّعليلِ لهذا النَّهي والإشارَةِ إلى أنَّهُ أولى بهذه التَّسميَةِ من شجرِ العنبِ، ورسولُ اللَّهِ ﷺ أعلمُ بما أرادَ من كلامِهِ، فالذي قَصَدهُ هو الحقُّ.

وبالجُملَةِ؛ فاللَّهُ سبحانهُ عدَّدَ على عبادهِ من نعمهِ عليهم ثمراتِ النَّخيلِ والأعنابِ، فساقَها فيما عدَّدهُ عليهم من نعمهِ.

والمعنى الأوَّلُ أظهرُ منَ المعنى الآخَرِ إن شاءَ اللَّهُ؛ فإنَّ أُمَّ الخبائثِ تُتَّخذُ من كلِّ ثَمَرٍ كالنَّخيلِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧].

وقال أَنَسٌ: نَزَلَ تحريمُ الخَمرِ وما بالمَدينَةِ من شرابِ الأعنابِ شيءٌ، وإنَّما كانَ شرابُ القومِ الفضيخَ المُتَّخذَ من التَّمرِ[١]، فلو كانَ نهيُهُ ﷺ عن تسميَةِ شجرِ العنبِ كَرْماً لأجلِ المُسكرِ لم يُشبِّه النَّخلَةَ بالمؤمنِ؛ لأنَّ المُسكرَ يُتَّخذِ منها، واللَّهُ أعلم

[النظر في بناء النخلة]

فهذا فَصلٌ مُعتَرِضٌ[٢] ذكرناهُ استطراداً للحكمَةِ في خَلقِ النَّخْلَةِ وهيئتها، فَلْنَرْجِع إليهِ.

فتأمَّلْ خِلْقَةَ الجذع الذي لها كيفَ هو؟ تجدُهُ كالمنسوجِ من خيوطٍ ممدودَةٍ كالسَّدى[٣]، وأُخرى مُعترِضَةً كاللُّحمَةِ[٤]، كَنحوِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٤) ومسلم (١٩٨٠).

(٢) المراد ما سبق في هذا الفصل.

(٣) هو ما يمد طولاً من خيوط النسيج.

(٤) هو ما يمد عرضاً من خيوط النسيج.

المنسوجِ باليَدِ، وذلكَ لِتَشْتَدَّ وتَصْلُبَ فلا تَنْقَصِفَ من حملِ القِنْوَانِ الثقيلةِ، وتَصبرَ على هزِّ الرِّياحِ العاصفَةِ، ولُبثها في السُّقوفِ والجسورِ والأواني وغير ذلكَ ممَّا يُتَّخذُ منها، وهكذا سائرُ الخشبِ وغيرها إذا تأمَّلْتهُ شبهَ النَّسجِ، ولا تراهُ مُصْمَتاً[1] كالحجرِ الصَّلْد، بل ترى بعضَهُ كأنَّهُ تَدَاخَلَ بعضاً طولاً وعَرْضاً كتداخُلِ أجزاءِ اللُّحَمِ بعضِها في بَعضٍ، فإنَّ ذلكَ أمتَنُ له وأهيأُ لما يُرادُ منه، فإنَّهُ لوَ كانَ مُصْمَتاً كالحجارَةِ لم يُمْكن أن يُستعمل في الآلاتِ والأبوابِ والأواني والأمتعَةِ والأَسِرَّةِ والتَّوابيتِ وما يُشبِهُها.

[حكمة طفو الخشب على الماء]

ومن بديع الحكمَةِ في الخَشَبِ أن جُعلَ يَطفو على الماءِ، وذلكَ للحكمَةِ البالغَةِ، إذ لولا ذلكَ لَمَا كانَت هذه السُّفُنُ تحملُ أمثالَ الجبالِ من الحُمولاتِ والأمتعَةِ وتَمْخُرُ البَحرَ مُقبِلَةً ومُدبرَةً، ولولا ذلكَ لَمَا تهيَّأَ للنَّاسِ هذه المرافقُ لحملِ هذه التِّجاراتِ العظيمَةِ والأمتعَةِ الكثيرةِ ونَقْلِها من بلدٍ إلى بلدٍ بحيثُ لو نُقلَت في البَرِّ لعظُمَت المؤُنَةُ في نَقلها وتَعذَّرَ على النَّاسِ كثيرٌ من مصالحهم.



(١) هو الجامد الذي لا جوف له.

الفصل الخامس

الرمّان

ثمَّ تأمَّلْ خِلقَةَ الرُّمَّانِ وماذا فيهِ من الحِكَمُ والعجائبِ؛ فإنَّكَ ترى داخلَ الرُّمَّانَةِ كأمثالِ التلال شحماً مُتراكماً في نواحيها، وتَرى ذلكَ الحَبَّ فيها مرصوفاً رصفاً ومنضوداً نَضْداً لا تُمكنُ الأيدي أن تُنضِّدَهُ، وترى الحَبَّ مقسوماً أقساماً وفِرَقاً، وكلَّ قسمٍ وفرقَةٍ منهُ ملفوفاً بلفائفَ وحُجُبٍ منسوجَةً أعجَبَ نَسجٍ وألطَفَهُ وأدقَّهُ على غيرِ منوالٍ إلّا منوالَ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، ثمَّ ترى الوعاءَ المُحكَمَ الصُّلبَ قَد اشتَمَلَ على ذلك كلِّهِ وضمَّهُ أحسَنَ ضمٍّ.

فتأمَّلْ هذه الحِكمَةَ البَديعَةَ في الشحمِ المُودَعِ فيها؛ فإنَّ الحَبَّ لا يَمُدُّ بعضَهُ بعَضاً، إذ لو مدَّ بعضُهُ بَعضاً لاختَلَطَ وصارَ حبَّةً واحدَةً فَجُعِلَ ذلكَ الشحمُ خلالَهُ ليمدَّهُ بالغذاءِ.

والدَّليلُ عليهِ أنَّكَ تَرى أُصولَ الحَبِّ مركوزَةً في ذلكَ الشحمِ، وهذا بخلافِ حبِّ العنبِ فإنَّهُ استغنى عن ذلكَ بأنْ جَعَلَ لكلِّ حبَّةٍ مجرًى تشربُ منه، فلا تَشربُ حقَّ أختها، بل يجري الغذاءُ في ذلك العِرْقِ مجرًى واحداً ثمَّ ينقسمُ منهُ في مجاري الحُبوبِ كلِّها فينبعثُ منهُ في كلِّ مجرًى غذاءُ تلكَ الحبَّةِ، فتبارَكَ اللَّهُ أحسَنُ الخالقين.

ثمَّ إنَّهُ لفَّ ذلكَ الحَبَّ في تلكَ الرُّمَّانَةِ بتلكَ اللفائفِ

ليضمَّهُ ويُمسِكَهُ فلا يَضطربَ ولا يتبدَّدَ، ثمَّ غَشَّىٰ فوقَ ذلكَ بالغشاءِ الصُّلبِ صوناً له وحفظاً ومُمسكاً لهُ بإذنِ اللَّهِ وقدرتهِ.

فهذا قليلٌ من كثير من حكمَةِ هذه الثَّمَرَةِ الواحدَةِ ولا يُمكنُنا ـ ولا غيرنا ـ استقصاء ذلكَ ولو طالَت الأيَّامُ واتَّسَعَ الفكرُ، ولكنَّ هذا مُنَبِّهٌ على ما وراءَهُ، واللبيبُ يكتفي ببعضِ ذلكَ.

وأمَّا من غَلَبَت عليهِ الشقاوَةُ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، غافلاً[١] عن موضعِ الدَّلالَةِ فيها.



(١) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: فهو غافل.

الفصل السادس

البر والشعير

ثمَّ تأمَّل الحِكْمَةَ في كثرة الحبوبِ كالبُرِّ والشعيرِ ونحوِهما؛ كيفَ يخرجُ الحبُّ مُدَوّياً[1] في قشورٍ على رُؤوسها أمثالُ الأسنَّةِ، فلا يتمكَّنُ جندُ الطَّيرِ من إفسادها والعَبَثِ فيها؛ فإنَّهُ لو صادَفَ الحَبَّ بارزاً لا صِوانَ عليهِ ولا وقايَةَ تحُولُ دونهُ لَتمكَّنَ منهُ كُلَّ التَّمكُّنِ فأفْسَدَ وعابَ وعاثَ وأكبَّ عليهِ أكلاً ما استطاعَ وعجزَ أربابُ الزَّرعِ عن ردِّهِ، فجعَلَ اللطيفُ الخبيرُ عليهِ هذه الوقاياتِ لتصونَهُ فينالَ الطَّيرُ منهُ مقدارَ قُوتِهِ ويبقى أكثرُهُ للإنسانِ؛ فإنَّهُ أولى به لأنَّهُ هو الذي كدَحَ فيهِ وشَقيَ بهِ وكانَ الذي يحتاجُ إليهِ أضعافُ حاجَةِ الطَّيرِ.

ثمَّ تأمَّلْ هذا الرَّيْعَ والنَّماءَ الذي وضَعَهُ اللَّهُ في الزَّرعِ حتى صارَت الحَبَّةُ الواحدَةُ ربَّما أنبتَت سَبْعَ مئةِ حبَّةٍ، ولو أنبتَت الحبَّةُ حبَّةً واحدةً مثلَها لا يكونُ في الأرضِ متَّسعٌ لما يَرِدُ في الغلَّةِ من الحَبِّ وما يكفي النَّاسَ ويقوتُ الزَّارعَ إلى إدراكِ زرعهِ، فصارَ الزَرعُ يريعُ[2] بهذا الرَّيْعِ لِيَفي بما يحتاجُ إليهِ للقوتِ والزِّراعَةِ، وكذلكَ ثمارُ الأشجارِ والنَّخيلِ، وكذلكَ ما يخرجُ مع الأصلِ الواحدِ منها من الصِّنوانِ ليكونَ لما يقطعهُ

---

(١) أي مغطى.

(٢) يريع: الريع: النماء والزيادة.

النَّاسُ ويستعملونَهُ في مآربهم خَلَفاً، فلا تبطُلُ المادَّةُ عليهم ولا تَنْقُصُ.

ولو أنَّ صاحبَ بلدٍ من البلادِ أرادَ عِمارَتَهُ لأعطى أهلَهُ ما يبذُرونهُ فيهم وما يُقيتهُم إلى استواءِ الزَّرع، فاقتَضَت حكمَةُ اللطيفِ الخبيرِ أنْ أخرَجَ منَ الحبَّةِ الواحدَةِ حبَّاتٍ عديدَةً لِيُقيتَ الخارجُ النَّاسَ ويدَّخِرونَ منهُ ما يزرعونَ.

* * *

الفصل السابع

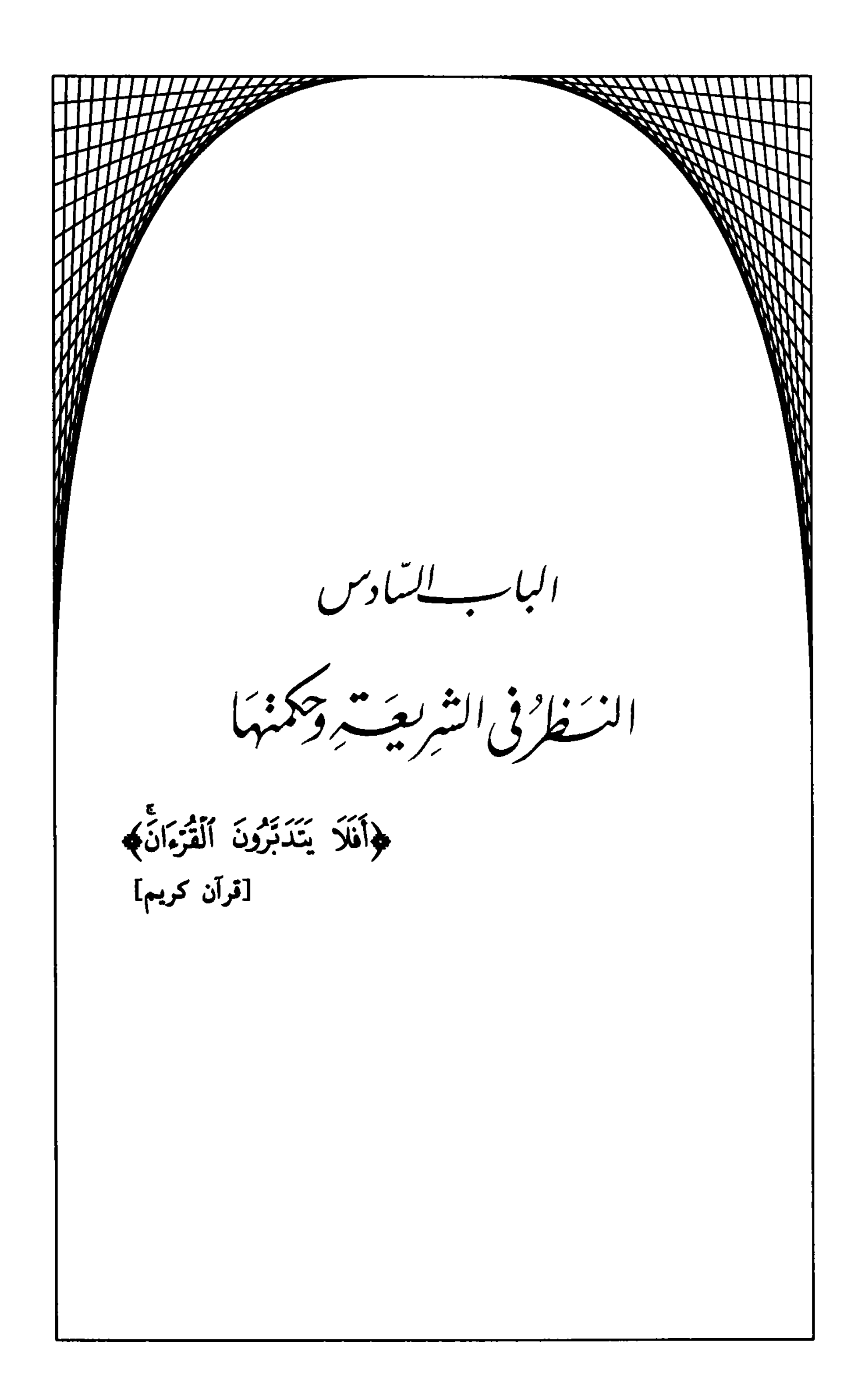
اليقطين والبطيخ

ثمَّ تأمَّل الحكمَةَ في شجرَةِ اليَقْطينِ والبطِّيخِ والجَزَرِ، كيفَ لمّا اقتَضَت الحمكَةُ أن يكونَ حملُهُ ثماراً كباراً جُعِلَ نباتُهُ مُنبسِطاً على الأرضِ، إذ لو انْتَصَبَ قائماً كما ينتصبُ الزَّرعُ لضعُفَت قوَّتُهُ عن حملِ هذه الثِّمارِ الثَّقيلَةِ ولنُفِضَتْ قبلَ إدراكها وانتهائها إلى غاياتها فاقتَضَتْ حِكمَةُ مُبدعِها وخالقِها أنْ بَسَطَهُ ومدَّهُ على الأرضِ لِيُلقي عليها ثمارَهُ فتحملَها عنهُ الأرضُ، فترى العِرْقَ الضَّعيفَ الدَّقيقَ من ذلكَ مُنبسطاً على الأرضِ وثمارَهُ مبثوثَةً حواليهِ كأنَّها حيوانٌ قد اكتنفها جِراؤها[1] فهي تُرضِعُهم.

ولمّا كانَ شجرُ اللُّوبيا والباذنجانِ والباقِلّاءِ وغيرها ممَّا يقوى على حملِ ثمرتهِ أنبتهُ اللَّهُ منتصباً قائماً على ساقهِ؛ إذ لا يَلْقى من حَمْلِ ثمارهِ مُؤنَةً ولا يَضعُفُ عنها.



(١) مفردها: جرو، وهو ولد الكلب والسبع.



الباب السادس

النظر في الشريعة وحكمتها

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾

[قرآن كريم]



الفصل الأول

حكمته تعالى في الدين الذي ارتضاه

[الحكمة في هذا الدين]

وإذا تأمَّلتَ الحِكْمَةَ الباهرَةَ في هذا الدِّينِ القَويم، والملَّةِ الحنيفيَّةِ، والشريعَةِ المُحمَّديَّةِ، التي لا تَنالُ العِبارةُ كمالَها، ولا يُدْرِكُ الوَصفُ حُسنْها، ولا تَقترحُ عُقولُ العُقَلاءِ ـ ولو اجتَمَعَت وكانَتْ على أكملِ عَقلِ رجلٍ منهم ـ فَوقَها، وحَسْبُ العقولِ الكاملَةِ الفاضِلَةِ أنْ أدرَكَتْ حُسْنَها، وشَهِدَتْ بفَضلِها، وأنَّهُ ما طَرَقَ العالَمَ شريعَةٌ أكمَلُ ولا أجلُّ ولا أعظَمُ منها.

فهي نفسُها الشاهدُ والمَشهودُ لهُ، والحُجَّةُ والمُحتَجُّ لهُ، والدَّعوى والبُرهانُ، ولو لم يأْتِ الرَّسولُ ببُرهانٍ عَليها لَكفى بها بُرهاناً وآيَةً وشاهداً على أنَّها من عندِ اللَّهِ.

وكلُّها شاهدَةٌ لهُ بكمالِ العلم، وكمالِ الحكمَةِ، وسَعَةِ الرَّحمَةِ والبرِّ والإحسانِ، والإحاطَةِ بالغَيبِ والشهادَةِ، والعلم بالمبادئِ والعواقبِ، وأنَّها من أعظَمِ نِعَمِ اللَّهِ التي أنْعَمَ بها على عبادِهِ.

فما أنعَمَ عليهم بنعمَةٍ أجلَّ مِنْ أنْ هداهم لها؛ وجَعَلَهُم من أهلِها، وممَّن ارْتَضاها لهم وارْتَضاهم لها، فلهذا امتنَّ على عبادِهِ بأنْ هداهم لها؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال مُعرِّفاً لعبادِهِ ومُذَكِّراً لهم عَظيمَ نعمَتِهِ عليهم مُستَدعياً منهم شُكْرَهُم على أنْ جعَلَهم مِن أهلها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وتأمَّلْ كيفَ وَصَفَ الدِّينَ الذي اختارَهُ لهم بالكمالِ، والنِّعمَة التي أسبَغها عليهم بالتَّمامِ، إيذاناً في الدِّينِ بأنَّهُ لا نَقْصَ ولا عَيبَ ولا خَلَلَ ولا شيءَ خارجاً عن الحكمَةِ بوجهٍ، بل هو الكاملُ في حُسْنهِ وجلالتِهِ، ووَصَفَ النِّعمَةَ بالتَّمامِ إيذاناً بدوامها واتِّصالها، وأنَّهُ لا يَسلُبُهم إيَّاها بعد إذ أعطاهموها، بل يُتِمُّها لهم بالدَّوامِ في هذه الدَّارِ، وفي دارِ القَرارِ.

وتأمَّلْ حُسْنَ اقترانِ التَّمام بالنِّعمَةِ، وحُسنَ اقترانِ الكمالِ بالدِّينِ، وإضافَةَ الدِّينِ إليهم إذْ هُم القائمونَ به المقيمونَ لهُ، وإضافَةَ النِّعمَةِ إليهِ إذْ هو وليُّها ومُسْدِيها والمُنعِمُ بها عليهم، فهي نِعمتُهُ حقًّا وهم قابلوها.

وأتى في الكمالِ باللامِ المُؤذِنَةِ بالاختصاصِ، وأنَّهُ شيءٌ خُصُّوا به دونَ الأُمَمِ.

وفي إتمام النِّعمَةِ بـ(على) المُؤْذِنَةِ بالاستعلاءِ والاشتمالِ والإحاطَةِ.

فجاءَ ﴿أَتْمَمْتَ﴾ في مُقابلَةِ ﴿أَكْمَلْتُ﴾.

و﴿عَلَيْكُمْ﴾ في مُقابَلَةِ ﴿لَكُمْ﴾.

و﴿نِعْمَتِى﴾ في مُقابلة ﴿دِينَكُمْ﴾.

وأكَّدَ ذلكَ وزادَهُ تَقريراً وكمالاً وإتماماً للنِّعمَةِ بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

وكانَ بعَضُ السَّلفِ يقولُ: يا لهُ من دينٍ، لو أنَّ لهُ رجالاً!

[الحكمة العامة دليل على الحكمة الخاصة]

قَد شهدَتِ الفِطَرُ والعُقولُ بأنَّ للعالم ربًّا قادراً حكيماً عليماً رحيماً، كاملاً في ذاتهِ وصفاتهِ، لا يكونُ إلّا مُريداً للخَيرِ لعبادهِ، مُجْرِياً لهم الشريعَةَ والسُّنَّةَ الفاضلَةَ العائدَةَ باستصْلاحِهم الموافقَةَ لِمَا رَكَّبَ في عُقولهم من استحسانِ الحَسَنِ واستقباحِ القبيحِ، وما جَبَلَ طباعَهُم عليهِ من إيثارِ النَّافعِ لهم المُصْلِحِ لشأنهم، وتَرْكِ الضَّارِّ المُفْسِدِ لهم.

وشَهِدَت هذه الشريعَةُ لهُ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ، وأرحمُ الرَّاحمينَ، وأنَّهُ المُحيطُ بكلِّ شيءٍ علماً.

وإذا عُرفَ ذلكَ فليسَ منَ الحِكمَةِ الإلٰهيَّةِ - بل ولا الحِكمَةِ في مُلوكِ العالم - أنَّهُم يُسَوُّونَ بينَ مَن هو تَحتَ تَدبيرِهم في تَعريفِهم كلَّ ما يعرفُهُ الملوكُ، وإِعْلامِهِم جميعَ ما يعلمونهُ، وإِطْلاعِهم على كلِّ ما يُجْرونَ عليهِ سياساتِهِم في أنفسِهم وفي منازلهم، حتى لا يُقيموا في بلدٍ فيها إلّا أخبَروا مَنْ تَحتَ أيديهم بالسَّببِ في ذلكَ، والمَعنى الذي قصدوهُ منهُ، ولا يأمرونَ رعيَّتَهُم بأمرٍ، ولا يَضربونَ عليهم بَعْثاً، ولا يسوسونهم سيايَةً إلّا أخبَروهم بوجهِ ذلكَ وسببهِ وغايتهِ ومُدَّتهِ، بل لا تتصرَّف بهم الأحوالُ في مطاعمِهم وملابِسِهِم ومراكبِهِم إلّا وَقَفُوهُم على أغراضِهم فيهِ!!

ولا شكَّ أنَّ هذا مُنافٍ للحكمَةِ والمَصلَحَةِ بينَ المَخلوقينَ، فكيفَ بشأنِ ربِّ العالَمينَ وأحكم الحاكمينَ، الذي لا يُشارِكُهُ في علمهِ ولا حِكمتهِ أحدٌ أبداً، فَحَسْبُ العقولِ الكاملَةِ أن تَستدِلَّ بما عرَفَت من حِكمتهِ على ماغابَ عنها.

واعْلَمْ أنَّ لهُ حِكمَةً في كلِّ ما خَلَقَهُ وأمَرَ به وشَرَعَهُ، وهل

تَقتَضي الحِكمَةُ أنْ يُخْبِرَ اللَّهُ تعالى كلَّ عبدٍ من عبادِه بِكلِّ ما يفعلُهُ، ويُوقِفَهم على وجهِ تَدبيرهِ في كلِّ ما يُريدهُ وعلى حكمتهِ في صَغيرِ ما ذَرَأَ وبَرَأَ من خليقتهِ؟ وهل في قوى المخلوقاتِ ذلكَ؟! بل طَوى سبحانُه كثيراً من صُنعهِ وأمرهِ عن جميعِ خَلْقهِ فلم يُطْلِع على ذلكَ مَلكاً مُقرَّباً ولا نبيًّا مُرسَلاً.

والمُدبِّرُ الحكيمُ مِنَ البَشرِ إذا ثَبَتَتْ حِكْمتهُ وابتغاؤهُ الصَّلاحَ لِمَن تَحتَ تَدبيرهِ وسياستهِ كُفِيَ في ذلكَ تتبّعَ مقاصدِهِ فيمَن يُوَلِّي ويَعزلُ، وفي جنس ما يأمرُ بهِ ويَنهى عنهُ، وفي تَدبيرهِ لرعيَّتهِ وسياستهِ لهم دونَ تفاصيلِ كُلِّ فعلٍ من أفعالهِ، اللهمَّ إلّا أن يبلُغَ الأمرُ في ذلكَ مبلَغاً لا يوجَدُ لفعلِه مَنْفَذٌ ومَساغٌ في المصلَحَةِ أصلاً! فحينئذٍ يخرُجُ بذلكَ عن استحقاقِ اسمِ الحكيم!

ولن يَجِدَ أحدٌ في خلْقِ اللَّهِ ولا في أمرهِ واحداً من هذا الضَّرْبِ، بل غايَةُ ما تُخرِجُهُ نَفسُ المُتعنِّتِ أمورٌ يعجَزُ العَقلُ عن معرفَةِ وجوهها وحِكمتها! وأمَّا أنْ يَنفي ذلكَ عنها فَمَعاذَ اللَّهِ؛ إلّا أن يكونَ ما أخرجَهُ كَذِباً على الخَلْقِ والأمرِ فلم يَخْلُقِ اللَّهُ ذلكَ ولا شَرَعَهُ.

وإذا عُرِفَ هذا فَقَد عُلِمَ أَنَّ ربَّ العالمين أحكَمُ الحاكمين، والعالِمُ بكلِّ شيءٍ، والغنيُّ عن كلِّ شيءٍ، والقادرُ على كلِّ شيءٍ، وَمَنْ هذا شأنُهُ لم تخرُج أفعالُهُ وأوامرُهُ قطُّ عن الحكمَةِ والرَّحمَةِ والمَصلَحَةِ، وما يَخفى على العبادِ من معاني حكمتهِ في صُنعهِ وإبداعه وأمرهِ وشرعهِ فيكفيهم فيه معرفتُهُ بالوَجهِ العامِّ أنْ تَضمَّنَتْهُ حِكْمَةٌ بالغَةٌ، وإن لم يَعرفوا تفصيلَها، وأنَّ ذلكَ من علمِ الغَيبِ الذي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ به، فيكفيهم في ذلكَ الإسنادُ إلى الحكمَةِ البالغَةِ العامَّةِ الشاملَةِ التي عَلِموا ما خفيَ منها بما ظَهَرَ لهم.

هذا وإنَّ اللَّهَ ﷻ بَنى أُمورَ عبادِهِ على أن عرَّفَهم معانيَ جلائلِ خَلقهِ وأمرهِ دونَ دقائِقهما وتفاصيلِهما، وهذا مُطَّرِدٌ في الأشياءِ أُصولِها وفروعِها؛ فأنتَ إذا رأيتَ الرَّجلَينِ ـ مثلاً ـ أحدهما أكثرُ شَعْراً من الآخر، أو أشدُّ بياضاً، أو أحَدُّ ذِهْناً لأمكنَكَ أن تَعرِفَ ـ من جهَةِ السَّببِ الذي أجرى اللَّهُ عليهِ سُنَّةَ الخَلِيقةِ ـ وَجهَ اختصاصِ كلٍّ واحدٍ منهما بما اختُصَّ بهِ.

وهكذا في اختلافِ الصُّوَرِ والأشكالِ، ولكنْ لو أرَدتَ أن تَعرفَ المعنى الذي كانَ شعرُ هذا مَثَلاً يزيدُ على شعرِ الآخَرِ بعَددٍ معيَّنٍ، أو المعنى الذي فَضَّلهُ اللَّهُ به في القَدْرِ المَخصوصِ والتَّشكيلِ المَخصوصِ، ومعرفَةَ القَدْرِ الذي بينَهما منَ التَّفاوُتِ وسببهِ، لَمَا أمْكَنَ ذلكَ أصلاً! وقِسْ على هذا جميعَ المخلوقاتِ مِن الرِّمالِ والجبالِ والأشجارِ ومقاديرِ الكواكبِ وهيآتها.

وإذا كانَ لا سبيلَ إلى معرفَةِ هذا في الخَلْقِ ـ بل يَكفي فيهِ العلَّةُ العامَّةُ والحكمَةُ الشاملَةُ ـ فهكذا في الأمرِ يُعْلَمُ أنَّ جميعَ ما أمَرَ به مُتَضَمِّنٌ لحِكْمَةٍ بالغَةٍ، وأمَّا تفاصيلُ أسرارِ المأْموراتِ والمَنهيَّاتِ فلا سبيلَ إلى علم البَشريَّةِ، ولكنْ يُطْلِعُ اللَّهُ مَنْ شاءَ مِن خَلقهِ على ما شاءَ منهُ، فاعتصِم بهذا الأَصْلِ.

[الحاجة إلى الشريعة]

حاجَة النَّاسِ إلى الشريعَةِ ضَروريَّةٌ فوقَ حاجتهم إلى كلِّ شيءٍ، ولا نسبَةَ لحاجتِهم إلى علم الطبِّ إليها، ألَا تَرى أنَّ أكثَرَ العالم يَعيشونَ بغَيرِ طَبيبٍ، ولا يكونُ الطَّبيبُ إلَّا في بَعضِ المُدنِ الجامعَةِ، وأمَّا أهلُ البَدو كلّهُم وأهلُ الكفُورِ[1] كلُّهم ـ

(١) مفردها: كَفْر، وهو القرية الصغيرة.

وعامَّةُ بني آدمَ ـ فلا يَحتاجونَ إلى طَبيبٍ، وهم أَصَحُّ أبْداناً وأقوى طَبيعَةً مِمَّن هو مُتقيِّدٌ بالطَّبيبِ، ولعلَّ أعمارَهم مُتقاربَةٌ.

وقَد فَطَرَ اللَّهُ بني آدَمَ على تناوُلِ ما يَنفعُهم واجتنابِ ما يَضُرُّهُم، وجعَلَ لكلِّ قوم عادَةً وعُرْفاً في استِخْراجِ ما يَهْجُمُ عليهم مِنَ الأدواءِ، حتى إنَّ كثيراً من أُصولِ الطبِّ إنَّما أُخِذَت عن عوائدِ النَّاسِ وعُرْفِهم وتجارِبِهم، وأمَّا الشريعةُ فمَبناها على تَعريفِ مواقعِ رِضا اللَّهِ وسَخَطِهِ في حَرَكاتِ العبادِ الاختياريَّةِ؛ فمبناها على الوَحي المَحْضِ.

والحاجَةُ إلى الشريعة أشدُّ من الحاجة إلى التَّنفُّسِ ـ فَضْلاً عن الطَّعامِ والشرابِ ـ؛ لأنَّ غايَةَ ما يُقَدَّرُ في عَدَمِ التَّنفُّسِ والطَّعامِ والشرابِ موتُ البَدنِ وتعطُّلُ الرُّوحِ عنهُ، وأمَّا ما يُقَدَّرُ عندَ عَدمِ الشريعَةِ فَفَسادُ الرُّوحِ والقَلبِ جُملَةً، وهلاكُ الأبدِ.

وشتَّانَ بينَ هذا وهلاكِ البَدنِ بالمَوتِ، فليسَ النَّاسُ قطُّ إلى شيءٍ أحوَجَ منهم إلى مَعرفَةِ ما جاءَ بهِ الرَّسولُ ﷺ، والقيامِ بهِ، والدَّعوَةِ إليهِ، والصَّبرِ عليهِ، وجهادِ مَن خَرجَ عنهُ حتى يَرجعَ إليهِ، وليسَ للعالَمِ صلاحٌ بدونِ ذلكَ البتَّة، ولا سبيلَ إلى الوُصولِ إلى السَّعادَةِ والفَوزِ الأكبَرِ إلّا بالعُبورِ على هذا الجِسْرِ.

[حكمة إرسال الرسل بالشرائع][1]

فنعمته على عباده بإرسال رسله إليهم، وإنزال كتبه عليهم، وتعريفهم أمره ونهيه، وما يحبه ويبغضه، أعظم النعم وأجلها وأعلاها وأفضلها، بل لا نسبة لرحمتهم بالشمس والقمر والغيث

---

(١) هذه الفقرة من «شفاء العليل» من الباب (٢٣) ص٦٢٣ ـ ٦٢٧.

والنبات إلى رحمتهم بالعلم والإيمان والشرائع والحلال والحرام.

فكيف يقال: أي حكمة في ذلك، وإنما هو مجرد مشقة ونصب بغير فائدة!

فوالله إن من زعم ذلك وظنه في أحكم الحاكمين لأضل من الأنعام وأسوأ حالاً من الحمير، ونعوذ بالله من الخذلان، والجهل بالرحمن وأسمائه وصفاته.

وهل قامت مصالح الوجود إلا بالأمر والنهي، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ولولا ذلك لكان الناس بمنزلة البهائم يتهارجون في الطرقات، ويتسافدون تسافد الحيوانات، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، ولا يمتنعون من قبيح، ولا يهتدون إلى صواب.

وأنت ترى الأمكنة والأزمنة التي خفيت فيها آثار النبوة، كيف حال أهلها، وما دخل عليهم من الجهل والظلم، والكفر بالخالق، والشرك بالمخلوق، واستحسان القبائح، وفساد العقائد والأعمال، فإن الشرائع بتنزيل الحكيم العليم، أنزلها وشرعها الذي يعلم ما في ضمنها من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأسباب سعادتهم الدنيوية والأخروية، فجعلها غذاء ودواء وشفاء وعصمة وحصناً وملجأ وجُنَّة ووقاية.

وكانت بالقياس إلى مصالح الأبدان بمنزلة حكيم عالم رَكَّبَ للناس أمراً يصلح لكل مرض ولكل ألم، وجعله مع ذلك غذاء للأصحاء، فمن تغذَّى به من الأصحاء غَذَّاه، ومن تداوى به من المرضى شفاه، وشرائع الربِّ تعالى فوق ذلك وأجلُّ منه، وإنما هو تمثيل وتقريب.

فلا أحسن من أمره ونهيه وتحليله وتحريمه، أمره قوت

وغذاء وشفاء، ونهيه حمية وصيانة، فلم يأمر عباده بما أمرهم به حاجة منه إليهم ولا عبثاً، بل رحمة وإحساناً ومصلحة، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، بل حماية وصيانة عما يؤذيهم ويعود عليهم بالضرر إن تناولوه، فكيف يتوهم من له مسكة من عقل خلوها من الحكم والغايات المحمودة المطلوبة لأجلها؟

ولقد استدل كثيرٌ من العقلاء على النبوة بنفس الشريعة، واستغنوا بها عن طلب المعجزة، وهذا من أحسن الاستدلال.

فإن دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم من أكبر شواهد صدقهم، وكل من له خبرة بنوع من أنواع العلوم، إذا رأى حاذقاً قد صَنَّفَ فيه كتاباً جليلاً، عرف أنه من أهل ذلك العلم بنظره في كتابه.

وهكذا كل من له عقل وفطرة سليمة وخبرة بأقوال الرسل ودعوتهم؛ إذا نظر في هذه الشريعة، قطع قطعاً نظير القطع بالمحسوسات أن الذي جاء بهذه الشريعة رسول صادق، وأن الذي شرعها أحكم الحاكمين، ولقد شهد لها عقلاء الفلاسفة بالكمال والتمام، وأنه لم يطرق العالم ناموس أكمل منها ولا أحكم منها، هذه شهادة الأعداء[1]، وإنما نعني بذلك الشريعة

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: وشهد لها من زعم أنه من الأولياء، بأنها لم تشرع لحكمة ولا لمصلحة! وقالوا: أي حكمة في الإلزام بهذه التكاليف الشاقة المتعبة، وأي مصلحة للمكلف في ذلك؟ وأي غرض للمكلف، وما هو إلا محض المشيئة المجردة من قصد غاية أو حكمة.

ولو اسْتَحْيَا هؤلاء من العقلاء لمنعهم الحياء من تسويد القلوب=

التي أنزلها الله على رسوله، وشرعها للأمة ودعاهم إليها، لا الشريعة المبدلة، ولا المؤولة، ولا ما غلط فيه الغالطون، وتأوله المتأولون.

فإن هذين النوعين قد يشتملان على فساد وشر؛ بل الشر والفساد الواقع بين الأمة من هاتين الشريعتين، اللتين نسبتا إلى الشريعة المنزلة من عند الله عمداً أو خطأ، وإلا فالشريعة على وجهها خير محضٌ، ومصلحة من كل وجه، ورحمة وحكمة ولطف بالمكلفين، وقيام مصالحهم بها فوق قيام مصالح أبدانهم بالطعام والشراب، فهي مكملة للفطر والعقول، مرشدة إلى ما يحبه الله ويرضاه، ناهية عما يبغضه ويسخطه، مستعملة لكل قوة وعضو وحركة في كماله الذي لا كمال له سواه، آمرة بمكارم الأخلاق ومعاليها، ناهية عن دنيئها وسفسافها.

واختصار ذلك: أنه شرع استعمال كل قوة وكل عضو وكل حركة في كمالها، ولا سبيل إلى معرفة كمالها على الحقيقة إلا بالوحي، فكانت الشرائع ضرورية في مصالح الخلق، وضرورتهم

= والأوراق بمثل ذلك! وهل تركت الشريعة خيراً ومصلحة إلا جاءت به، وأمرت به وندبت إليه، وهل تركت شراً ومفسدة إلا نهت عنه، وهل تركت لمقترح اقتراحاً، أو لمتعنت تعنتاً، أو لسائل مطلباً ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].
وعند نفاة الحكَم أنه يجوز عليه ضد ذلك الحكم من كل وجه، وأنه لا فرق بينه وبين ضده في نفس الأمر، إلا بمجرد الحكم والمشيئة، فلو اجتمعت حكمة جميع الحكماء من أول الدهر إلى آخره، ثم قيست إلى حكمة هذه الشريعة الكاملة الحكيمة الفاضلة، لكانت كقطرة من بحر.

إليها فوق كل ضرورة تقدر، فهي أسباب موصلة إلى سعادة الدارين، ورأس الأسباب الموصلة إلى حفظ صحة البدن وقوته، واستفراغ أخلاطه، ومن لم يتصور الشريعة على هذه الصورة، فهو من أبعد الناس عنها.

وقد جعل الحكيم العليم لكل قوة من القوى، ولكل حاسة من الحواس، ولكل عضو من الأعضاء، كمالاً حسياً وكمالاً معنوياً، وفقد كماله المعنوي شر من فقد كماله الحسي، فكماله المعنوي بمنزلة الروح، والحسي بمنزلة الجسم، فأعطاه كماله الحسي خلقاً وقدراً، وأعطاه كماله المعنوي شرعاً وأمراً، فبلغ بذلك غاية السعادة والانتفاع بنفسه، فلم يدع للإحسان إليه والاعتناء بمصالحه، وإرشاده إليها وإعانته على تحصيلها اقتراحاً يقترحه، ولا شيئاً يطلبه، بل أعطاه من ذلك ما لم يصل إليه اقتراحه ولا تدركه معرفته.

[الحكمة في تتابع الرسل وانفراد خاتم النبيين][1]

وتأمَّلْ حِكمتَهُ تبارَكَ وتعالى في إرْسالِ الرُّسلِ في الأمَمِ واحداً بَعدَ واحدٍ، كلَّما ماتَ واحدٌ خَلَفَهُ آخَرُ؛ لحاجتِها إلى تَتابُعِ الرُّسلِ والأنبياءِ لضَعفٍ في عقولها وعَدمِ اكتفائها بآثارِ شريعَةِ الرَّسولِ السَّابقِ.

فلمَّا انتَهَت النُّبوَّةُ إلى مُحمَّدِ بن عبد اللَّهِ رسولِ اللَّهِ ونبيِّهِ ﷺ أرسلهُ إلى أكملِ الأمَمِ عُقولاً ومعارفَ، وأصحِّها أذهاناً، وأغزرها علوماً، وبعثهُ بأكمَلِ شريعَةٍ ظَهَرَت في الأرضِ منذ قامَتِ الدُّنيا إلى حينِ مَبعثِهِ، فأغنى اللَّهُ الأمَّةَ بكمالِ رسولها

---

(١) جاءت هذه الفقرة في آخر الفصل (٨٢).

وكمالِ شريعتهِ وكمالِ عقولها وصحَّةِ أذهانها عن رسولٍ يأتي بَعدَهُ، أقامَ لهُ مِن أُمّتهِ ورثَةً يحفظونَ شريعتَهُ، ووكَّلهم بها حتى يُؤدُّوها إلى نُظرائهم، ويَزرعوها في قلوبِ أشباهِهم، فلم يَحتاجوا معهُ إلى رسولٍ آخَرَ ولا نبيٍّ ولا مُحَدَّثٍ.

ولهذا قال ﷺ: (إنَّهُ قَد كانَ قبلَكُم في الأُمَمِ مُحدَّثونَ فإنْ يكُن في أمَّتي أحدٌ فَعُمرُ)[1].

فجزَم بوجودِ المُحدَّثين في الأُمَمِ، وعلَّقَ وجودَهُ في أُمَّتهِ بحرفِ الشرطِ؛ وليسَ هذا بنقصانٍ لأُمَتِهِ عمّن قبلهم، بل هذا من كمالِ أُمّتهِ على مَنْ قَبلَها، فإنَّها ـ لكمالِها وكمالِ نبيِّها وكمالِ شريعتِه ـ لا تحتاجُ إلى مُحدَّث.

بلْ إنْ وُجِدَ فهو صالحٌ للمُتابَعَةِ والاستشهادِ، لا أنَّهُ عُمدَةٌ؛ لأنَّها في غُنْيَةٍ بما بعث الله به نبيَّها عن كل منام أو مكاشفة أو تحديث، وأما من قبلَها وللحاجة إلى ذلك جُعِلَ فيهم المحدَّثون.

فتأمل هذا الموضع، وأعطه حقه من المعرفة، وتأمل ما فيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير، وأن رسول الله ﷺ أكمل خلقه، وأكملهم شريعة، وأن أمته أكمل الأمم.



(١) رواه البخاري (٣٢٨٢) ومسلم (٢٣٩٨).

الفصل الثاني

النظر في حسن الشرائع

الشرائعُ كلُّها في أُصولها - وإنْ تبايَنَتْ - متَّفقةٌ، مَركوزٌ حُسْنُها في العقولِ، ولو وَقَعَتْ على غيرِ ما هيَ عليهِ لَخَرَجَتْ عن الحكمَةِ والمَصلَحَةِ والرَّحمَةِ، بل منَ المُحالِ أن تأتي بخلافِ ما أتَت بهِ؛ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وكيفَ يُجَوِّزُ ذو العَقلِ أن تَرِدَ شريعَةُ أحكمِ الحاكمينَ بضدِّ ما وَرَدَت بهِ:

[النظر في الصلاة]

فالصَّلاةُ قَد وُضِعَتْ على أكمَلِ الوُجوهِ وأحسنِها التي تَعبَّدَ بها الخالقُ تبارَكَ وتعالى عبادَهُ مِن تَضَمُّنِها للتَّعظيمِ لهُ بأنواعِ الجوارحِ؛ مِن نُطْقِ اللسانِ وعَمَلِ اليَديَنِ والرِّجلينِ، والرَّأسِ وحواسِّهِ، وسائرِ أجزاءِ البَدنِ، كلٌّ يأخُذُ حَظَّهُ من الحِكمَةِ في هذه العبادَةِ العَظيمَةِ المقدارِ، مع أَخْذِ الحواسِّ الباطنَةِ بحظِّها منها، وقيامِ القَلبِ بواجبِ عُبوديَّتهِ فيها.

فهي مُشتمِلَةٌ على الثَّناءِ والحَمدِ والتَّمجيدِ والتَّسبيحِ والتَّكبيرِ، وشهادَةِ الحقِّ.

والقيامِ بينَ يَدي الرَّبِّ مقامَ العَبدِ الذَّليلِ الخاضعِ المُدبَّرِ

المَربوبِ، ثمَّ التَّذلُّلِ لهُ في هذا المقام، والتَّضرُّعِ والتَّقرُّبِ إليهِ بكلامهِ، ثمَّ انحناءَ الظَّهرِ ذُلًّا لهُ وخُشوعاً واستكانةً، ثمَّ استواؤهُ قائماً ليَستعدَّ لِخُضوعٍ أكملَ لهُ منَ الخُضوعِ الأوَّلِ - وهو السُّجود من قيام - فيَضعُ أشرَفَ شيءٍ فيهِ - وهو وَجهُهُ - على التُّرابِ خُشوعاً لربِّهِ واستكانَةً. وخُضوعاً لعظَمتهِ، وذُلاً لعزَّتهِ وقَد انكَسَرَ لهُ قَلبُهُ، وذَلَّ لهُ جِسْمُهُ، وخَشعَت له جوارحُهُ، ثمَّ يستوي قاعداً يتضرَّعُ لهُ ويتذلَّلُ بينَ يَديهِ، ويسألُهُ من فَضلهِ، ثمَّ يعودُ إلى حالهِ منَ الذُّلِّ والخُشوعِ والاستكانَةِ، فلا يَزالُ هذا دَأبهُ حتى يَقْضِيَ صلاتَهُ، فيجلسَ عندَ إرادَةِ الانصرافِ منها مُثْنِياً عَلى ربِّهِ، مُسلِّماً على نبيِّهِ وعلى عبادهِ، ثمَّ يُصَلِّيَ على رسولهِ ثمَّ يسألَ ربَّهُ مِن خَيرِه وبرِّهِ وفَضلهِ.

فأيُّ شيءٍ بعَدَ هذه العبادَةِ منَ الحُسْنِ؟ وأيُّ كمالٍ وراءَ هذا الكمالِ؟ وأيُّ عُبوديَّةٍ أشرفُ من هذه العبوديَّة؟ فمَن جوَّزَ عَقلُهُ أن تَرِدَ الشريعَةُ بضدِّها من كلِّ وَجهٍ في القَولِ والعَمَلِ - وأنَّهُ لا فَرْقَ في نَفسِ الأمرِ بينَ هذه العبادَةِ وبينَ ضِدِّها مِن السُّخريَةِ، والسَّبِّ، والبَطَرِ، وكشفِ العَورَةِ، والبَولِ على السَّاقينِ، والضَّحكِ والصَّفيرِ، وأنواعِ المُجونِ، وأمثالِ ذلكَ - فَلْيُعَزِّ عقلَهُ ولْيَسْألِ اللَّهَ أن يَهبَهُ عَقلاً سواهُ!

[النظر في الزكاة]

وأمَّا حُسْنُ الزَّكاةِ وما تَضمَّنَتْهُ من مُواساةِ ذوي الحاجاتِ والمَسكنَةِ والخَلَّةِ[1] من عبادِ اللَّهِ الذينَ يعجَزُونَ عن إقامَةِ نُفوسِهم، ويُخافُ عليهم التَّلَفُ إذا خَلَّاهم الأغنياءُ وأنفسَهم، وما

---

(١) الحاجة والفقر.

فيها منَ الرَّحمَةِ والإحسانِ والبرِّ والطُّهرَةِ، وإيثارِ أهلِ الإيثارِ، والاتِّصافِ بصِفَةِ الكرَمِ والجُودِ والفَضلِ، والخُروجِ من سِمَاتِ أهلِ الشُّحِّ والبُخلِ والدَّناءَةِ: فَأَمْرٌ لا يَستريبُ عاقلٌ في حُسْنهِ ومَصلحتهِ، وأنَّ الآمرَ به أحكمُ الحاكمينَ.

وليسَ يجوزُ في العَقلِ ولا في الفِطرَةِ ألبتَّةَ أن تَرِدَ شريعَةٌ منَ الحكيمِ العليمِ بضدِّ ذلكَ أبداً.

[النظر في الصوم]

وأمَّا الصَّومُ فناهيكَ بهِ من عبادَةٍ تَكُفُّ النَّفْسَ عن شهواتها، وتُخْرِجُها عن شَبَهِ البهائمِ إلى شَبَهِ الملائكَةِ المُقرَّبينَ، فإنَّ النَّفْسَ إذا خُلِّيَت ودواعيَ شهواتِها الْتَحقَتْ بعالَمِ البَهائمِ، فإذا كُفَّتْ شهواتها للَّهِ ضُيِّقَت مجاري الشيطانِ، وصارَت قريبَةً منَ اللَّهِ بتَركِ عادتِها وشهواتِها؛ محبَّةً لهُ، وإيثاراً لمرضاتهِ، وتقرُّباً إليهِ.

فَيَدَعُ الصَّائمُ أحبَّ الأشياءِ وأعظمَها لُصوقاً بنفسهِ من الطَّعامِ والشرابِ والجِمَاعِ من أجلِ ربِّهِ، فهو عبادَةٌ، ولا تُتَصَوَّرُ حقيقتُها إلَّا بتَرْكِ الشهوَةِ للَّهِ، فالصَّائمُ يَدَعُ طَعامَهُ وشرابَهُ وشهواتهِ من أجلِ ربِّهِ.

وهذا مَعنى كونِ الصَّومِ لهُ تباركَ وتعالى، وبهذا فسَّرَ النَّبيُّ ﷺ هذه الإضافَةَ في الحديثِ فقال: (يقولُ اللَّهُ تعالى: كلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ يُضاعَفُ الحسنَةُ بعَشرَةِ أمثالها، قال اللَّهُ: إلَّا الصَّومَ؛ فإنَّهُ لي وأنا أَجْزي بهِ يَدَعُ طعامَهُ وشرابَهُ من أجلي)[1]، حتى إنَّ الصَّائمَ لَيُتَصَوَّرُ بصورَةِ مَن لا حاجَةَ لهُ في الدُّنيا إلَّا في تَحصيلِ رضا اللَّهِ.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٢٧) ومسلم (١١٥١).

وأيُّ حُسْنٍ يَزيدُ على حُسنِ هذه العبادَةِ التي تَكسرِ الشهوَةَ، وتَقمعُ النَّفْسَ، وتُحيي القَلبَ وتُفرحهُ، وتُزهِّدُ في الدُّنيا وشهواتِها، وتُرَغِّبُ فيما عندَ اللَّهِ، وتُذَكِّرُ الأغنياءَ بشأنِ المساكينِ وأحوالِهم، وأنَّهُم قَد أُخِذوا بنصيبٍ من عَيشهم، فَتُعَطِّفُ قلوبهم عليهم، ويعلمونَ ما هم فيه من نِعَمِ اللَّهِ فَيَزدادوا لهُ شُكراً.

وبالجُملَةِ؛ فعَونُ الصَّومِ على تَقوى اللَّهِ أمرٌ مَشهورٌ، فما اسْتَعانَ أحدٌ على تقوى اللَّهِ وحِفْظِ حدودهِ واجتنابِ محارمهِ بمثلِ الصَّومِ، فهو شاهدٌ لِمَن شَرَعَهُ وأمَرَ بهِ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرَّاحمينَ، وأنَّهُ إنَّما شَرَعَهُ إحساناً إلى عبادهِ، ورحمَةً بهم، ولُطفاً بهم، لا بُخلاً عليهم برزقهِ، ولا مُجرَّد تَكليفٍ وتَعذيبٍ خالٍ منَ الحكمَةِ والمَصلحَةِ، بل هو غايَةُ الحكمَةِ والرَّحمَةِ والمَصلحَةِ، وأنَّ شرعَ هذ العباداتِ لهم من تمامِ نعمتهِ عليهم، ورحمتهِ بهم.

[النظر في الحج]

وأمَّا الحجُّ فشأنٌ آخَرُ لا يُدْرِكُهُ إلّا الحُنَفاءُ الذينَ ضَرَبوا في المحبَّةِ بسهمٍ، وشأنُهُ أجَلُّ مِن أنْ تُحِيطَ بهِ العبارَةُ، وهو خاصَّةُ هذا الدِّينِ الحنيفِ، حتى قيلَ في قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣١]، أي: حُجَّاجاً.

وجَعَلَ اللَّهُ بيتَهُ الحرامَ قياماً للنَّاسِ، فهو عمودُ العالَم الذي عليهِ بناؤُهُ، فلو تَرَكَ النَّاسُ كلُّهُم الحجَّ سنَةً لخرَّت السَّماءُ على الأرضِ، هكذا قال تُرجمانُ القرآنِ ابنُ عبَّاسٍ.

فالبَيتُ الحرامُ قيامُ العالَم فلا يزالُ قياماً ما دامَ هذا البيتُ محجوجاً، فالحجُّ هو خاصَّةُ الحنيفيَّةِ، ومعونَةُ الصَّلاةِ، وسرُّ قولِ

العَبدِ: لا إلهَ إلّا اللَّهُ؛ فإنَّهُ مُؤسَّسٌ على التَّوحيدِ المَحْضِ والمحبَّةِ الخالصَةِ، وهو استزارَةُ المَحبوبِ لِأَحْبابِهِ، ودعوتُهم إلى بيتهِ ومحلِّ كرامتهِ، ولهذا إذا دَخَلوا في هذه العبادَةِ فشعارُهم: لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيك، إجابَةَ محبٍّ لدَعوَةِ حبيبهِ، ولهذا كانَ للتَّلبيَةِ موقعٌ عندَ اللَّهِ، وكلَّما أكثرَ العَبدُ منها كانَ أحبَّ إلى ربِّهِ وأحظى، فهو لا يملِكُ نَفسَهُ أنْ يقولَ: لبَّيك... لبَّيكَ، حتى ينقطعَ نَفَسُهُ.

وأمَّا أسرارُ ما في هذه العبادَةِ منَ الإحرامِ واجتنابِ العوائدِ وكشفِ الرَّأسِ ونَزعِ الثياب المُعتادَةِ والطَّوَافِ والوُقوفِ بعَرَفَةَ ورمي الجمارِ وسائرِ شعائرِ الحجِّ فمِمَّا شهدَت بحُسنهِ العقولُ السَّليمَةُ والفِطَرُ المُستقيمَةُ، وعَلِمَتْ بأنَّ الذي شَرَعَ هذا لا حكمَةَ فوقَ حكمتهِ.

[النظر في الجهاد]

وأمَّا الجهادُ فناهيكَ به مِن عبادَةٍ هي سَنَامُ العباداتِ وذِرْوَتُها، وهو المِحَكُّ والدَّليلِ المُفرِّقُ بينَ المُحِبِّ والمُدَّعي؛ فالمُحبُّ قد بَذَلَ مُهجَتَهُ ومالَهُ لربِّهِ وإلهِهِ، مُتقرِّباً إليهِ بَبَذلِ أعزِّ ما بحضرتهِ، يودُّ لو أنَّ لهُ بكلِّ شعرَةٍ نَفْساً يبذُلها في حُبِّهِ ومَرضاتهِ، ويَودُّ أنْ لو قُتِلَ فيهِ ثُمَّ أُحْيِيَ ثمَّ قُتِلَ ثمَّ أُحيي ثمَّ قُتِلَ[1]، فهو يَفْدي بنفسهِ حَبيبَهُ وعَبدَهُ ورسولَهُ، ولسانُ حالهِ يقول:

يَفْديكَ بالنَّفْسِ صبٌّ لو يكونُ لهُ ... أعزَّ مِن نَفسهِ شيءٌ فَداكَ بهِ

فهو قَد سلَّمَ نَفسَهُ ومالَهُ لِمُشتريها، وعَلمَ أنَّهُ لا سبيلَ إلى

---

(١) جاء هذا في حديث رواه البخاري برقم (٧٢٢٧).

أَخْذِ السِّلعَةِ إلّا ببَذلِ ثمنها؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

وإذا كانَ مَن المعلومِ المستقرِّ عندَ الخَلْقِ أنَّ علامَةَ المحبَّةِ الصَّحيحَةِ بَذلُ الرُّوحِ والمالِ في مَرْضاةِ المحبوبِ، فالمحبوبُ الحقُّ الذي لا تَنبَغي المحبَّةُ إلّا لهُ ـ وكلُّ محبَّةٍ سوى محبته فالمحبَّةُ لهُ باطلةٌ ـ أَوْلَى بأن يَشْرَعَ لعبادِهِ الجهادَ الذي هو غاية ما يتقرَّبونَ به إلى إلٰههم، وربِّهِم، وكانَت قرابينُ مَن قبلَهم منَ الأُمَم في ذبائحهم، وقرابينُهم تَقديمُ أنفِسهم للذَّبْحِ في الله مولاهم الحَقِّ، فأيُّ حُسْنٍ يَزيدُ على حُسنِ العبادَةِ، ولهذا ادَّخرها اللَّهُ لأكملِ الأنبياءِ، وأكملِ الأُمَم عَقلاً وتَوحيداً ومحبَّةً للَّهِ.

[النظر في الأضاحي والنذور]

وأمَّا الضَّحايا والهدايا فَقُرْبانٌ إلى الخالقِ سبحانهُ يقومُ مَقامَ الفِديَةِ عن النَّفسِ المُسْتحِقَّةِ للتَّلَفِ فِدْيَةً وعِوضاً وقُرباناً إلى اللَّهِ وتَشَبُّهاً بإمامِ الحُنَفاءِ، وإحياءً لِسُنَّتِهِ أَنْ فَدى اللَّهُ ولَدَهُ بالقُربانِ، فجعَلَ ذلكَ في ذُرِّيَّتِهِ باقياً أبداً.

وأمَّا الأَيمانُ والنُّذورُ فَعُقودٌ يعقِدُها العَبدُ على نَفسِهِ، يُؤكِّدُ بها ما أَلزَمَ بهِ نَفسَهُ منَ الأُمورِ باللَّهِ وللَّهِ، فهي تَعظيمٌ للخالقِ ولأسمائهِ ولحقِّهِ، وأنْ تكونَ العُقودُ به ولهُ، وهذا غايَةُ التَّعظيم، فلا يُعْقَدُ بغَيرِ اسمهِ، ولا لغيرِ القُرْبِ إليهِ، بل إنْ حَلَفَ فباسمِهِ تَعظيماً وتَبْجيلاً وتَوحيداً وإجلالاً، وإنْ نَذَرَ فلهُ تَوحيداً وطاعَةً ومحبَّةً وعُبوديَّةً، فيكونُ هو المَعبودَ وَحدَهُ والمُستعانَ بهِ وَحدَهُ.

❀ ❀ ❀

الفصل الثالث

قاعدة في حكمة التحليل والتحريم

قال تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فهذا صريحٌ في أنَّ الحلالَ كانَ طيِّباً قبلَ حِلِّهِ، وأنَّ الخَبيثَ كان خبيثاً قبلَ تَحريمهِ، ولم يُستفَدْ طِيبُ هذا وخُبْثُ هذا من نَفسِ الحِلِّ والتَّحريمِ لوجهَينِ اثنين:

أحدهما: أنَّ هذا عَلَمٌ من أعلام نُبُوَّتهِ التي احْتَجَّ اللَّهُ بها على أهلِ الكتابِ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فلو كانَ الطَّيِّبِ والخَبيثُ إنَّما اسْتُفيد منَ التَّحريمِ والتَّحليلِ لم يكُن في ذلكَ دليلٌ، فإنَّهُ بمنزلةِ أنْ يقالَ: يُحِلُّ لهم ما يُحِلُّ، ويُحَرِّمُ عليهم ما يُحَرِّمُ! وهذا أيضاً باطلٌ، فإنَّهُ لا فائدَةَ فيهِ، وهو الوَجهُ الثَّاني.

فَثَبَتَ أنَّهُ أَحَلَّ ما هو طَيِّبٌ في نَفسهِ قبلَ الحِلِّ فكساهُ بإحْلالهِ طِيباً آخَرَ، فصارَ مَنْشَأُ طِيبهِ منَ الوجهينِ معاً.

فتأمَّلْ هذا الموضعَ حقَّ التَّأمُّلِ يُطْلِعْكَ على أسرارِ الشريعَةِ ويُشْرِفْكَ على محاسنها وكمالها وبَهجتها وجلالها، وأنَّهُ من

المُمتَنع في حِكمَةِ أحكم الحاكمينَ أنْ تَرِدَ بخلافِ ما وَرَدَتْ بهِ، وأنَّ اللَّهَ تعالى يَتَنَزَّهُ عن ذلكَ كما يتنزَّهُ عن سائرِ ما لا يَليقُ بهِ.

وممَّا يدلُّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وهذا دليلٌ على أنَّها فواحشُ في نَفسِها، لا تَستَحسِنُها العقولُ، فَعَلَّقَ التَّحريمَ بها لفُحشِها، فإنَّ تَرتيبَ الحُكْمِ على الوَصْفِ المُناسِبِ المُشتقِّ يدلُّ على أنَّه هو العلَّةُ المقتضيَةُ لهُ، وهذا دليلٌ في جميعِ هذه الآياتِ التي ذَكَرْناها.

فدلَّ على أنَّهُ حَرَّمها لكونِها فواحشَ، وحرَّمَ الخبيثَ لكونهِ خبيثاً، وأمَرَ بالمعروفِ لكونهِ معروفاً، والعلَّةُ يجبُ أنْ تُغايِرَ المعلولَ، فلو كانَ كونُهُ فاحشَةً هو معنى كونهِ مَنْهِيًّا عنهُ، وكونُهُ خبيثاً هو معنى كونهِ مُحرَّماً كانَت العلَّةُ عينَ المعلولِ، وهذا مُحالٌ، فتأمَّلْهُ.

وكذا تَحريمُ الإثْمِ والبَغي دليلٌ على أنَّ هذا وَصْفٌ ثابتٌ لهُ قبلَ التَّحريم.

ومن هذا قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] فعلل النهي في الموضعين بكون المنهي عنه فاحشة. ولو كان جهةَ كونه فاحشة هو النهي، لكان تعليلاً للشيء بنفسه. وهذا محال.

وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم: أن القبح ثابت للفعل في نفسه، وأنه لا يعذب اللَّهُ عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة.



الفصل الرابع

الحكمة في النسخ[1]

[القاعدة العامة في النسخ]

وتأمَّلْ حِكْمَةَ الرَّبِّ تعالى في أمرِهِ إبراهيمَ خَليلَهُ ﷺ بِذَبْحِ ولدِهِ؛ لأنَّ اللَّهَ اتَّخَذَهُ خليلاً، والخُلَّةُ منزلَةٌ تَقتَضي إفرادَ الخَليلِ بالمَحبَّةِ، وأنْ لا يكونَ لهُ فيها مُنازِعٌ أصلاً، بل قَد تَخلَّلَتْ محبَّتُهُ جميعَ أجزاءِ القَلبِ والرُّوحِ، فلَم يَبْقَ فيها مَوضعٌ خالٍ من حُبِّهِ، فَضلاً عن أن يكونَ مَحَلًّا لمحبَّةِ غيرِهِ، فلمَّا سألَ إبراهيمُ الوَلَدَ وَأُعْطِيَهُ أخَذَ شُعبَةً من قلبِهِ كما يأخذُ الوَلَدُ شُعبَةً من قلبِ والدِهِ، فغارَ المَحبوبُ على خَليلِهِ أنْ يكونَ في قلبِهِ موضعٌ لغيرِهِ فأمَرَهُ بذَبحِ الوَلَدِ لِيُخرِجَ حُبَّهُ من قلبِهِ ويكونَ اللَّهُ أحبَّ إليهِ وآثَرَ عندهُ، ولا يَبْقَى في القَلبِ سوى محبَّتِهِ، فوطَّنَ نَفسَهُ على ذلكَ، وعَزَمَ عليهِ فَخَلَصَتِ المحبَّةُ لوَليِّها ومُستحقِّها، فَحَصَلَتْ مصلحةُ المأمورِ بهِ منَ العَزْمِ عليهِ، وتَوطينِ النَّفسِ على الامتثالِ، فبقيَ الذَّبْحُ مَفسدَةً لحصولِ المَصلحَةِ بدونهِ، فَنَسخَهُ في حقِّهِ لمَّا صارَ مَفسدَةً، وَأَمَرَهُ به لمّا كانَ عَزْمُهُ عليهِ وتوطينُ نَفسهِ مَصلحَةً لهما.

فأيُّ حِكمَةٍ فوقَ هذا؟ وأيُّ لُطْفٍ وَبِرٍّ وإحسانٍ يَزيدُ على هذا، وأيُّ مَصلحةٍ فوقَ هذه المَصلحَةِ بالنِّسبَةِ إلى هذا ونَسْخِهِ.

---

(١) هذا الفصل أخذ من الفصلين (١٤١، ١٤٢).

وإذا تأمَّلْتَ أَمْرَ الشرائعِ النَّاسِخَةِ والمَنسوخَةِ وجَدْتَها كلَّها بهذه المَنزلَةِ، فمنها ما يكونُ وجهُ المَصلحَةِ فيهِ ظاهراً مَكشوفاً، ومنها ما يكونُ ذلكَ فيهِ خَفيًّا لا يُدْرَكُ إلّا بفَضلِ فِطْنَةٍ وجَوْدَةِ إدراكٍ.

وهٰهُنا سرٌّ من أسرارِ الخَلْقِ والأمرِ، بهِ يتبيَّنُ لكَ حَقيقَةُ الأمرِ؛ وهو أنَّ اللَّهَ لَم يَخلُقْ شيئاً ولم يأْمُرْ بشيءٍ ثمَّ أبْطَلَهُ وأَعْدَمَهُ بالكُلِّيَّةِ، بل لا بُدَّ أنْ يُثْبِتَهُ بوجهٍ ما؛ لأنَّهُ إنَّما خَلَقَهُ لحكمَةٍ لهُ في خَلقهِ، وكذلكَ أَمْرُهُ بهِ وشَرْعُهُ إيَّاهُ، هو لِمَا فيهِ منَ المَصلحَةِ.

ومعلومٌ أنَّ تلكَ المَصلحَةِ والحِكمَةَ تَقْتضي إبقاءَهُ، فإذا عارَضَ تلكَ المَصلحَةَ مَصلحةٌ أُخرى أعظَمُ منها كانَ ما اشتملتْ عليهِ أَوْلى بالخَلْقِ والأمرِ، ويَبْقىٰ في الأولى ما شاءَ منَ الوَجهِ الذي يتضمَّنُ المَصلحَةَ، ويكونُ هذا من بابِ تزاحم المَصالحِ، والقاعدَةُ فيها شَرْعاً وخَلْقاً تَحصيلُها واجتماعُها بحسبِ الإمكانِ، فإنْ تَعذَّرَ قُدِّمَتِ المَصلحَةُ العُظمى وإنْ فاتَت الصُّغرى، وإذا تأمَّلْتَ الشريعَةَ والخَلْقَ رأيتَ ذلكَ ظاهِراً.

وهذا سِرٌّ قلَّ مَن تَفَطَّنَ لهُ منَ النَّاسِ.

[أمثلة ذلك]

فتأمَّل الأحكامَ المَنسوخَةَ حُكماً حُكْماً، كيفَ تَجدُ المنْسوخَ لم يَبْطُل بالكُلِّيَّةِ، بل لهُ بَقَاءٌ بوجهٍ.

فَمِن ذلكَ: نَسْخُ القبلَةِ وبقاءُ بيتِ المَقدسِ مُعظَّماً مُحْتَرَماً تُشدُّ إليهِ الرِّحالُ، ويُقْصَدُ بالسَّفرِ إليهِ، وحَطِّ الأوزارِ عندَهُ، واستقبالِهِ معَ غيرِهِ منَ الجهاتِ في السَّفرِ، فلم يَبْطُل تَعظيمُهُ

واحترامُهُ بالكُلِّيَّةِ، وإنْ بَطَلَ خُصوصُ استقبالِهِ بالصَّلواتِ، فالقَصْدُ إليهِ ليُصلَّى فيهِ باقٍ، وهو نوعٌ مِن تَعظيمِهِ وتَشريفِهِ بالصَّلاةِ فيه والتَّوجُّهِ إليهِ قَصداً لفضيلتهِ، وشرعُهُ لهُ نسبَةٌ منَ التَّوجُّهِ إليهِ بالاستقبالِ بالصَّلواتِ، فقدَّمَ البيتَ الحرامَ عليهِ في الاستقبالِ لأنَّ مَصلحَتَهُ أعظمُ وأكملُ، وبقيَ قَصْدُهُ وشدُّ الرِّحالِ إليهِ والصَّلاةُ فيهِ مَنْشَأً للمصلحة، فتمَّتْ للأُمَّةِ المُحمَّديَّةِ المَصلحتانِ المُتعلِّقتانِ بهذين البَيتينِ.

وهذا نهايَةُ ما يكونُ منَ اللُّطْفِ وتَحصيلِ المصالحِ وتكميلِها لهم، فتأمَّلْ هذا الموضعَ.

ومِن ذلكَ: نَسخُ التَّخييرِ في الصَّومِ بتَعيينهِ، فإنَّ لهُ بقاءً وبياناً ظاهراً، وهو أنَّ الرَّجلَ كانَ إذا أرادَ أفْطَرَ وتَصدَّقَ، فَحَصَلَتْ لهُ مَصلحَةُ الصَّدقَةِ دونَ مَصلحَةِ الصَّومِ، وإنْ شاءَ صامَ ولم يَفْدِ، فَحَصَلَتْ لهُ مَصلحَةُ الصَّومِ دونَ الصَّدقَةِ، فحتَّمَ الصَّومَ على المُكلَّفِ لأنَّ مصلحَتهُ أتمُّ وأكملُ من مصلحَةِ الفِدْيَةِ، ونَدَبَ إلى الصَّدقَةِ في شهرِ رَمضانَ، فإذا صامَ وتَصدَّقَ حَصَلَتْ لهُ المَصلحتانِ معاً، وهذا أكملُ ما يكونُ منَ الصَّومِ، وهو الذي كانَ يفعلُهُ النَّبيُّ ﷺ؛ فإنَّهُ كانَ أجوَدَ ما يكونُ في رمَضانَ[1]، فلم تبطُلِ المَصلحَةُ الأولى جُملَةً، بل قُدِّمَ عليها ما هو أكملُ منها وُجوباً، وشُرِعَ الجمعُ بينها وبينَ الأُخرى نَدباً واستحباباً.

ومن ذلكَ: نَسخُ ثباتِ الواحدِ منَ المُسلمينَ للعَشرَةِ منَ العَدوِّ وبثباتهِ للاثنين، ولم تبطُلِ الحِكمَةِ الأولى من كلِّ وَجهٍ، بل بقيَ استحبابُهُ وإنْ زالَ وجوبهُ، بل إذا غَلَبَ على ظنِّ

---

(١) رواه البخاري (٦) ومسلم (٢٣٠٨).

المُسلمينَ ظَفَرُهم بعدوِّهم وهم عَشرَةُ أمثالِهم وجَبَ عليهم الثَّباتُ وحَرُمَ عليهم الفرارُ، فلم تَبْطُل الحكمَةُ الأولى من كلٍّ وجهٍ.

ومن ذلكَ: نَسْخُ وجوبِ الصَّدقَةِ بينَ يدي مُناجاةِ الرَّسولِ ﷺ، لم يبطُل حُكْمُهُ بالكُلِّيَّةِ، بل نُسِخَ وجوبُهُ وبقيَ استحبابهُ والنَّدْبُ إليهِ، وما عُلِمَ من تَنبيههِ وإشارتهِ وهو أنَّهُ إذا استُحِبَّت الصَّدقَةُ بينَ يَدي مُناجاةِ المَخلوقِ فاستحبابُها بينَ يدي مُناجاةِ اللَّهِ عندَ الصَّلواتِ والدُّعاءِ أَوْلى، فكانَ بَعضُ السَّلَفِ الصَّالحِ يتصدَّقُ بينَ يَدي الصَّلاةِ والدُّعاءِ إذا أمْكَنَهُ، ويَتأوَّلُ هذه الأولويَّة.

ورأيتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تَيميَّة يفعلُهُ ويتحرَّاهُ ما أَمْكَنَهُ، وفاوَضْتُهُ فيه، فذَكَرَ لي هذا التَّنبيهَ والإشارَةَ.

ومن ذلكَ: نَسْخُ الصَّلواتِ الخمسينَ التي فَرَضَها اللَّهُ على رسولِهِ ليلَةَ الإسراءِ بخمسٍ، فإنَّها لم تبطُلْ بالكليَّةِ، بل أُثبِتَت خَمسينَ في الثَّوابِ والأجرِ، وجُعِلَتْ خمساً في العملِ والوُجوبِ، وقَد أشارَ تعالى إلى هذا بعينهِ حيثُ يقولُ على لسانِ نبيِّهِ: (لا يُبَدَّلُ القولُ لديَّ، هي خمسٌ وهي خَمسونَ في الأجرِ)[1].

فتأمَّلْ هذه الحِكمَةَ البالغَةَ والنِّعمَةَ السَّابغَةَ؛ فإنَّهُ لمّا اقتَضَتِ المَصلحَةُ أن تكونَ خَمسينَ؛ تكميلاً للثَّوابِ وسوقاً لهم بها إلى أعلى المنازلِ، واقتَضَتْ أيضاً أنْ تكونَ خمساً لِعَجْزِ الأُمَّةِ وضَعفِهم وعدمِ احتمالهم الخَمسينَ، جَعَلَها خمساً من وجهٍ وخَمسينَ من وَجهٍ، جَمْعاً بينَ المصالحِ وتكميلاً لها.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).

ولو لم نَطَّلِعْ من حِكْمتهِ في شرعهِ وأمرهِ ولُطْفهِ بِعِبَادِهِ ومُراعاةِ مصالحهم وتَحصيلها لهم على أتمِّ الوُجوهِ إلّا على هذه الثَّلاثَةِ وَحدَها لكَفى بها دليلاً على ما وراءَها.

فَسُبحانَ مَن لهُ في كلِّ ما خَلَقَ وأمَرَ حِكْمَةٌ بالغَةٌ شاهِدَةٌ لهُ بأنَّهُ أحكمُ الحاكمينَ وأرحمُ الرَّاحمين، وأنَّهُ اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هوَ ربُّ العالمينَ.

ومِنْ ذلكَ الوَصيَّةُ للوالدينِ والأقربينَ؛ فإنَّها كانَت واجبَةً على مَن حَضَرَهُ المَوتُ، ثمَّ نَسَخَ اللَّهُ ذلكَ بآيَةِ المواريثِ، وبقيَت مَشروعَةً في حَقِّ الأقاربِ الذينَ لا يَرثونَ.

والمَقصودُ هنا أنَّ إيجابَ الوَصيَّةِ للأقاربِ ـ وإنْ نُسخَ ـ لم يَبْطُلْ بالكُلِّيَّةِ، بل بقيَ منهُ ما هو مَنْشأُ المَصلحَةِ ـ كما ذكرناهُ ـ ونُسِخَ منهُ ما لا مَصلحَةَ فيهِ، بل المَصلحَةُ في خلافهِ.

ومِن ذلكَ: نَسْخُ الاعتدادِ في الوفاةِ بحَوْلٍ، بالاعتدادِ بأربعَةِ أشهرٍ وعشرٍ، على المشهورِ منَ القولينِ في ذلكَ، فلم تَبطُلِ العِدَّةُ الأولى جملَةً.

ومن ذلكَ: حَبْسُ الزَّانيَةِ في البيتِ حتى تَموتَ؛ فإنَّهُ على أحدِ القولينِ لا نَسْخَ فيهِ لأنَّهُ مُغَيًّى[1] بالموتِ، أو يَجعَلُ اللَّهُ لهنَّ سبيلاً، وقد جَعَلَ اللَّهُ لهُنَّ سبيلاً بالحدِّ، وعلى القَولِ الآخَرِ هو مَنسوخٌ بالحدِّ؛ وهو عقوبَةٌ من جنسِ عقوبَةِ الحَبسِ، فلم تَبْطُل العقوبَةُ عنها بالكُلِّيَّةِ، بل نُقِلَت من عقوبَةٍ إلى عُقوبةٍ، وكانَت العقوبَةُ الأولى أصلحَ في وَقتها لأنَّهُم كانوا حَديثي عَهدٍ بجاهليَّةٍ وزناً، فأُمروا بحَبسِ الزَّانيَةِ أوَّلاً، ثمَّ لمّا استَوطَنَتْ

---

(١) أي جعل له غاية أو نهاية.

أنفسُهُم على عقوبتِها، وخَرجوا عن عوائدِهم الجاهليَّةِ ورَكنوا إلى التَّحريم والعقوبةِ، نُقلوا إلى ما هو أغلظُ منَ العقوبَةِ الأولى - وهو الرَّجمُ والجلدُ -، فكانَت كلُّ عقوبَةٍ في وَقتها هي المَصلحَةَ التي لا يُصْلِحُهُم سواها.

وهذا الذي ذَكَرْناهُ إنَّما هو في نَسْخِ الحُكْمِ الذي ثَبَتَ بشرعهِ وأمرهِ.

وأمَّا ما كانَ مُسْتَصْحَباً بالبراءَةِ الأصليَّةِ[1]، فهذا لا يلزمُ مِن رفعهِ بقاءُ شيءٍ منهُ؛ لأنَّهُ لم يكُن مَصلحةً لهم، وإنَّما أُخِّرَ عنهم تَحْرِيمُهُ إلى وَقتٍ لضرْبٍ منَ المَصلحَةِ في تأخيرِ التَّحريم، ولم يَلْزَمْ من ذلكَ أن يكونَ مَصلحَةً حينَ فِعْلِهم إيَّاهُ، وهذا كتَحريم الرِّبا والمُسكرِ، وغيرِ ذلكَ من المُحرَّماتِ التي كانوا يَفعلونَها استصحاباً لعدمِ التَّحريم، فإنَّها لم تكُن مَصلحَةً في وَقتٍ، ولهذا لم يَشْرَعْها اللَّهُ تعالى، ولهذا كان رَفْعُها بالخطابِ لا يُسمَّى نَسْخاً، إذ لو كانَ ذلكَ نَسخاً لكانَت الشريعَةُ كلُّها نَسخاً، وإنَّما النَّسخُ رَفعُ الحُكمِ الثَّابتِ بالخطابِ، لا رَفْعُ مُوْجَبِ الاستصحابِ، وهذا مُتَّفقٌ عليهِ.



(١) إبقاء الأمر على ما كان عليه.

الفصل الخامس

أمثلة من الحكمة في الوضوء والصلاة

[حكمة الشريعة]

وإذا تأمَّلْتَ الشريعَةَ التي بَعَثَ اللَّهُ بها رَسولهُ حقَّ التَّأمُّلِ وَجَدْتَها مِن أوَّلها إلى آخرها شاهِدَةً بذلكَ، ناطقَةً بهِ، ووَجدْتَ الحِكمَةَ والمَصلَحَةَ والعَدْلَ والرَّحمةَ بادياً على صفحاتِها، مُنادياً عليها، يَدعو العُقولَ والألبابَ إليها، وأنَّهُ لا يجوزُ على أحكم الحاكمينَ ولا يَليقُ بهِ أن يَشْرعَ لعبادهِ ما يُضادُّها وذلكَ لأنَّ الذي شَرَعَها علمَ ما في خلافِها منَ المَفاسدِ والقبائحِ والظُّلم والسفَهِ الذي يتعالى عن إرادتهِ وشَرْعهِ، وأنَّهُ لا يَصْلُحُ العبادُ إلّا عليها، ولا سعادَةَ لهم بدونها البتَّة.

[الوضوء][1]

فتأمَّلْ محاسنَ الوُضوءِ بينَ يَدي الصَّلاةِ، وما تَضَمَّنَهُ منَ النَّظافَةِ والنَّزاهَةِ ومُجانبَةِ الأوساخِ والمُستَقذراتِ.

وتأمَّلْ كيفَ وُضِعَ على الأعضاءِ الأربعَةِ التي هي آلَةُ البَطْشِ والمَشْيِ، ومَجْمعُ الحواسِّ التي تَعَلُّقُ أكثرِ الذُّنوبِ والخطايا بها، ولهذا خصَّها النَّبيُّ ﷺ بالذِّكرِ في قولهِ: (إنَّ اللَّهَ كَتَبَ على ابن

(١) وردت هذه الفقرة والتي قبلها في ثنايا البحث ص٣٦٤ ـ ٣٦٥.

آدمَ حظَّهُ منَ الزِّنا أدركَ ذلكَ لا مَحالَةَ؛ فالعَينُ تَزني وزِناها النَّظرُ، والأُذُنُ تَزني وزِناها الاستماعُ، واليدُ تَزني وزِناها البَطشُ، والرِّجْلُ تَزني وزناها المَشيُ، والقلبُ يتمَنَّى ويَشتَهي، والفَرْجُ يُصدِّقُ ذلكَ ويُكذِّبُه)[1].

فلمَّا كانَت هذه الأعضاءُ هي أكثرَ الأعضاءِ مُباشرَةً للمعاصي، كانَ وَسخُ الذُّنوبِ أَلْصقَ بها، وأَعْلَقَ من غيرها، فشرَعَ أحكمُ الحاكمينَ الوُضوءَ عليها ليَتَضمَّنَ نظافتَها وطهارَتها منَ الأوساخِ الحِسيَّةِ وأوساخِ الذُّنوبِ والمعاصي.

وقد أشارَ النَّبيُّ ﷺ إلى هذا المَعنى بقولِهِ: (إذا توضَّأَ العَبدُ المُسلم خَرَجَتْ خطاياهُ معَ الماءِ، أو معَ آخرِ قَطْر الماءِ)، (حتى تَخْرُجَ من تَحتِ أظفارِهِ)[2].

وقال أبو أُمامَةَ: يا رسولَ اللَّهِ! كيفَ الوُضوءُ؟ فقال: (أَمَّا فإنَّكَ إذا توضَّأْتَ فَغَسَلْتَ كَفَّيْكَ فأنقيْتَهما خَرَجَتْ خطاياكَ من بينِ أظفارِكَ وأنامِلكَ، فإذا مَضمَضْتَ واستَنشقْتَ بِمنْخِرَيْكَ وغَسَلتَ وَجْهَكَ ويَديكَ إلى المِرْفَقَيْنِ ومَسَحْتَ برأسكَ وغَسَلْتَ رِجْليك إلى الكَعبين اغتَسَلْتَ من عامَّةِ خطاياكَ، فإنْ أنتَ وَضَعْتَ وَجْهَكَ للَّهِ خَرَجْتَ من خطاياكَ كيوم وَلَدتكَ أُمُّكَ) رواهُ النَّسائي[3].

والأحاديثُ في هذا البابِ كثيرةٌ.

فاقتَضَت حِكمَةُ أحكمِ الحاكمينَ ورحمتُهُ أنْ شَرَعَ الوُضوءَ على هذه الأعضاءِ التي هي أكثرُ الأعضاءِ مُباشَرَةً للمعاصي، وهي الأعضاءُ الظَّاهِرَةُ البارِزَةُ للغُبارِ والوَسخِ أيضاً، وهي أسهَلُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) أخرجهما مسلم (٢٤٤، ٢٤٥).

(٣) رواه النسائي برقم (١٤٧).

الأعضاءِ غَسْلاً فلا يَشُقُّ تَكْرارُ غَسلِها في اليومِ والليلَةِ، فكانَت الحِكمَةُ الباهِرَةُ في شرعِ الوضوءِ عليها دونَ سائرِ الأعضاءِ.

وهذا يدُلُّ على أنَّ المَضمَضَةَ من آكدِ أعضاءِ الوُضوءِ، ولهذا كانَ النَّبيُّ ﷺ يُداوِمُ عليها، ولم يُنقلْ عنهُ بإسنادٍ قَطُّ أنَّهُ أخَلَّ بها يوماً واحداً، وهذا يدلُّ على أنَّها فَرضٌ لا يصحُّ الوضوءُ بدونها، كما هو الصَّحيحُ من مذهبِ أحمَدَ وغيرِهِ من السلف.

فمَن سوَّى بينَ هذه الأعضاءِ وغيرِها، وجَعَلَ تَعيينَها بمُجرَّدِ الأمرِ الخالي عن الحِكمَةِ والمَصلحَةِ! فَقَد ذهَبَ مَذْهَباً فاسداً، فكيفَ إذا زَعَمَ مع ذلكَ أنَّهُ لا فَرْقَ في نَفْسِ الأمرِ بينَ التَّعبُّدِ بذلكَ وبينَ أنْ يُتَعبَّدَ بالنَّجاسَةِ وأنواعِ الأَقْذارِ والأوساخِ، والأَنْتانِ والرَّائحَةِ الكريهَةِ، ويجعلَ ذلكَ مكانَ الطَّهارَةِ والوضوءِ، وأنَّ الأمرَينِ سواءٌ، وإنَّما يَحْكُمُ بمجرَّدِ المَشيئَةِ بهذا الأمرِ دونَ ضدِّهِ، ولا فَرْقَ بينهما في نَفْسِ الأمرِ! وهذا قولٌ تَصوُّرُهُ كافٍ في الجَزْمِ ببُطلانهِ.

وجميعُ مسائلِ الشريعَةِ كذلكَ آياتٌ بيِّناتٌ، ودلالاتٌ واضحاتٌ، وشواهدُ ناطقاتٌ بأنَّ الذي شَرَعَها لهُ الحِكمَةُ البالغَةُ، والعِلْمُ المُحيطُ، والرَّحمَةُ، والعنايَةُ بعبادهِ وإرادَةُ الصَّلاحِ لهم، وسَوقُهُم بها إلى كمالِهم وعواقِبهم الحميدَةِ.

وقَد نبَّهَ سبحانهُ عبادَهُ على هذا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، إلى قوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

فَأَخْبَرَ سبحانهُ أنَّهُ لم يأمُرْهم بذلكَ حَرَجاً عليهم، وتَضييقاً ومَشقَّةً، ولكنْ إرادَةَ تَطهيرِهم وإتْمامِ نعمتهِ عليهم ليَشكروهُ على ذلكَ، فلهُ الحمدُ كما هوَ أهلهُ، وكما يَنبغي لِكَرَم وَجْههِ وعزِّ جلالهِ.

[الصلاة[1]]

ويكفي العاقل البصير الحي القلب فكره في فرع واحد من فروع الأمر والنهي، وهي الصلاة وما اشتملت عليه من الحكم الباهرة، والمصالح الباطنة والظاهرة، والمنافع المتصلة بالقلب والروح والبدن والقوى، التي لو اجتمع حكماء العالم قاطبة، واستفرغوا قواهم وأذهانهم لما أحاطوا بتفاصيل حكمها وأسرارها وغاياتها المحمودة.

بل انقطعوا كلهم دون أسرار الفاتحة، وما فيها من المعارف الإلهية، والحكم الربانية، والعلوم النافعة، والتوحيد التام، والثناء على الله تعالى بأصول أسمائه وصفاته، وذكر أقسام الخليقة، باعتبار غاياتهم ووسائلهم.

وما في مقدماتها وشروطها من الحكم العجيبة، من تطهير الأعضاء والثياب والمكان، وأخذ الزينة واستقبال بيته الذي جعله إماماً للناس، وتفريغ القلب لله، وإخلاص النية، وافتتاحها بكلمة جامعة لمعاني العبودية، دالة على أصول الثناء وفروعه، مخرجة من القلب الالتفات إلى ما سواه، والإقبال على غيره.

فيقوم بقلبه الوقوف بين يدي عظيم جليل كبير، أكبر من

---

(١) جاء هذا المثال في «شفاء العليل» في الباب الثالث والعشرين.

كل شيء، وأجل من كل شيء، وأعظم من كل شيء، تلاشت في كبريائه السماوات وما أظلت، والأرض وما أقلت، والعوالم كلها.

عَنَتْ له الوجوه، وخضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، قاهر فوق عباده، ناظر إليهم، عالم بما تكن صدورهم، يسمع كلامهم، ويرى مكانهم، ولا يخفى عليه خافية من أمرهم.

ثم أخذ في تسبيحه وحمده وذكره تبارك اسمه وتعالى جدّه، وتفرده بالإلهية.

ثم أخذ في الثناء عليه بأفضل ما يثني عليه به من حمده وذكر ربوبيته للعالم، وإحسانه إليهم ورحمته بهم، وتمجيده بالملك الأعظم في اليوم الذي لا يكون فيه ملك سواه، حين يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، ويدينهم بأعمالهم.

ثم إفراده بِنَوْعَي التوحيد، توحيد ربوبيته استعانة به، وتوحيد إلهيته عبودية له، ثم سؤاله أفضل مسؤول وأجل مطلوب على الإطلاق، وهو هداية الصراط المستقيم، الذي نصبه لأنبيائه ورسله وأتباعهم، وجعله صراطاً موصولاً لمن سلكه إليه وإلى جنته، وأنه صراط من اختصهم بنعمته بأن عرفهم الحق وجعلهم متبعين له، دون صراط أمة الغضب، الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه، وأهل الضلال الذين ضلوا عن معرفته واتباعه.

فتضمنت تعريف الربّ، والطريق الموصل إليه، والغاية بعد الوصول، وتضمنت الثناء والدعاء وأشرف الغايات وهي العبودية، وأقرب الوسائل إليها وهي الاستعانة، مقدماً فيها الغاية على الوسيلة، والمعبود المستعان على الفعل إيذاناً بالاختصاص، وأنَّ ذلك لا يصلح إلا له سبحانه.

وتضمنت ذكر الإلهية والربوبية والرحمة، **فيُثْنَى** عليه ويُعبد بإلهيته، ويخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويدبّرُ الملك، ويُضلُّ من يستحق الإضلال، ويغضب على من يستحق الغضب بربوبيته وحكمته، وينعم ويرحم ويجود ويعفو ويغفر، ويهدي ويتوب برحمته.

فللَّه كم في هذه السورة من أنواع المعارف والعلوم والتوحيد، وحقائق الإيمان.

ثم يأخذ بعد ذلك في تلاوة ربيع القلوب، وشفاء الصدور، ونور البصائر، وحياة الأرواح، وهو كلام ربِّ العالمين، فيحلّ به في ما شاء من روضات مونقات، وحدائق معجبات، زاهية أزهارها، مونقة ثمارها، قد ذللت قطوفها تذليلاً، وسهلت لمتناولها تسهيلاً، فهو يجتني من تلك الثمار خيراً يُؤمر به، وشراً يُنهى عنه، وحكمة وموعظة، وتبصرة وتذكرة وعبرة، وتقريراً لحق، ودحضاً لباطل، وإزالة لشبهة، وجواباً عن مسألة، وإيضاحاً لمشكل، وترغيباً في أسباب فلاح وسعادة، وتحذيراً من أسباب خسران وشقاوة، ودعوة إلى هدى، ورَدّ عن ردى، فتنزل على القلوب نزول الغيث على الأرض التي لا حياة لها بدونه، ويحل منها محل الأرواح من أبدانها.

فأي نعيم وقرة عين ولذة قلب وابتهاج وسرور، لا يحصل له في هذه المناجاة، والربّ تعالى مستمع لكلامه، جارياً على لسان عبده، ويقول: (حمدني عبدي، أثنى عليَّ عبدي، مجَّدَني عبدي)[1].

---

(١) رواه مسلم برقم (٣٩٥) ونصّه: (قال الله ﷻ: قسمت الصلاة بيني=

ثم يعود إلى تكبير ربّه ﷻ فيجدد عهد التذكرة، كونه أكبر من كل شيء بحق عبوديته، وما ينبغي أن يعامل به.

ثم يركع حانياً له ظهره خضوعاً لعظمته، وتذللاً لعزّته، واستكانةً لجبروته، مسبحاً له بذكر اسمه العظيم، فَنَزَّه عظمته عن حال العبد وذلّه وخضوعه، وقابل تلك العظمة بهذا الذلّ والانحناء والخضوع، قد تطامن وطأطأ رأسه، وطوى ظهره، وربّه فوقه يشاهده، ويرى خضوعه وذلّه، ويسمع كلامه، فهو ركن تعظيم وإجلال كما قال ﷺ: (أما الركوع فعظموا فيه الربّ)[1].

ثم عاد إلى حاله من القيام، حامداً لربّه مثنياً عليه بأكمل محامده وأجمعها وأعمّها، مثنياً عليه بأنه أهل الثناء والمجد، ومعترفاً بعبوديته، شاهداً له بتوحيده، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وأنه لا ينفع أصحاب الجدود والأموال والحظوظ جدودهم عنه ولو عظمت[2].

= وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم قال الله: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين قال: مجَّدني عبدي... الحديث).

(١) رواه مسلم برقم (٤٧٩).

(٢) روى مسلم (٤٧٨) عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع قال؛ اللهم ربنا لك الحمد، ملء السّماوات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجَدّ.

ثم يعود إلى تكبيره، ويخر له ساجداً على أشرف ما فيه وهو الوجه، فيعفِّره في التراب ذُلاً بين يديه، ومسكنةً وانكساراً، وقد أخذ كل عضو من البدن حظَّه من هذا الخضوع، حتى أطراف الأنامل ورؤس الأصابع، ونُدبَ له أن يسجد معه ثيابه وشعره فلا يكفّه، وأن لا يكون بعضه محمولاً على بعض، وأن يباشر التراب بجبهته، وينال ثقل وجهه المصلى، ويكون رأسه أسفل ما فيه تكميلاً للخضوع والتذلل لمن له العزّ كله والعظمة كلها، وهذا أيسر اليسير من حقه على عبده، فلو دام كذلك من حين خلق إلى أن يموت لما أدى حق ربّه عليه.

ثم أُمرَ أن يسبح رَبَّه الأعلى، فيذكر علوه سبحانه في حال سفوله هو، وينزِّهه عن مثل هذه الحال، وأن مَنْ هو فوق كل شيء، وعالٍ على كل شيء، ينزَّه عن السفول بكل معنى، بل هو الأعلى بكل معنى من معاني العلو.

ولما كان هذا غاية ذلّ العبد وخضوعه وانكساره، كان أقرب ما يكون الربّ منه في هذه الحال، فأمر أن يجتهد في الدعاء لقربه من القريب المجيب، وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] وكان الركوع كالمقدمة بين يدي السجود والتوطئة له.

فينتقل من خضوع إلى خضوع أكمل وأتم منه، وأرفع شأناً، وفصل بينهما بركن مقصود في نفسه، يجتهد فيه في الحمد والثناء والتمجيد، وجُعلَ بين خضوعين، خضوع قبله وخضوع بعده، وجُعل خضوع السجود بعد الحمد والثناء والمجد، كما جعل خضوع الركوع بعد ذلك.

فتأمل هذا الترتيب العجيب، وهذا التنقل في مراتب

العبودية، كيف ينتقل من مقام الثناء على الربّ بأحسن أوصافه وأسمائه وأكمل محامده، إلى منزلة خضوعه وتذلله لمن له هذا الثناء، ويستصحب في مقام خضوعه ثناء يناسب ذلك المقام، ويليق به، فيذكر عظمة الربّ في حال خضوعه، وعلوه في حال سفوله.

ولما كان أشرف أذكار الصلاة القرآن، شُرع في أشرف أحوال الإنسان، وهي هيئة القيام التي قد انتصب فيها قائماً على أحسن هيئة.

ولما كان أفضل أركانها الفعلية السجود، شُرع فيها بوصف التكرار، وجعل خاتمة الركعة وغايتها التي انتهت إليها، تطابق افتتاح الركعة بالقرآن واختتامها بالسجود أول سورة افتتح بها الوحي، فإنها بدئت بالقراءة، وختمت بالسجود.

وشرع له بين هذين الخضوعين أن يجلس جلسة العبيد، ويسأل رَبَّه أن يغفر له ويرحمه ويرزقه، ويهديه ويعافيه، وهذه الدعوات تجمع له خير دنياه وآخرته.

ثم شرع له تكرار هذه الركعة مرة بعد مرة، كما شرع تكرار الأذكار والدعوات مرة بعد مرة، ليستعد بالأول لتكميل ما بعده، ويجبر بما بعده ما قبله، وليشبع القلب من هذا الغذاء، وليأخذ زاده ونصيبه وافراً من الدواء ليقاومه.

فإن منزلة الصلاة من القلب منزلة الغذاء والدواء، فإذا تناول الجائع الشديد الجوع من الغذاء لقمة أو لقمتين، كان غناؤها عنه وسدها من جوعه يسيراً جداً، وكذلك المرض الذي يحتاج إلى قدر معين من الدواء، إذا أخذ منه المريض قيراطاً من ذلك لم يزل مرضه بالكلية، وأزال بحسبه فما حصل الغذاء أو

الشفاء للقلب بمثل الصلاة، وهي لصحته ودوائه بمنزلة غذاء البدن ودوائه.

ثم لما أكمل صلاته، شرع له أن يقعد قعدة العبد الذليل المسكين لسيده، ويثني عليه بأفضل التحيات، ويسلم على من جاء بهذا الحظ الجزيل، ومن نالته الأمة على يديه، ثم يسلم على نفسه وعلى سائر عباد الله المشاركين له في هذه العبودية، ثم يتشهد شهادة الحق، ثم يعود فيصلي على من علَّم الأمة هذا الخير، ودلهم عليه، ثم شرع له أن يسأل حوائجه ويدعو بما أحب ما دام بين يدي ربّه مقبلاً عليه، فإذا قضى ذلك أذن له في الخروج منها بالتسليم على المشاركين له في الصلاة.

هذا إلى ما تضمنته من الأحوال والمعارف من أول المقامات إلى آخرها، فلا تجد منزلة من منازل السير إلى الله تعالى، ولا مقاماً من مقامات العارفين إلا وهو في ضمن الصلاة.

وهذا الذي ذكرناه من شأنها كقطرة من بحر، فكيف يقال: إنها تكليف محض، لم يشرع لحكمة ولا لغاية قصدها الشارع، بل هي تعب محض، وكلفة ومشقة مستندة إلى محض المشيئة، لا لغرض ولا لفائدة البتَّة، بل مجرد قهر وتكليف، وليست سبباً لشيء من مصالح الدنيا ولا الآخرة؟

ثم تأمل أبواب الشريعة ووسائلها وغاياتها، كيف تجدها مشحونة بالحكم المقصودة، والغايات الحميدة التي شرعت لأجلها، التي لولاها لكان الناس كالبهائم بل أسوأ حالاً، فكم في الطهارة من حكمة ومنفعة للقلب والبدن، وتفريح للقلب، وتنشيط للجوارح، وتخفيف من أحمال ما أوجبته الطبيعة، وإلقاء

عن النفس من درن المخالفات، فهي منظفة للقلب والروح والبدن.

وفي غسل الجنابة من زيادة التقوية، والإخلاف على البدن نظير ما تحلل منه بالجنابة ما هو من أنفع الأمور.

ولما كانت الشهوة تجري في جميع البدن، حتى إن تحت كل شعرة شهوة، سرى غسل الجنابة إلى حيث سرت الشهوة، كما قال ﷺ: (إن تحت كل شعرة جنابة)[1]، فأمر أن يوصل الماء إلى أصل كل شعرة، فتبرد حرارة الشهوة، فتسكن النفس وتطمئن إلى ذكر الله وتلاوة كلامه، والوقوف بين يديه.

فوالله لو أن أبقراط ودونه أوصوا بمثل هذا، لخضع أتباعهم لهم فيه وعظَّموهم عليه غاية التعظيم، وأبدوا له من الحكم والفوائد ما قدروا عليه.

وقد فُتحَ لك الباب فَسُقْ الشريعة كلَّها من أولها إلى آخرها هذا المساق، واستدل بما ظهر لك على ما خفيَ عنك، ولعل الحكمة فيما لم تعلمه أعظم منها فيما علمته، فإن الذي علمته على قَدْرِ عقلك وفهمك، وما خفي عنك فهو فوق عقلك وفهمك، ولو تتبعنا تفصيلَ ذلك لجاء عدَّةَ أسفار، فيُكْتَفَى منه بأدنى تنبيه، والله المستعان.



(١) رواه أبو داود برقم (٢٤٨).

الفصل السادس

الحكمة في العقوبات الإلهية[1]

تأمَّل الحِكْمَةَ في حبسِ اللَّهِ الغَيثَ عن عبادهِ وابتلائهم بالقَحطِ إذ منَعوا الزَّكاةَ وحَرموا المساكينَ كيفَ جُوزوا على منعِ ما للمساكينِ قِبَلَهم من القوتِ بمنعِ اللَّهِ مادَّةَ القوتِ والرِّزقِ وحَبْسِها عنهم، فقال لهم بلسانِ الحالِ: مَنَعْتُم الحقَّ فَمُنِعْتُم الغَيثَ، فهلَّا استنزلتُموهُ ببَذْلِ ما للَّهِ قِبَلَكُم.

وتأمَّلْ حكمَةَ اللَّهِ تعالى في صَرفهِ الهُدى والإيمانَ عن قلوبِ الذينَ يَصرفونَ النَّاسَ عنهُ، فصدَّهُم عنهُ كما صَدُّوا عبادَهُ صدًّا بصدٍّ ومنعاً بمنعٍ.

وتأمَّلْ حِكمتَهُ تعالى في مَحْقِ أموالِ المُرابينَ وتَسليطِ المُتْلِفاتِ عليهم؛ كما فعَلوا بأموالِ النَّاسِ ومَحَقُوها عليهم وأتلفوها عليهم بالرِّبا؛ جُوزوا إتْلافاً بإتْلافٍ، فقلَّ أنْ تَرى مُرابياً إلّا وآخِرَتُهُ إلى مَحْقٍ وقِلَّةٍ وحاجَةٍ.

وتأمَّلْ حِكمتَهُ تعالى في تَسليطِ العدُوِّ على العِبادِ إذا جارَ قويُّهُم على ضَعيفهم ولم يُؤخَذ للمظلوم حقُّهُ من ظالمهِ، كيفَ يُسلِّطُ عليهم مَن يفعلُ بهم كفعلهم برعاياهم وضُعفائهم سواءً، وهذه سنَّةُ اللَّهِ تعالى منذ قامَت الدُّنيا إلى أن تُطوى الأرضُ ويُعيدها كما بدأها.

---

(١) جاء هذا الموضوع في الفصل (٨٢) استطراداً كما قال المؤلف، ولكنه هنا من أصل الموضوع.

وتأمَّلْ حِكمَتهُ تعالى في أنْ جَعَلَ مُلوكَ العبادِ وأُمراءَهُم وولاتَهُم من جنسِ أعمالهم، بل كأنَّ أعمالَهم ظَهَرَت في صورِ وُلاتِهم وملوكهم؛ فإنِ استقاموا استقامَت ملوكُهُم، وإنْ عَدَلوا عَدلتْ عليهم، وإنْ جاروا جارَت مُلوكُهُم وولاتُهُم، وإنْ ظَهَرَ فيهم المكرُ والخديعَةُ فَوُلاتُهُم كذلكَ، وإنْ منَعوا حقوقَ اللَّهِ لديهم وبَخِلوا بها منعَتْ ملوكُهُم وولاتُهم ما لهم عندَهم منَ الحقِّ وبَخِلوا بها عليهم، وإنْ أخَذوا ممَّن يَستَضعفونهُ ما لا يَستَحقُّونهُ في مُعاملتهم أَخَذَت منهم الملوكُ ما لا يَستحقُّونَهُ وضَربَت عليهم المُكوسَ والوظائفَ، وكُلُّ ما يَستخرجونهُ منَ الضَّعيفِ يستخرجهُ الملوكُ منهم بالقوَّةِ، فعمَّالُهم ظَهَرَتْ في صُوَرِ أعمالهم.

وليسَ في الحكمَةِ الإلٰهيَّةِ أن يُولَّى على الأشرارِ الفُجَّارِ إلّا مَن يكونُ مِن جنسِهم.

ولمَّا كانَ الصَّدرُ الأوَّلُ خيارَ القرونِ وأبرَّها كانَت ولاتُهم كذلكَ، فلمَّا شابوا شِيبَتْ لهم الولاةُ، فحِكمَةُ اللَّهِ تأبى أن يُوَلِّي علينا في مثلِ هذه الأزمانِ مثلَ مُعاوِيَةَ وعمرَ بن عبد العَزيزِ، فَضلاً عن مثلِ أبي بكرٍ وعمرَ، بل وُلاتُنا على قَدرنا وولاةُ مَن قبلنا على قَدْرِهم وكلٌّ من الأمرين مُوجِبُ الحكمةِ ومُقتضاها.

ومَن له فِطنَةٌ إذا سافَرَ بفكرهِ في هذا البابِ رأى الحكمَةَ الإلهيَّةَ سائرةً في القضاءِ والقَدرِ، ظاهرَةً وباطنَةً فيهِ كما في الخَلْقِ والأمرِ سواءً، فإيَّاكَ أنْ تَظنَّ بظنِّكَ الفاسدِ أنَّ شيئاً من أقضيتِهِ وأقدارهِ عارٍ عن الحكمَةِ البالغَةِ، بل جميعُ أقضيتهِ تعالى وأقدارهِ واقعةٌ على أتمِّ وجوهِ الحكمَةِ والصَّوابِ، ولكنَّ العُقولَ الضَّعيفَةَ محجوبةٌ بضَعفها عن إدْراكِها، كما أنَّ الأبصارَ الخُفَّاشيَّةَ محجوبةٌ بضعفها عن ضوءِ الشمسِ، وهذه العقولُ الصِّغارُ إذا

صادَفها الباطلُ جالَت فيهِ وصالَت، ونَطَقَت وقالت، كما أنَّ الخُفَّاشَ إذا صادَفَهُ ظلامُ الليلِ طارَ وسارَ:

خفافيشُ أعْشاها النَّهارُ بضوئهِ وَلازَمَها قِطْعٌ منَ الليلِ مُظلمُ

وتأمَّلْ حِكمتَهُ تبارَكَ وتعالى في عُقوباتِ الأُمَمِ الخاليَةِ وتَنْويعِها عليهم بحسبِ تنوُّعِ جرائمهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨ ـ ٤٠].

وتأمَّلْ حِكمتَهُ تعالى في مَسْخِ مَن مَسَخَ منَ الأُمَمِ في صُوَرٍ مختلفَةٍ مناسبَةٍ لتلكَ الجرائمِ؛ فإنَّها لمّا مُسِخَت قلوبُهم وصارَت على قلوبِ تلكَ الحيواناتِ وطِباعِها اقتَضَتِ الحكمَةُ البالغَةُ أنْ جُعِلَت صُورُهم على صُوَرِها لِتَتمَّ المُناسَبَةُ ويكمُلَ الشَّبَهُ، وهذا غايةُ الحكمَةِ. واعْتَبِرْ هذا بمَن مُسِخوا قِرَدَةً وخنازيرَ، كيفَ غَلَبَت عليهم صفاتُ هذه الحيواناتِ وأخلاقُها وأعمالُها!

ثمَّ إن كنتَ منَ المُتوسِّمينَ[1] فاقرأْ هذه النُّسْخَةَ من وجوهِ أشباهِهِم ونُظَرائهم، كيفَ تراها باديَةً عليها؟ وإنْ كانَت مَستورَةً بصورَةِ الإنسانيَّةِ فاقْرأ نُسْخَةَ القِردَةِ من صُورِ أهلِ المَكرِ والخَديعَةِ والفِسْقِ الذينَ لا عُقولَ لهم، بل هم أخفُّ النَّاسِ عُقولاً وأعظمُهم مكراً وخداعاً وفسقاً!

---

(١) إشارة إلى قولهِ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

فإنْ لم تَقرأ نُسخَةَ القِرَدَةِ من وجوهِهم فلَستَ من المُتوسِّمينَ، واقرأ نُسخَةَ الخنازير من صوَرِ أشباههم وَلا سيَّما أعداءُ خيارِ خَلْقِ اللَّهِ بعدَ الرُّسُلِ وهم أصحابُ رسولِ الله ﷺ.

فتأمَّلْ مُطابَقَةَ هذا الوَصفِ لأعداءِ الصَّحابَةِ كيفَ تجدُهُ مُنطبقاً عليهم؟ فإنَّهُم عَمَدوا إلى أطيَبِ خَلقِ اللَّهِ وأطهرهم فعادوهم وتبرَّؤوا منهم، ثمَّ والَوْا كُلَّ عدوٍّ لهم منَ النَّصارى واليَهودِ والمُشركينَ، فاستَعانوا في كلِّ زمانٍ على حَربِ المؤمنينَ المُوالينَ لأصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بالمُشركينَ والكفَّارِ وصرَّحوا بأنَّهُم خيرٌ منهم. فأيُّ شبَهٍ ومُناسَبةٍ أوْلى بهذا الضَّرْبِ منَ الخنازيرِ؟! فإنْ لم تقرأ هذه النُّسخَةَ من وجوههم فلستَ من المُتوسِّمين!

وأمَّا الأخبارُ التي تكادُ تبلغُ حدَّ التَّواترِ بمَسخِ مَن مُسخَ منهم عندَ الموتِ خِنزيراً فأكثرُ مِن أن تذكرَ ها هُنا، وقَد أفرَدَ لها الحافظُ محمّد بن عبدِ الواحدِ المَقدسيّ كتاباً.

وتأمَّلْ حِكمتَهُ تعالى في عذابِهِ الأُمَمَ السَّالفَةَ بعذابِ الاستئصالِ لَمَّا كانوا أطوَلَ أعماراً، وأعظَمَ قُوىً، وأعتى على اللَّهِ وعلى رُسُلِهِ، فلمّا تَقاصَرَت الأعمارُ وضَعُفَت القُوى رَفَعَ عذابَ الاستئصالِ وَجعَلَ عذابَهم بأيدي المُؤمنين، فكانَت الحكمَةُ في كلِّ واحدٍ من الأمرينِ ما اقتَضَتْهُ في وَقتهِ.

وهذا فَصلٌ مُعتَرِضٌ، وهو أنفعُ فصولِ الكتابِ، ولولا الإطالَةُ لوسَّعنا فيه المقالَ، وأكثرنا فيهِ منَ الشواهدِ والأمثالِ، ولَقَد فَتَحَ اللَّهُ الكريمُ فيه الباب، وأرشدَ فيهِ إلى الصَّواب، وهو المَرجُوُّ لتمامِ نعمتهِ، ولا قوَّةَ إلَّا باللَّهِ العليِّ العظيم.

تم الكتاب

والحمد لله رب العالمين

المُحْتَوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الثالث
النظر في الظواهر الكونية

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الباب الرابع
النظر في عالم الحيوان

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس
النظر في عالم النبات

الموضوع	الصفحة

الباب السادس
النظر في الشريعة وحكمتها

الموضوع	الصفحة